علي مولا

فانينا

أو عشقُ الراهبة



بيير ساباش

أنطوان كرازياني

ترجمة:

عبد الوهاب مدني

فانيـــــنا

أو

عشقُ الراهبة

فانيـــا أو عشقَ الراهبة

بيير ساباش/ أنطوان غرازيني

دار الكلمــة للنشـر والتوزيـع
سورية، دمشق - ص ب : ٢٢٣٩
ها : ٢١٣٤٦٩٢ فا : ٢١٢٦٣٢٦
....
دار الحصـــــــــــــــاد
طباعة - نشر - توزيع
سورية - دمشق
ص ب: ٤٤٩٠، ها ٢١٣٤٦٩٢
فاكس ٢١٢٦٣٢٦
alhasad@scs-net.org
الطبعة الأولى: ٢٠١٠

بيير ساباش/ أنطوان غرازيني

فانيـــــــنا
أو
عشقُ الراهـبة

ترجمة، عبد الوهاب المدني

فانينا جميلة،

جميلة وأجمل من الجميع

فانينا شمس المنزل،

وشمس المدينة

فانينا

الزهرة

والنحلة

والعسل.

لن تتمكن همونيا أن تأتي بعد الآن على ذكر تلك الأغنية الجميلة، التي كانت ترددها دائماً. في مساء ذلك اليوم الصيفي الحار خشيت على صغيرتها الحبيبة أن يعصف بها غضب الآلهة الذي يهبط عادة كالعاصفة.

حتى المعمرّين من سكان روما لا يتذكرون أنه مر عليهم من قبل مثل ذلك اليوم الصيفي الحار، فقد بدت المدينة كأنها ميتة ولجأ جميع أفراد الشعب إلى أحواض السباحة الخاصة والعامة، وإلى المعابد والخمارات وإلى أي مكان يستطيعون أن يتغلبوا فيه ولو بقدر بسيط على هذا الجو الحار، وهم ينتظرون انفجار هذه العاصفة المخيفة التي تهدد المدينة منذ عدة أيام.

وفي هذا الوقت بالذات وفي أعالي قمم جبل بالاتين وفي أحد المنازل القديمة كانت فانينا تضحك وتلعب بعد أن مددتها مربيتها فوق الطاولة الثقيلة المصنوعة من شجر السماق الأخضر وبدأت تمسح جسمها الغض بالزيوت التي صنعتها بنفسها والتي

تفوح رائحتها كالمسك، إلا أن الصغيرة كانت لا تتوقف عن الحركة واللعب. بعد ذلك قالت لمربيتها متوسلة :

- كفى يا همونيا كفى أرجوك.

لكن فانينا، على الرغم من كل حركتها ولعبها لم تستطع منع مربيتها أو جعلها تتوقف عن عجن جسدها الغض وجلدها الناعم كالحرير. وبعد قليل داعب النوم عيني الصغيرة فلجأت إلى صدر المربية وهمَست قائلة :

- دعيني. دعيني.

- هيا نامي ياعزيزتي. نامي أتمنى لك أحلاماً سعيدة. احلمي أن تكوني إمبراطورة روما في أحد الأيام. واحلمي أن تكوني أجمل امرأة في العالم. نامي وشاهدي في أحلامك الرجل الذي سيأخذك بين ذراعيه، والذي سوف تخلعين إزارك أمامه.

كانت ترِتُنا والدة فانينا تسمع هذا الحديث من أوله ولكنها لزمت الصمت، وقد أحنت برأسها على طاولة النسيج اليدويه التي كانت أمامها شأنها في ذلك شأن معظم نساء الأشراف في روما اللواتي يمضين جل وقتهن بهذا الشكل.

بعد ذلك رفعت الأم رأسها لكي تستريح بعض الشيء وعلى الرغم من أنها لم تتدخل بالحديث لكنها قالت غاضبة :

- كفى يا همونيا. كفى.

ابتعدت فانينا عن ذراعي مربيتها رغم أن النوم كان يداعب جفونها وفهمت أن هناك ملاسنة سوف تنشب، علماً أن مثل هذه المناقشات كانت تعد من الأمور العادية التي تحدث كل يوم والتي كانت تستغربها هذه الصغيرة. ولكنها كانت تعرف أن هذا النقاش الذي يحتدم بين الإمرأتين هو بسببها.

سألت همونيا سيدتها وقد غضبت منها :

- وهل في ما قلته شيء من الإساءة؟ هل من إساءة في تكراري مقولة أن فانينا ستكون في أحد الأيام لائقة بأحد الأباطرة ؟ وهل رأيت يا سيدتي العزيزة جمالاً يضاهي جمالها حتى الآن؟ انظري إلى لون بشرتها إنه يذكرني بلون عاج الفيل الذي يجلبه البحارة. أما شعرها الذهبي فهو أجمل من شعر أجمل الفتيات الألمانيات.

- ولكن لا داعي لأن تكرري لها هذه الكلمات على الدوام.

- لم يتجاوز عمر الصغيرة الست سنوات وذكاؤها بالغ يا سيدتي وكل من يراها يعجب بها.

بعد ذلك عادت همونيا إلى الصالة وجالت بنظرها على الرسوم التي تغطي الجدار من أوله حتى آخره. كانت الرسوم لمجموعة من الشخصيات المهمة، وقد لاحظت همونيا أن الشعر عند جميعهم أسود كالفحم والبشرة سمراء والعيون جاحظة وما من أحد بينهم شعره ذهبي اللون.

كانت هذه الرسوم لمشاهير الشخصيات الذين يمثلون العائلة المحترمة التي أنجبت فانينا. كان بين هؤلاء حكام وقناصل، وضباط كبار، ورؤساء عسكريين، والكثير من رجال الدين: قساوسة ، رهبان، كهنة، ومن يقومون بالتشريفات في الطقوس الدينية. ثمة رسمٌ من بين تلك الرسوم تميز أنه أكبرها وبدا كأنه الزعيم أو الحاكم.



والزعيم الكبير هذا هو"ماسترنا مارسيوس فانينوس" الوارث الأخير لعرش الملك العظيم أترسك، وهو من قام، تنفيذاً لتوجيهات رومولوس بوضع حجر الأساس لمدينة روما. كان ماسترنا كاهناً وساحراً وسراً من أسرار الآلهة. لقد كان معظم الأشخاص الذين تنتسب إليهم فانينا يتحلون بالجرأة ويمتلكون معرفة ومهارة مميزة، ولم يكونوا ليقبلوا المناقشة وعلى الأخص ماسترنا.

استمرت همونيا بالتفكير ثم قالت:

- أغرب ما في الأمر يا سيدتي أنني لم أر بين جميع أفراد العائلة وفي روما كلها امرأة شقراء مثل فانينا. حتى شعرك أنت لونه داكن وقريب من لون شعر سيدي فانينوس، ولو كلفت نفسك قليلاً ونظرت إلى جميع هذه الرسوم لن تجدي امرأة شقراء واحدة.

وبينما كانت المربية تثرثر بكلماتها هذه وتلف الصغيرة بشال من الكتان المزخرف أبرقت السماء وطغى نور البرق على أضواء المنزل وانعكس لمعانه على اللوحات المعلقة على الجدران. ومن ثمّ عربدت السماء ودوّى صوت رعدَ مُصِمٌ للآذان.



ارتعدت همونيا وأطلقت تِرِنْتا صرخة خفيفة فقفز الخدم الأربعة الكسالى المكلفون بسقاية الحديقة من الزاوية الظليلة التي كانوا يلتجئون إليها وبدأوا يتهامسون فيما بينهم وهم يشيرون إلى السماء التي امتلأت بالغيوم الداكنة. ها هي العاصفة التي كان ينتظرها الجميع قد انفجرت أخيراً.

هبت فانينا خائفة فهمست همونيا في أذنها بصوت حنون:

- ليس هناك ما يخيف يا صغيرتي، إن السماء ترعد: هيا استلقي هنا. لكن فانينا لم يكن لديها أدنى رغبة في أخذ قسط من الراحة فالتفتت إلى جهة الحديقة وقالت:

- جاء بابا!. لقد سمعت صوته.

فعلّقت المربية التي لا تضيع أي فرصة لكي تشيد بصغيرتها قائلة:

- ألم أقل لك ياسيدتي إن هذه الفتاة تمتاز بحاسة سمع مرهفة فهي تسمع أفضل من الجميع.

حملت همونيا فانينا بين ذراعيها وسارت مع تِرِنْتا وعبرتا من بين الأعمدة التي تحيط بالحديقة ووقفتا عند بداية الصالة الكبيرة الممتدة حتى باب المنزل الخارجي.



بقيت السماء متلبدة بالغيوم وأخذ الرعد يقترب تارة ويبتعد تارة أخرى ويحدث ضجيجاً لا يهدأ. فجأة شاهدت فانينا حوالي عشرين رجلاً في نهاية صالة العرض. عبروا الباحة الداخلية واتجهوا نحو الحديقة. ثيابهم متواضعة، يرافقون اثنين من أعضاء مجلس الشيوخ وضع كل منهما على حزامه الأبيض شريطاً أحمر غامقاً. والرجال العشرون هم من أولائك الطفيليين الذين درجوا على مرافقة أعضاء مجلس الشيوخ وفتح الطريق لهم وتسهيل مرورهم.

وأما عُضْوَا مجلس الشيوخ الإثنان فكانا من الشباب الأشداء ومن ذوي البشرة السمراء، شعرهما أسود وعيونهما جاحظة، قصيرا القامة وفي الأربعين من العمر. أحدهما، والد فانينا، يُدعى كينوس مارسيوس فانينوس، أما الرجل الآخر فكان أطول قليلاً وأكبر سناً، شعره أجعد وتبدو عليه مظاهر الخمول والكسل. إنه كورينوس دولا بيللا صديق والد فانينا.

تخلصت فانينا من يديْ مربيتها وأسرعت نحو أبيها. ولم تحفل بسقوط شالها الكتاني الذي كانت تلتف به. وهتفت فرحة:

- عدت بسرعة يا بابا. أنا فرحانة لعودتك.



لم تنس فانينا فيما بعد كل اللحظات التي مرت بها في ذلك اليوم العاصف. وقف فانينوس ودولا بيللا إلى جانب نافورة الماء وسط الحديقة. أما هي، فانينا فكانت تتأمل اللوحات الملونة التي شكلتها في السماء خطوط البرق الكثيرة.

فجأة قطب دولا بيللا جبينه وأشار بذقنه إلى فانينا التي هرعت نحوهما، ثم مال على أذن فانينوس الذي رد عليه بكلمات سمعتها فانينا وطرقت مسامع كلٍ من تِرِنْتا وهمونيا:

- إنك تملك خيالاً خصباً يا دولا بيللا ، فمهما بلغت سفالة ذلك الرجل وظلمه ، فلن يجرؤ على استغلال هذه الصغيرة ويجعلها أداة لانتقامه.

لم يجد الرجل فرصة أكبر لكي يتكلم أكثر من ذلك لأن فانينا طوقت عنق أبيها وبدأت تنهال عليه قبلاً. أما دولا بيلا فقد نصب قامته والتفت إلى تِرِنْتا الواقفة إلى جانب همونيا وبادرها متصنعاً بكلام ليس له أي معنى أو مناسبة :

- لا يمر علي يوم إلا وأستغرب فيه كيف استطعتِ أنت والسيد فانينوس إنجاب مثل هذه الطفلة. ثم أضاف قائلاً : عزيزتي تِرِنْتا إن الأترسك قوم سمر ولا يمكن أن ينجبوا فتاة شقراء كأشعة الشمس. ولكن على ما يبدو فإن هذا الأمر يندرج ضمن أسرار الطبيعة.

ثم أضاف السياسي العجوز قائلاً وهو يدقق في وجه فانينا التي كانت لّما تزل تداعب والدها مثل عالم يتفحص حيواناً نادراً :

- ليس لدي أدنى شك في أن هذه الفتاة هي من نسل ماسترنا الكبير، فهذه النظرات الثاقبة والشفاه القرمزية الممتلئة توضح حقيقة الأمر. وإنها لخسارة كبيرة أن لا تتمكن هذه الفتاة الجميلة ، يوماً ما ، من أن تحتل مكان والدها في مجلس الشيوخ !. ماذا سيقول أهالي روما؟

كان فانينوس ، والد فانينا يحاول أن يتصدى دائماً وفي جميع أنحاء الإمبراطورية لحملات الانتقاد والتشهير التي يتعرض لها جراء إصراره على الإصلاح وتسليط الأضواء على جميع المفاسد والأخطاء. وقد سمعت فانينا الكثير عن والدها وعن كونه يمثل وجدان مجلس الشيوخ. و تعرف أنه يتصدى دوماً للأشرار وقطاع الطرق وهذا ما جعل له أعداء كثيرين تجاوز عددهم المئة وربما الألف. ولكن فانينوس كان يفتخر بهذا العدد الكبير من الأعداء ، ولم تكن فانينا تدرك لماذا كانت والدتها الخجولة الهادئة ومربيتها المخلصة تصرّان دوماً على تنبيه والدها بشكل مستمر لكي يكون حذراً في كلامه.



لم تستطع فانينا أن تمنع شعور الامتعاض الذي أحست به عندما رأت كيف امتقع لون وجهيْ والدتها وهمونيا وقد أصبح فجأة أصفر كثمرة الليمون، وعندما قالت تِرِنْتا بصوت مرتجف:

ـ ماذا تقصد يا دولا بيللا؟ ماذا جرى في مجلس الشيوخ؟

وكذلك عندما تساءلت همونيا بغضب: ولماذا يجب أن تكون فانينا أداة لانتقامهم؟

لم يبد على وجه فانينوس أي امتعاض لكن ابنته، فانينا التي كانت تحتضنه قد لا حظت بعض آثار التوتر على وجهه. استمر دولا بيللا بإسلوب السخرية والتفت إلى صديقه قائلاً:

- وهل من الممكن أن لا أنقل لزميلي المحترم الخبر الذي سمعت به روما والذي كان السبب في شق مجلس الشيوخ إلى قسمين؟

أجابه فانينوس بحزم:

ـ حدثتنا بما فيه الكفاية ولكن لابأس في أن تكمل حديثك.

كانت العاصفة على وشك الانفجار والبرق يخطف الأبصار وصوت الرعد لا يتوقف. إنه الزمان والمكان المناسبان تماماً للحديث عن النقاش الصاخب الذي دار في اجتماع مجلس الشيوخ.

ومع ذلك لم يكن دولا بيللا يرغب في إضاعة هذه الفرصة التي سنحت له لكي يتحدث ببعض القيل والقال. فتابع قائلاً:

- حسناً يا عزيزي. لقد تناول البحث في هذا اليوم موضوع تعيين دومتيوس أهنو باربوس في وظيفة مهمة في غالة.



تدخلت تِرِنْتا قائلة:

-   تتحدثون عن صاحب اللحية البرونزية؟

-   لقد أصبت يا عزيزتي فنحن نتحدث عن دومتيوس المقرف قريب الإمبراطور ووريثه الشرعي المتحدر من تلك العائلة التي يتحدث عنها الناس، وكيف أن الرب قد لمس لحية أحد أجداده السوداء فأصبحت لحاهم حمراء اللون!.

فتحت فانينا عينيها باتساع ثم سألت:

-   هذا يعني أن لحاهم كانت سوداء ثم أصبحت حمراء فيما بعد!.

-   نعم يا حبيبتي أصبحت حمراء كالقِدْرِ النحاسي الذي لم يُطلَ بالقصدير.



قطعت تِرِنْتا هذا الحديث البريء ونظرت إلى دولا بيللا ثم إلى زوجها وسألت:

-   حسناً ولكن كيف تقدم ذو اللحية الحمراء ورشح نفسه؟ ثم من لعب بعقله؟

-   وهل هناك من يستطيع أن يلعب بعقله؟ ربما كان صديقه البدين لوسيوس فيتالوس، لكن فانينوس لم يمنحه سوى وقت قصير لا يكفي لأن يقول فيه سوى إسمه فقط. أما دومتيوس فقد قفز بعد ذلك من مكانه وبدأ يتكلم بالتفصيل واختلق بعض الأمور مما جعل أعضاء مجلس الشيوخ يشتبكون مع بعضهم ويتبادلون أقذع السباب والشتائم.

عندها سألت همونيا فانينوس الذي لا زال يداعب ابنته

-   وأنت ماذا قلت لهم يا سيدي؟ !



رد دولا بيلِلا على سؤال المرأة قائلاً:

-   ماالذي يمكن أن يقوله لهم؟ لقد قال لهم: إن كل من يسكن روما يعلم أن الحديث بصوت مرتفع ممنوع. لكن دومتيوس ظلّ يتصرف كالوحش مع بعض سيئي

الحظ الذين يقعون في قبضته. ففي العام الماضي وأثناء مأدبة عشاء قتل أحد العبيد المحررين لأنه رفض تناول النبيذ معه، وفي شباط الماضي فقأ عين أحد الفرسان لأنه تكلم عن بعض أعماله الخارجة على القانون. ومنذ مدة قريبة دهس بدواليب مركبته، عربة أحد الأطفال وكسب جائزة السباق.

جميع المكافآت التي حصل عليها والأموال التي ربحها كانت بسبب بطولاته الخارقة التي قام بها في عالم الرذيلة والتي يخجل لساني من ذكرها، ومثله مثل الكثيرين من أمثاله الشاذين يتحدث عنهم جميع سكان روما، عن انحرافهم وانغماسهم في عالم الفساد والرزيلة وكيف يقوم هو بالذات باستغلال مكانته ليمارس فجوره مع الغلمان، وقد وصلت به الأمور إلى درجة أنه لم يراع أي اعتبار حتى للمحرم من قرابته فتقاسم الفراش مع أخته الحسناء ليديا!.



استغربت تِرِنْتا ما سمعته وسألت:

- وهل علم الإمبراطور أيضاً بهذه الاتهامات؟

- نعم. ولكنك تعرفين الإمبراطور تيبر!. فما أن تحدَّث دومتيوس الغاضب عن الفتيان اليافعين من ذوي الشعور الطويلة، حتى شعر أن الموضوع فيه بعض النيل منه لذلك لم ينفعل أبداً.

في هذه الأثناء صرخت فانينا التي لم تفهم هذا الحديث:

- هناك رجل في الباب!.



كان شعاع البرق الأبيض يضيء وجه السماء الرمادي. انتبه المرافقون ووقفوا على شكل جماعات بين الأعمدة، يتبادلون نظرات الاستغراب مع تِرِنْتا وهمونيا

الواقفتين إلى جانب النافورة. أما دولا بيللا وفانينوس وابنته فقد التجأوا إلى أسفل القنطرة. ولم يكترثوا عند ما مرت السيدتان من أمامهم.

علت بعض الأصوات من الطابق الذي يسكن فيه البواب، ثم سُمِعَ بعد ذلك صوت عراك وضجة ينبعث من الحديقة بسبب انتشال جثة وقعت في الماء وتلا بعد ذلك أصوات ضحك ساخر، ثم سُمِعَ وقع أقدام إنسان مضطرب، العبد كليدياس المكلف بنقل أسماء الزوار إلى سيده. وهرول باتجاه سيده ونَفَسَه يكاد ينقطع. كان في حالة يرثى لها فثوبه قد التصق بجسمه وعيناه متورمتان والدم ينزف من أنفه فصرخ قائلاً:

- سيدي. سيدي. إن السيد دومتيوس ذا اللحية البرونزية موجود هنا وقد جاء مع بعض المصارعين، إنهم يريدون تدمير كل شيء، وقد ألقوا بي في حوض الماء.



وما أن انتهى العبد كليدياس من كلامه حتى دخل رجل قصير القامة، تجاوز سن الشباب وكان ذا لحية برونزية ووجه أصفر فبدأ يصرخ :

- لقد جئتك يا فانينوس: جئتك كي أنتقم منك. لأنك أهنتني أمام الإمبراطور وأعضاء مجلس الشيوخ. فليلدغ لسانك عقرب.

كان الرجل يلبس ثوباً فخماً من الحرير المطرز، يحيط به قرابة عشرة رجال من ذوي العضلات المفتولة ومن جنسيات شتّى، يقفون متراصين وكأنهم كتلة واحدة، ولم يصادفوا أي عناء في اختراق صفوف المنافقين مرافقي صاحب المنزل.

أطلق جميع من كان في الحديقة صرخة قصيرة ثم ساد المكان بعد ذلك صمت مطبق. خافت فانينا من تلك الضجة ومن الصمت الذي تلا بعد ذلك، فالتفتت إلى والدها واحتضنته.

أما العبيد فلم تكن لديهم الجرأة على التصدي لهؤلاء المصارعين فانكمشوا على بعضهم ومكثوا في زاوية الحديقة. لكن الرجل، دومتيوس ذا اللحية البرونزية والذي

كان يرتدي ثوباً حريرياً لونه كلون شمع العسل ومطرز بخيوط الذهب، كان محط أنظار الجميع. وقد تكلست على وجهه ضحكة مصطنعة.

كانت فانينا تنقّل نظرها بين والدها ووالدتها وهمونيا ولسان حالها يقول ماذا ينتظر هؤلاء؟

همونيا التي كانت تمسك بذراع تِرِنْتا دنت من الرجال ونظرت إلى وجوههم القاسية التي قُدت من الصخر، واكتست لوناً رمادياً وقد غُرِست فيها عيون غائرة وشفاه مزمومة. أدركت فانينا أن هذا اليوم هو من أسوأ أيام همونيا. ولاحظت كيف صارجسم مربيتها متوتراً مثل نابض مشدود.

أما والدتها فقد شحب لونها وراح جسمها يرتجف ولكن لم تكن متوترة. بينما كان والدها بمثابة اللغز لهذه المسرحية التي لم تر معنى لها!. تابعت فانينا جيداً تصرفات والدها ولاحظت كيف يشد ذراعيه وصدره وكيف انخفتت أنفاسه. لقد اكفهرّ جسمه كله، صار شأنه شأن الجو حين يكفهرّ والسماء حين تدلهم قبيل انفجار العاصفة.

تحرك فانينوس وسار بجزمته فوق الحصى السوداء التي كانت تصدر صوتاً تحت وقع أقدامه، وتقدم باتجاه ذلك الرجل الأبيض الذي تشوبه زرقة تظهر وتختفي أحياناً والذي كانت نظراته الزائغة ولحيته الحمراء تضفيان عليه مظهر العظمة.

بعد ذلك توقف فانينوس ولم يبق بينه وبين دومتيوس سوى ثلاث خطوات وخاطبه بنبرة حازمة.:

- اخرج من بيتي فوراً يا صاحب اللحية البرونزية وإلا...

لكنّ دومتيوس الذي كانت أصابعه مملوءة بالخواتم المرصعة وق بانت على ثوبه بقعة من النبيذ، دومتيوس هذا، ردَّ بغضب قائلاً:

- وإلا ماذا؟..

- وإلا فسوف آمر عبيدي بسحقك.

ضحك ذو اللحية البرونزية كثيراً ثم التفت إلى مرافقيه وصرخ قائلاً:

- هل سمعتم!؟ إنه سيأمر عبيده بسحقي. أنا أدرك جيداً أن هؤلاء العبيد لن يبقى منهم شيء يذكر إذا مروا بين أيديكم. وأعتقد أن ما سيبقى منهم لا يفيد سوى الجزارين الذين يبيعون لحماً مفروماً.

أطلق مرافقو دومتيوس العمالقة ضحكة حمقاء وبعد أن صفقوا له التفت ثانية نحو فانينوس.



لف الصمت مرة أخرى أرجاء الحديقة، ثم مر دومتيوس الذي بدت عليه علائم السرور والامتنان أمام مصارعيه وكأنه يقوم بعرض رسمي وظهرت عضلاته المفتولة وشعر ساقيه، تحت نهاية التنورة القصيرة التي يرتديها، وبدأ يتحدى بنظراته كلاً من فانينوس ودولا بيلا الواقف خلفه وأيضاً تِرنْتا وهمونيا اللتين وقفتا مع الرجال.

شعرت فانينا بخيبة أمل عندما رأت عدو والدها، يتحداه في عقر داره وقد بدا عليه أنه واثق جداً من نفسه، وأحست أن مخلباً حديدياً قد غُرز في قلبها.

فبدأت الفتاة الصغيرة تدعو بلا توقف وتتوسل للآلهة وأنصاف الآلهة، وهرقل المنتصر، وجوبيتر ملك الآلهة لكي يهبوا إلى نجدتها، وراحت تنظر إلى السماء التي تضيؤها البروق بلا توقف وتقول في نفسها: يجب أن يموت دومتيوس. ليته يسقط ميتاً. ليته يلفظ أنفاسه تحت قدماي.



استمر البرق يضيء وجه السماء واستمر دومتيوس يعربد ويقول:

- هيا يا فانينوس الصغير. هيا جرب ودعنا نلهو قليلاً.

أحس كورن ليوس دولا بيلا أن عليه أن يتدخل، فقال لدومتيوس: ـ لقد أخطأت في مجيئك إلى منزل أحد أعضاء مجلس الشيوخ لذلك أرى أن من الأفضل لك أن تغادر المنزل قبل أن تكبر الأمور.

- ان فانينوس قد حقرني أمام الجميع. وأنت واهم إذا كنت تظن أنني سأغادر هذا المنزل بهدوء.



قطع فانينوس حديث خصمه وقال له بحزم: عليك أن تغادر فوراً. واعلم جيداً أن أمراً كهذا لا يمكن البت به هنا. واعلم أيضاً أني لا أخافك أبداً ولن أدعك وشأنك بل سوف أستمر في كشف ألاعيبك وبطولاتك التي تدعيها أمام الجميع، كما أؤكد لك أنك لامحالة ستسقط إن عاجلاً أم آجلاً مهما علت مكانتك.

ثم التفت السيناتور إلى المصارعين الذين كانوا يقفون كخط دفاع وقال لهم:

- أما أنتم فأنصحكم أن تغادروا هذا المنزل فوراً، وأنا أعرف أن هذا الغبي قد وعدكم بأموال كثيرة لكي تقوموا بإهانتي في منزلي. ولا شك أنكم تدركون جيداً ما الذي يجري إذا تجرأ أحد العبيد ومد يده على أي مواطن من روما، وأُذكّركم أن الأُسُود، والسياط، وأدوات الجلد الأخرى لّما تزل موجودة!.



فالتفت أحد المصارعين الكالدونين وكان قد غطى جسمه برسوم ملونة وخاطب صاحب اللحية البرونزية قائلاً:

- لقد وعدتنا يا سيدي أن لا تقوم بأعمال مخالفة للقانون. ونحن لا يهمنا إذا ما تعرضنا للضرب، أما أن نقع تحت رحمة المحاكم فهذا ما لا نرغبه.

عندها تدخل فانينوس وقال:

- وما شأن المحاكم بأمركم؟ سوف تكونون بين أيدي الجلادين مباشرة وهم سوف ينهون أمركم فوراً وقبل غروب الشمس!.

شعرت فانينا بالارتياح لأن تلك الوحوش قد خافت من كلام أبيها وبدأوا يهمّون في التخلي عن دومتيوس وعن تنفيذ رغباته ومغادرة المكان. لكن دومتيوس لم يتزحزح من مكانه. وسوف يشكو أمرهم إلى سيدهم الأيبيري كلافيتور لكي ينزل بهم العقاب الملائم.



تشبث ذو اللحية البرونزية بأذرعة الرجال الذين لم يغادروا وضغط قائلاً:

- إذا كنتم لا زلتم على استعداد لحمايتي بعد أن أبصق في وجه هذا الكلب الأترسكي فإنني سأضيف لكل واحد منكم ألف قطعة فضية.

إذن ذو اللحية البرونزية يريد أن يبصق في وجه والد فانينا، وقد نعته بالكلب الأترسكي. وهنا انتفضت الصغيرة فانينا وأصبحت كالهرة وتأهبت لتنشب أظافرها في وجه كل من يبغي النيل من أبيها. تركت يد والدها وتقدمت إلى الأمام وصرخت بصوت عال:

- هيا ابصق. ابصق وسوف ترى ماذا سأفعل بك؟

كان الشرر يتطاير من عيني الصغيرة، ورغم أنها لا تعرف معنى هذا التهديد الذي أطلقته، فقد ترددت قليلاً ثم دنت هذه الصغيرة ، التي تعتبر آخر عضو في سلالة ماسترنا الأصيلة والتي خضعت لتربية قاسية. دنت من دومتيوس وبصقت في وجهه.



بعد ذلك أبرقت السماء وأرعدت مرتين بقوة وكأنها تبارك فعلة هذه الصغيرة ومن ثمَّ تساقطت حبات المطر الكبيرة الحجم بغزارة.

في هذه الأثناء دنا أحد المصارعين الألمان وكان يقف على يمين ذي اللحية البرونزية، وقال له ممازحاً:

- يجب علينا أن لا نتركك بمفردك مع هذه الصغيرة يا سيدي.

فرد عليه ذو اللحية البرونزية غاضباً:

- سوف أقطعها إرباً إرباً وأوزعها على الكلاب.

أحست فانينا أنها تعيش كابوساً مزعجاً فها هو الرجل المقرف يمد يديه نحوها، ليطوق عنقها ويخنقها، فداهمتها صرخة رعب أوشكت أن تصدر عنها. وفي هذه اللحظة، وعلى حين غرة ومثل بازي انقضت همونيا على دومتيوس وغرزت أظافرها في عنقه فأطلق صرخة ألم. ولمّا همّ المصارعون بالتدخل ، صرخت فيهم همونيا محذرة:

- إبقوا في أماكنكم ولا تتحركوا، إن تخطوا خطوة واحدة فقأت عينيه.



بعد ذلك أمرته همونيا الذي رسمت بأظافرها على عنقة خطوطاً دامية قائلةً:

- هيا، اركع يا صاحب اللحية البرونزية. اركع أمام سيدتي التي حقرتها. هيا، اركع، اركع أكثر. انزل أكثر حتى يلامس أنفك التراب.

ظلت همونيا تردد هذه الكلمات وهي تضغط على كتفي دومتيوس بكل ما أوتيت من قوة حتى لامس وجهه الحصى ثم تابعت الضغط حتى مرَّغت وجهه بالحصى وأدمته، بعد ذلك نظرت إلى فانينا ووالدها وكأنها تنتظر أوامرهما.

فقال لها فانينوس بصوت جامد وهو يداعب ابنته، وقد بدا عليه القرف:

- دعيه يا همونيا. إنه لأمر مريع أن يُشاهد رجل يتعرض للإهانة بهذا الشكل. وبغير إرادة منها تركت همونيا ذا اللحية البرونزية.



بعد ذلك ضرب ذو اللحية البرونزية جبهته في الأرض وصرخ بصوت متهدج وكأن كابوساً قد أيقظه من الحلم:

- فانينوس، فانينوس.. سأنتقم منك. فانينوس ستكون عائلتك وابنتك أداة انتقامي، سيكون انتقامي من ابنتك مخيفاً وسوف ترى ذلك بأم عينيك، اللتين لن تكفياك لذرف الدموع التي سأجعلك تذرفها.

تدخل السناتور دولا بيللا وأشار إلى المصارع الكالدوني الذي يبلغ طوله مترين وإلى صديقه لكي يرفعا ذا اللحية البرونزية من على الأرض.

وما أن لمست أصابع المصارعين كتف دومتيوس، ذي اللحية البرونزية حتى أطلق صرخة مجنونة وهب واقفاً على قدميه فابتعد الرجلان العملاقان عنه وقد أصابهما الذعر. ومن جديد هوى دومتيوس على الأرض وأصبح عند قدمي فانينوس وراح رأسه يهتز بشكل غريب، وبدت عيناه كأنما خرجتا من محجريهما. ثم بدأ اللعاب الممزوج بالدم يخرج من فمه.



سيطر جو من الدهشة والاستغراب على فانينا فدفنت رأسها في عنق والدها. أما تِرِتْنا وهمونيا والمصارعون فقد تملكهم الخوف.

ازداد المطر انهماراً فالتجأ الجميع إلى الممر ووقفوا بين الأعمدة وقد أصابهم الهلع، وبدأ العرق البارد يتصبب من جسم فانينا، وسمعت والدها يهمس ببعض الكلمات التي تعكس صورة الرعب الكبير الذي سيطر على الجو فقال:

- لقد حلت نقمة هرقل وغضب الآلهة. الرحمة. إحمونا.

في هذه الأثناء أبرقت السماء بشكل يخطف الأبصار وبددت الظلام الذي يلف أرجاء الحديقة. ووقف جميع المتفرجين ممن كانوا يتابعون هذه المسرحية العبثية وقد عقدت الدهشة على ألسنتهم وهم يشاهدون تمثال جوبيتر المنتصب أسفل الهضبة، أمام المعبد القريب من منزل فانينا، يهوي على الأرض ويتهشم تحت قصف رعود السماء المخيفة.

القسم الثاني

■ مليكسو، ستقومين انت بتمثيل دور كسينوفون، أما أنتِ يا كاتيا فسوف تكونين نيويتو ليموس، وأنتَ يا ميريلوس فسوف تكون تيبر، وأنا سأقوم بدور أرملة الإمبراطور أوغست، وسوف أكون الإمبراطورة ليفيا والدة الإمبراطور تيبر:

مليكسو وكاتيا لقد جئتما إلى روما وقد جلبتما لي بعض الهدايا، وها أنذا أقبلكما في بيتي.

كان الجو رائعاً وقد غطت أشعة الشمس جميع أرجاء روما، وصار الجو مناسباً جداً لكي يلهو الأولاد ويلعبوا. لذلك خطر ببال فانينا الاستفادة من هذا الجو فاستنفرت العبيد الثلاثة الصغار الذين بإمرتها لكي تلعب معهم. كاتيا، إحدى هؤلاء العبيد، فتاة ألمانية شقراء، بشرتها تميل إلى البياض وذات قامة طويلة. أما مليكسو فهي فتاة سمراء جميلة. أما الثالث ميريلوس فهو فتى أسود بدين وسواده أكثر من الأبانوس، كان هؤلاء العبيد الثلاثة لطيفي المعشر وجميلي الصورة. كان لدى فانينا فتاتان تلبيان على الفور جميع طلباتها واحتياجاتها وتبدلان لها ثيابها وأساورها وحليها دوماً وبلا ملل.

انصاعت فانينا تماماً لرغبتها في القيام بتمثيلية كوميدية :

- هيا يا مليكسو خذي هذا الصندوق وضعيه تحت الكنبة. سوف تقولين: السلام عليك يا ليفيا المحترمة، وأنا سأرد عليك قائلة: وعليك السلام يا كسينوفون ماذا

جلبت لي في داخل هذا الصندوق الجميل؟ فتردين: إن في داخله أحجاراً كريمة جلبتها لك يا سيدتي المحترمة ليفيا.

قام الصغار بتمثيل هذه المسرحية تماماً كما أرادت فانينا. نظرت الفتاة الصغيرة إلى الأحجار الكريمة الموجودة في الصندوق وبعد أن تفحصتها جيداً قالت بإعجاب:

- ما أجمل هذه الأحجار الكريمة.

أما الفتاتان فقد وقفتا مندهشتين وهما تصغيان باستغراب لما تقوله فانينا، ثم قالت فانينا وهي على عجلة من أمرها:

- ماذا عليك أن تقولي الآن؟

- وماذا تريدينني أن أقول يا سيدتي ؟

- اسأليني كيف أصبح إبني تيبر.

- كيف حال ابنك تيبر يا سيدتي المحترمة ليفيا؟

استدارت فانينا نحو ميريلوس الصغير وضحكت في وجهه حسب المراسيم المعتادة لكنها ما لبثت أن صرخت بأعلى صوتها عندما شاهدت كمية من الماء قد تجمعت بشكل واضح بين قدمي الصغير.

- لقد تبولت إذن أيها الخنزير؟

لم يفهم الزنجي الصغير سبباً لهذا التوبيخ فضحك في وجه سيدته ضحكة بريئة، إلا أن ذلك لم يجد نفعاً، رغم أن فانينا كانت تحب هذا الزنجي أكثر من الجميع ولكنها وفقاً لعادات الأسرة التي تنتمي إليها كان عليها أن تغفر مثل هذه الإهانة، لذلك صرخت في وجهه قائلة:

- هيا اغرب عن وجهي. فأنا لا أريد أن أراك ثانية. إنك فتى قذر.

بعد ذلك سمعت صوتاً يسأل بشكل جدي:

- ما هو الشيء السيئ الذي ارتكبه؟

لو كان تمثال ماسترنا العظيم قد سُرق، أو لو كان قد نزل من على قاعدته لما تسبب بمثل هذا الاستغراب. أدار جميع الأطفال رؤوسهم نحو مصدر الصوت فشاهدوا خيالاً خلف أحد الأعمدة وبعدها ظهر رجل غريب يلتف بحزام أبيض كالثلج ويسير بخطى ثابتة ثم أعاد سؤاله:

- نعم ما هو الشيء السيئ الذي ارتكبه؟



عادت فانينا إلى نفسها بسرعة ونظرت إلى الرجل مرة ثانية. وعلى الرغم من أنه كان رجلاً عجوزاً لكن كان يسير وقامته منتصبة، كان وسيماً، عيناه واسعتان وشفتاه رقيقتان تدعوان للاستغراب، تستر جبهته العريضة ورقبته خصل من الشعر، لونها غريب. كان مظهره يوحي أنه أحد الأبطال الغر الميامين.

وبعد أن انتهت الفتاة الصغيرة من التدقيق في مظهر الرجل، ردت عليه بشكل عفوي وقالت:

- إنك تيبر!. تيبر الحقيقي!.

ورد عليها الإمبراطور مؤيداً كلامها:

- نعم أنا تيبر وأنت لم تخطئي الظن.

- هذه هي المرة الأولى التي أشاهدك فيها عن كثب. هل تعرف أنك تبدو هكذا أفضل؟ ولكن يا للخسارة أنت رجل عجوز ولا يليق بك أن تلعب معي وإلا كنت أخذتك لتمثل بدلاً عن ميريلوس الخنزير.

فرد عليها تيبر:

- سأذهب إذا كنتِ لا ترغبين في وجودي.

هزت الفتاة رأسها وقالت:

- ما دمت قد حضرت. يجب أن لا تذهب. هل ترغب التجول في حديقتنا؟

- بكل سرور.



وهكذا اصطحبت فانينا الإمبراطور بعد أن أمسكت يده على مرأى من جميع أصدقائها وسارت معه في طريق محاط بالأشجار الكثيفة التي حجبت أشعة الشمس بشكل جيد. ووفقاً لأصول التربية العالية التي خضعت لها هذه الفتاة الصغيرة، كان عليها أن تبذل كل ما في وسعها لكي تجامل هذا الضيف العجوز.

عبرا من أمام صالة العرض الممتدة من الباحة الداخلية وحتى الباب الخارجي للمنزل فرأت فانينا مجموعة من الجنود وقد اصطفوا إلى جانب جدار صالة العرض. كانوا عشرين جندياً ألمانياً، خُصصوا لحماية الإمبراطور، يعتمرون الخوذ الحديدية المزينة بالريش وعلى صدورهم الدروع وثمة لوحات صغيرة على أكتافهم محاطة بالأشرطة الذهبية، الشديدة اللمعان. لم يكن هؤلاء الجنود يتركون تيبر بمفرده مطلقاً، شأنهم في ذلك شأن الجنود الأربعة والعشرين الذين كانوا ينتظرون في الشارع وقد اصطفوا و باعدوا بين أرجلهم وأمسكوا بأيديهم اليمنى التروس ذوات الزوايا الأربع وهم يسندونها على الأرض، بينما أمسكوا باليمنى الحراب الرفيعة. وكان هؤلاء الحراث يتصرفون وكأنهم لا يرون ولا يسمعون شيئاً.



سألت فانينا الإمبراطور باستغراب:

- هل يقف هؤلاء الجنود من أجل حمايتك؟

- نعم بالتأكيد.

- وهل هم موجودون هنا لحمايتك مني؟

ركز تيبر نظراته بدقة على فانينا وقال لها بكل جدية وبلا أي أثر لابتسامة في وجهه:

- لا أحد يعرف ممن يجب أن يخاف الإمبراطور أولا يخاف.

فجأة بدا الاستغراب على وجه فانينا فسألته وكأنها خافت كلامه هذا:

- لماذا جئت إلى هنا؟ هل جئت لكي تلعب معي؟

- لقد جئت بصفتي جاراً وصديقاً فأنت تعلمين أنني أسكن قريباً من منزلكم. ثم تابع قائلاً:

- لقد سبق أن مررت أمام منزلكم كثيراً ولكنني لم أجرؤ على الدخول.

- إذن، في هذه الحالة أنا أدعوك لزيارتنا.



استمرا في الحديث حتى وصلا إلى طرف الحديقة ثم عادا في الطريق نفسه.

بدأ تيبر الكلام فسأل:

- أين أبوك وأمك؟

- حملا الهدايا وذهبا إلى معبد جوبيتر.

وبصورة لا شعورية اتجه نظر الإمبراطور نحو قاعدة التمثال المهشم فشاهد اثنين من العبيد يحاولان نقل ما تبقى منه إلى سطح المعبد المجاور.

سأل الإمبراطور:

- من أجل أي نذر سيقدمان الهدية؟

هزت الفتاة الصغيرة رأسها وقالت بلهجة العارف:

- لقد أصابتنا هموم كبيرة وخشى والدي أن يتعرض لغضب الآلهة فذهبت والدتي معه إلى جوبيتر لكي يتضرعا له من أجل حمايتنا.

- إذن تركاك بمفردك؟

ضحكت فانينا وقالت له:

- إن أبي يقول لنا دائماً، على الرغم من أننا نعد أفقر العائلات النبيلة لكن لدينا ثلاثة وأربعين عبداً بالتمام والكمال.

ثم أضافت بأسلوب فيه شيء من السخرية:

- وحتى إذا لم تكن والدتي ووالدي هنا فإن لدي من الحراس ما يفوق عددهم عدد حراسك. فأجابها الإمبراطور بلا اكتراث:

- ومن هم هؤلاء الحراس؟ هل هي مربيتك؟

- نعم إنها همونيا. ولا بد أنها علمت أنك دخلت هذا المنزل أنت وجنودك. وعلى الرغم من أننا لا نراها أنا وأنت فأنا على يقين أنها تراقبني من بعيد. إن همونيا مخيفة وأنت لا تعرف مقدار حبها لي. فإذا تجرأت وألحقت بي أي أذى فإنها لن تتوانى عن مهاجمتك لكي تنشب أظافرها في عنقك ثم ترمي بك إلى أحد الأعمدة. ثم لا تلبث أنت أن تتوسل إليها. ثم تترنح وتهوي على الأرض لأن رجليك لن تقويان على حملك. هل تريد أن أنادي عليها؟

- نادِي عليها ودعيني أراها.

ظهرت المربية قبل أن تفتح فانينا فمها ثم وقفت أمام الإمبراطور وحيته.



أخذت الفتاة تدقق في تصرفات تيبر بطرف عينيها. ومن ثم سحبت يدها من يد الإمبراطور. التفتت حولها واستغربت عندما رأت أحد المرافقين العمالقة الألمان الذين

كانوا يقفون إلى جانب الأعمدة، على أهبة الاستعداد وقد صوب حربته باتجاه همونيا دفاعاً عن الإمبراطور.

شعرت فانينا أن أيام طفولتها المليئة بالسعادة والهناء قد وصلت إلى نهايتها. فبالأمس جاء ذو اللحية البرونزية وأزعجها، واليوم يجيء تيبر مع عساكره يهددون همونيا بالموت، وهي لا تستطيع فعل شيء. أحست الفتاة الصغيرة أن يداً كالجليد تريد أن تعتصر قلبها.

تجاهل الإمبراطور وجود المرافق العملاق وبدأ يسأل همونيا.



كانت همونيا تحدق في عيني تيبر بلا خجل أو وجل ثم قالت له:

- لقد سررنا بوجودك، أيها القيصر العظيم تيبر.

- تبدين وكأنك في الأربعين من عمرك.

- أنا في الثامنة والثلاثين أيها القيصر العظيم تيبر.

- هل أنت من العبيد؟

- كلا أنا حرة أيها القيصر العظيم تيبر، أنا أخت المحترم كينوس مارسيوس فانينوس بالرضاعة ومربية ابنته، وقد حررني السيناتور فانينوس مكافأة على خدماتي وأراد أن يرسلني إلى أهلي ولكنني فضلت البقاء هنا.

- هل لديك أولاد؟

- لقد مات الإثنان عندما كانا صغيرين يرضعان، أيها القيصر العظيم تيبر، لكن الآلهة قد عوضتني عنهما بفانينا!.

توقف تيبر عن الكلام وحل مكان الابتسامة المرسومة التي كانت تعلو شفتيه ووجهه، شعور الاستغراب فسألها:

- أنا واثق من أنك قد أخذت بعين الاعتبار جميع احتمالات الأخطار التي يمكن أن تتعرضين لها من جراء حمايتك لهذه الصغيرة. أنا أحب الناس المخلصين.



شعر الإمبراطور أنه قد تكلم زيادة عما يلزم فتوقف عن الكلام وأشار بحركة من ذقنه إلى همونيا لكي تعود إلى مكانها، لكن فانينا أمسكتها من يدها ومنعتها من الابتعاد.

- سوف أرسل لك غداً عشرة آلاف قطعة فضية لقاء اهتمامك بفانينا.

- كلا. أشكرك لا أريد.

شعرت فانينا بالارتياح. وقالت في نفسها كم هو طيب هذا الإمبراطور! فبدأت تنظر إليه وهي تنشد بأهزوجة من تأليفها هي:

- كم أنت طيب يا تيبر. أنت لست خائناً مثل صاحب اللحية البرونزية!. أنت حلو جداً!. حلو جداً!.

لفت نظر تيبر الكلام الذي قالته الصغيرة وقال:

- أنت تقولين أنني حلو علماً أنني لم أسمع أحداً من قبل يقول لي مثل هذه الكلمة.

فأضافت فانينا:

- وها أنذا أقولها لك!.

- ألا يمكن أن تغيري رأيك بي عندما تكبرين؟

نظرت فانينا إلى الرجل العجوز وقالت له وهي تبتسم:

- سأقول لك عندما أكبر أنك أحلى بكثير مما كنت أراك عندما كنت صغيرة.

بدا وجه فانينا للإمبراطور كما لو أنها قد وضعت عليه برقعاً من الرخام فقال لها:

- هذا يعني أنك ترغبين في أن يكون لك أطفال، أليس كذلك؟

فأجابته فانينا بلا تردد :

- أريد أن أنجب الكثير من الأطفال، وأرغب في الزواج من رجل جميل يحبني جداً جداً.

- حسناً ولكن ماذا لو أن الآلهة تريد غير ذلك؟

- إن همونيا تقول لي دوماً أنت تليقين وتصلحين أن تكوني زوجة لإمبراطور.

- ولكن هل هناك إمبراطور يليق بك يا ترى؟

- همونيا لا تكذب أبداً.

- لكن همونيا لا تستطيع أن تفعل شيئاً أمام مشيئة الأقدار.

ثم أضاف قائلاً بعد تردد وبدون أن يركز نظره في عيني الطفلة :

- ولكن الحب ليس كل شيء في هذه الحياة!.

- وهل هناك شيء في هذه الحياة أجمل من الحب يا تيبر؟

في هذه الأثناء سمعت الفتاة والعجوز وقع أقدام تسير فوق الحصى الموجود في أرض الحديقة. كان القادم هو رئيس المرافقين الألمان وبعد أن قدم التحية للإمبراطور قال :

- إمبراطوري العظيم. لقد وصل السيناتور فانينوس وزوجته.

فأجابه الإمبراطور بصوت جامد :

- أرجو أن لا تكون قد منعتهما من الدخول!. هيا أيها الشاب اذهب واعتذر منهما لأننا استولينا على منزلهما ثم دعهما يدخلان.

وبعد ثوان قليلة ظهر فانينوس وترِنْتا معه في بداية صالة الاستقبال وما أن شاهدا الإمبراطور حتى بادره فانينوس بالتحية قائلاً :

- السلام على القيصر .



لم يتحرك الإمبراطور من مكانه واكتفى أن ربت بيده اليمنى على كتف فانينوس وقال له:

- آمل أن تكونا على ما يرام يا فانينوس أنت وتِرِنْتا:

تصرف فانينوس وزوجته بسرعة وقاما بحركة فيها بعض النفاق وتقدما بخطوات بطيئة نحو تيبر. لكن الإمبراطور وفانينا لاحظا كيف أن والد فانينا وأمها قد تجنبا المرور فوق المكان الذي سقط فيه ذو اللحية البرونزية قبل يوم.

وفي تصرف يليق بسيدة منزل قالت تِرِنْتا:

- نحن سعداء جداً لأنك تلطفت بزيارة منزلنا أيها القيصر تيبر.

فرد عليها تيبر بعد أن تلفت يميناً وشمالاً:

- لا يمكن أن تكونا سعيدين مثلي. ثم التفت بعد ذلك إلى فانينوس وقال له:

- لديك طفلة جميلة جداً يافانينوس وهي إضافة إلى جمالها ذكية أيضاً، كما أنها تجيد التحدث مع الآخرين. جمالها لامثيل له وعلى الأخص شعرها الذهبي الذي يوحي بالعظمة، وأعتقد أنها الفتاة الوحيدة في عائلات أشراف روما التي تمتلك شعراً ذهبياً، إضافة إلى كونها حفيدة ماسترنا العظيم، لذا فأنا أعتبر أن وجود مثل هذه الفتاة بيننا ضرب من معجزات القدر.

ثم مشى تيبر بعد ذلك، بضع خطوات نحو بداية صالة الاستقبال، وعندما رآه الحراس التفوا حوله لكي يرافقوه حتى الوصول إلى مركبته لكنه توقف قليلاً عندما أصبح بحذاء فانينوس وتِرِنْتا وقال لهما:

- لا زلتما شابين. ونحن لا نريد نسل ماسترنا أن ينتهي لذا يجب عليكما أن تنجبا لنا ولداً ذكراً وبسرعة.



انزعجت تِرِنْتا وأجابت القيصر:

- إن ابنتنا هي من نسل ماسترنا أيضاً، حتى ولو لم نرزق بولد ذكر فإن اسم فانينوس سوف يستمر، لأننا سوف نتبنى الرجل الذي سيتزوج فانينا!.

- هذا جائز إذا كان هناك إمكانية لزواج فانينا!.

فردت فانينا غاضبة:

- مرة أخرى؟ لماذا لا تريد زواجي أيها القيصر تيبر؟

ثم أكملت تِرِنْتا كلام الطفلة وسألت:

- نعم لماذا لا تريد؟

حاول الإمبراطور تجنب النظر إلى الفتاة الصغيرة التي احمر وجهها من شدة غضبها واتجه بنظراته الجامدة نحو تِرِنْتا وفانينوس وقال لهما:

- هل تسألان لماذا أيها الأصدقاء؟ ربما لأن الآلهة هيأت لكما شرفاً أكبر، ولعلكما علمتما أنه سيتم في الغد انتخاب راهبة لفستا بدلاً عن الراهبة المحترمة المرحومة كاسيا. ووفقاً للعادات المتبعة فسوف تحضر العائلات الكبيرة مع بناتها اللواتي تتراوح أعمارهن بين السادسة والعاشرة، وسوف تُنتخب الأجمل من بينهن لتكون الراهبة البديلة.



انتظر الإمبراطور برهة قبل أن يتابع حديثه لكي يعرف وقع كلامه ثم قال:

- ولا حاجة لأن أخبركما أننا وجدنا صعوبة بالغة لكي نتمكن من تحقيق هذه الوظيفة المقدسة، خاصة في أثناء تحضير قائمة أسماء الفتيات اللواتي يمتلكن المواصفات اللازمة، ولكن الله قد أرسل لنا الصديق لوسيوس فيتالوس الذي هب لمساعدتنا وكان أول اسم أعطانا إياه هو إسم كريمتكما فانينا.

ارتعدت فانينا.

بعد ذلك سُمعت أصوات أقدام المرافقين المكلفين بحمل مركبة الإمبراطور ذات الستائر الوردية، وهي تبتعد عن المنزل.

التجأت فانينا بعد ذهاب الإمبراطور تيبر إلى صالة الاستقبال التي كان الجو فيها لطيفاً جداً.



يا لها من منغصات لم تكن بالحسبان، تتوالى منذ البارحة على رأس الفتاة المسكينة فانينا، وقلبت حياتها رأساً على عقب، فجعلتها تهذي:

- راهبة فستا؟ راهبة فستا؟

شُهِرت راهبات فستا في جمالهن، فهنَّ الأجمل والأشرف في روما ومحط إعجاب ومحبة الجميع، ولكن على الرغم من ذلك لم يكن ليخطر في بال فانينا في يوم من الأيام أن تكون راهبة فستا. لأنها كانت أسيرة الكلام الذي كان يردده والدها والمديح الهائل الذي كانت تكيله المربية دوماً لجمالها الأخاذ، وأنها محط أنظار الجميع، لدرجة أنها ملت من سماع :

- سوف تكونين لائقة بإمبراطور، وسوف يكون زوجك أجمل وأغنى الرجال وستكونين مدللة من جميع النساء، وستصبحين أسعد أم.

لنأت الآن على ذكر قيافة راهبات فستا ولباسهن الأبيض اللافت للأنظار، وكيف يجب أن يكنَّ عذارى ويحافظن على عذريتهن.

كانت فانينا ترغب في أن تتوج مثل راهبات فستا، وتلبس مثل قيافتهن، ولكن ذلك يتطلب منها أن تتخلى عن جميع مظاهر الحياة السعيدة التي يتحدث عنها جميع المحيطين بها.

كانت الفتاة الصغيرة على يقين من أن حظها لن يكون واحداً من عشرين فهي تعرف أنها فتاة مدللة لذلك فإن الآلهة سوف ينتخبونها حتماً.



كانت فانينا مشوشة التفكير وهي تركز أنظارها على رسوم عماتها وعمات من كُنّ راهبات في فستا، وكأنها تبحث في وجوههن عن إجابة لتساؤلاتها. لم يكن في روما عائلة أعطت راهبات بالعدد الذي أعطته عائلتها، كان عددهن سبع راهبات بالتمام، وكانت فانينا تعرف كل شيء، عن تاريخهن ورفعتهن. وعلى سبيل المثال، تعرف أن أشهرهن هي إميليا إبنة ماسترنا، أما الأخريات فهن مارسيا، فانينا الأولى، فانينا الثانية، سفرينا، فانينا الثالثة، فانينا الرابعة.

بعد ذلك تمتمت الصغيرة وقالت:

- وأنا سأكون فانينا الخامسة.

عاد الأب والأم مباشرة بعد أن ودعا الإمبراطور وركب في مركبته، ودلفا من طريق صالة العرض الكبيرة ثم خرجا إلى الحديقة وهما مطأطئي الرأس، تكسوهما علامات اليأس، وكأنهما فقدا شخصاً عزيزاً. وما أن جلسا إلى جانب النافورة لكي يأخذا قسطاً من الراحة، حتى لعلع فجأة صوت همونيا وكأنها لبوة جريحة!.

- لقد تم الأمر، واختارت روما ضحيتها!.

وما أن سمعتها فانينا التي كانت في أول الصالة حتى هبت كالعاصفة وهجمت عليها لإسكاتها، ثم سحبتها من يدها ووقفت إلى جانب فانينوس وتِرِنْتا، لكن همونيا لم تتوقف عن الكلام بل تابعت صراخها قائلة:

- إن روما بحاجة إلى ضحية جديدة. لذلك فهم يريدون أن يختاروا أجمل وأذكى الفتيات. لقد أخذوا مني ابنتي!.

صحح السيناتور كلامها وقال:

- ما من شيء هناك مؤكد حتى الآن. إن معظم عائلات الفتيات اللواتي سيتقدمن إلى هذا الانتخاب ينظرون إلى الموضوع على أنه كارثة، في الوقت الذي يتحتم عليهم أن يقابلوا هذا الشرف العظيم بالشكر والامتنان. وأنا، لو كان عندي ولدٌ آخر بالإضافة إلى فانينا، ما كنت لأتوانى عن تقديمها هدية إلى فستا بدون الحاجة إلى إجراء قرعة بين الفتيات، تماماً كما فعل أجدادي قبلي، وبدون أن أسمع صوت قلبي أبداً.



كانت تِرِنْتا تنظر أمامها وهي واجمة فالتفتت إليها همونيا وقالت لها وهي تصرخ:

- وما رأيك أنت يا سيدتي، ماذا تقولين؟ هل أنت على استعداد لرمي ابنتك لتصبح كاليتيمة وهل تتقبلين هذا الشرف العظيم بالشكر والامتنان. وهل تصدقين أن الإمبراطور قد مر علينا بالمصادفة وهو ذاهب إلى منزله، وأنه تذكر إسم فانينا فجأة وأضافه إلى القائمة؟

- ماالذي تريدين قوله؟

خافت فانينا كثيراً إذ لم يسبق لها أن سمعت مربيتها تناقش أبويها بهذه الحدة.

بدأت همونيا ترتجف من رأسها وحتى أخمص قدميها. وقالت بإصرار:

- أنا لست واهمة يا سيدي. هل فكرت في الشخص الذي ذكر إسم فانينا أمام الإمبراطور؟ إنه فيتالوس أليس كذلك. إن فيتالوس هذا صديق صاحب اللحية البرونزية!.

كان وقع كلام المربية على السيناتور مؤثراً جداً فقد انخطف لونه عندما ذكرت إسم صاحب اللحية البرونزية، ورغم أنه كان يحاول ضبط أعصابه، إلا أنه انفجر بشكل مفاجئ وقال غاضباً بصوت مزمجر كالرعد:

ـ هل تريدين أن توحي لنا أن القرعة مجرد حيلة ، أيتها المارقة اللاهية ، قليلة الإيمان والدين.



سيطر على المكان صمت حزين بدَّد سعادة الجميع. حزنت همونيا وفاضت عيناها بالدموع التي انهمرت على خديها ، لكن هذه المرأة المخلصة لم تقتنع بما قاله السيناتور فأمسكت يده ويد تِرِنْتا وتدخلت قائلة :

- أرجو أن تحافظا على الهدوء. يجب أن نوقف هذا الشجار.

لم تعد المربية تحتمل أكثر من ذلك فجلست إلى جانب سيديها ، وقامت بحركة ملأى بالحنان فمددت الطفلة على ركبتيها وركب سيديها.

ورغم أن النقاش كان عقيماً إلا أن همونيا استدارت نحو تِرِنْتا وحاولت أن تشن هجومها الأخير، رغم إدراكها لشعور الأم وقوانين البلاد التي يجب إطاعتها ـ فقالت :

- أنتم تعرفون ياأسيادي مصير راهبات فستا ، إنهن ملزمات بالتفرغ لمدة ثلاثين عاماً من أجل خدمة الآلهة ، ومحكوم عليهن أن لا يمارسن الحب ، والحياة الحقيقية ؛ إنهن أشبه ما يكنَّ بالفاكهة الجميلة التي يشتهيها كل الناس ولا يستطيعون قطفها فتبقى فوق الأغصان وتجف. إن العذرية بالنسبة لهن أثمن من كل كنوز المدينة ، وهن يبذلن أقصى التضحيات لكي يحافظن على هذا الشرف ، وسوف تحل المصائب إذا لاحظوا أن إحدى هؤلاء الراهبات قد تصرفت بشكل غير متزن ؛ أو صدف أن نظرت أو التقت عيناها بعين أحد الرجال. عندها سيدفنونها وهي على قيد الحياة.

ارتجفت لحية السيناتور وقال بحزم معلقاً على كلام المربية ، قبل أن تبدي فانينا أية رد فعل :

- لقد تكلمت يا همونيا بما فيه الكفاية. لكن ليكن بالعلم أنه إذا ما اختارت الآلهة فانينا فساعتها لا مرد لمشيئة القدر، ومن أجل سلامة روما فنحن مضطرون لأن نحني رقابنا إجلالاً لما كتب على الجبين.

فقالت تِرِنْتا بصوت يشبه النحيب:

- نعم لا مرد لمشيئة القدر.

بعد ذلك أخذت المربية فانينا بين ذراعيها واحتضنتها بقوة حتى كادت أن تسحق عظامها وصرخت قائلة:

- لا تخافي يا ابنتي، فسوف تكون همونيا معك دوماً وستحميك من كل مكروه وسوف تسعى جاهدة لكي تكوني سعيدة على الدوام.

وبعد أن سكتت المرأة المسكينة برهة قصيرة همست في أذن فانينا بصوت لم يسمعه أحد سواها:

- سأجعلك سعيدة، على الرغم من قوانين روما إذا لزم الأمر.



القسم الثالث

أشرقت الشمس على حي بالاتين وغمرت بأشعتها الذهبية المعابد الكائنه أمام المنزل الذي يعيش فيه الإمبراطور الراحل أوغست.

وازدحمت أبواب معابد جينون وكيبالا، وباخوس، بالناس من جميع الأصناف والأجناس، بعضهم تسلّق قاعدة التمثال، وتسلّق البعض الآخر جدران وأسطحة المنازل المجاورة. وتخلل هذا الزحام، وجود الفرسان، والأشراف، وأعضاء مجلس الشيوخ المتمنطقين بأحزمتهم اللافتة للأنظار.



كان يقف في الصفوف الأولى عشرون فتاةً صغيرةً، وكنَّ يرتجفن من برودة الصباح وهن ينتظرن بمفردهن، وكانت فانينا تراقب جميع الفتيات لكنها لم تستطع أن تجد بينهن من تستطيع منافستها.

كانت أعمار الفتيات تتراوح بين السادسة والعاشرة. جميعهنّ جميلات، بلا استثناء، لكن لون بشرتهن إما سمراء أو حنطية، ولم يكن هناك فتاة واحدة مثل فانينا قد تدلّى شعرها كشلال من ذهب حتى وصل إلى خصرها.

تلفتت الصغيرة حولها فرأت والدها يقف خلفها وقد تسمر في مكانه وبدا عليه أنه متضايق جداً وقد تورَّمت عيناه من كثرة البكاء بالإضافة إلى زوجته المتوترة كوتر القوس وهمونيا الجاهزة دوماً لارتكاب الجريمة ورئيس العبيد الأيبيري كلافاتون.



كان الصمت المطبق الذي خيم على همونيا بعد المناقشة الطويلة التي تحدثت فيها عن راهبات فستا والصفات التي يجب أن يتحلين بها، والمصير المجهول الذي يمكن أن يتعرضن له، قد ترك أثراً سيئاً في نفس فانينا التي أمضت ليلتها حتى الصباح وهي بين ذراعي همونيا.

كان هناك فرق شاسع بين الشعور بالقلق الذي سيطر على أهالي الفتيات وبين الشعور بالفرح العارم الذي سيطر على أفراد الشعب، ولعل هذا الفرق بالشعور هو ما ولّد شعور الحزن الذي سيطر على جميع الفتيات الصغيرات. لماذا؟ ألأن مصير الفتاة التي ستختارها الآلهة سيكون مخيفاً إلى هذا الحد؟

- هل أنت فانينا؟

نظرت فانينا باستغراب إلى ذلك الطفل الذي يخاطبها، ولم تعرف إن كان صبياً أم بنتاً!. نظرت إلى هندامه فوجدت أنه على الرغم من الشعر الطويل المنسدل على كتفيه كالأمواج، وشفتيه اللتين تدلان على أنه صاحب قلب وردي، وحاجبيه المرسومين، وجفنيه المعكوفين، وعينيه اللتين تلمعان وتضحكان بسخرية، لا بد أن يكون صبياً.



سألته الفتاة الصغيرة:

- من أخبرك بإسمي؟
- سألت عن إسمك وعرفته!.
- حسناً: وأنت ماإسمك؟
- إسمي آولوس فيتالوس.
- لم أخطئ! فقد عرفت أنك غلاماً، وأنك ابن فيتالوس قريب الإمبراطور.

بلع فيتالوس الصغير ريقه ولم يجب بأي شيء فاستمرت فانينا بالحديث:

- ماذا تريد مني؟

نظر إليها الغلام بسخرية ثم قال:

- أردت أن أرى شعرك قبل ان يجزوه وتصبحي كالنعجة.

استغربت فانينا كلامه وردت قائلة:

- ماذا قلت؟

تلفت الغلام حوله ثم همس في أذنها:

- لا تتعجلي في الحديث وإلا ذهبت!. لقد جئت لكي أحذرك من المخاطر التي تنتظرك، فلقد سمعت الإمبراطور يحدِّث الكاهن تراسيللوس عنك، وأخبره بقدومك. لم أسمع ما قاله تراسيللوس لكني رأيت الإمبراطور يفرك كفيه فرحاً. وسوف ترين بعد قليل أنك أنت الفتاة التي سوف يتم اختيارها.

ردت عليه فانينا التي لم تكن تعرف إن كان يجب عليها أن تفرح أم تحزن وسألته بصوت منخفض:

- كيف عرفت بكل هذا؟

وبتصرف يدل على أنه داهية ويعرف كل شيء مال على أذنها ثانية وقال لها:

- العلاقة بيني وبين الإمبراطور جيدة جداً لذلك فأنا أعرف كل شيء.

في هذه الأثناء بدأت أصوات الموسيقى الصاخبة تنبعث من زوايا الساحة الأربع وتصم آذان الناس.

فُتح الباب البرونزي الثقيل في قصر أوغست، ثم سُمعت أصوات قرقعة السلاح وتلا ذلك وقع أقدام العساكر، إنهم عساكر فرقة حفظ الأمن.

كانت فانينا تشعر بالعظمة وهي تتابع هذا الاحتفال المهيب، بعد ذلك بدأت تراقب ما يجري أمامها وكأنه حلم.

كان أول الخارجين من باب قصر اوغست راهب عجوز نحيف البنية إلى درجة لا تصدق وكان يضع على رأسه قلنسوة مدببة، ثم تلاه بعد ذلك راهب آخر طويل

القامة. ثم توالى بعد ذلك خروج الرهبان الواحد تلو الآخر، وعبروا الساحة بخطى منتظمة. وكان بين هؤلاء الرهبان من اختص بخدمة جميع الآلهة، ومنهم من اختص بخدمة إله واحد كرهبان الفلمنغ.



وبعد أن خرج الراهب الأخير عزفت الموسيقى مرة ثانية تحية له، كان هذا الراهب قد غطى رأسه بوشاح، ويدا عليه أنه الرئيس الأكبر الذي يمثل قمة السلطة الدينية، وهو بالتالي من سيرعى الاحتفال. أي إنه الإمبراطور تيبر.

بعد ذلك تقدم الرجل العجوز الضعيف الذي التف بحزام عريض عليه شرائط حمراء قاتمة خاصة بهذا الاحتفال بخطى مرتعشه وأخذ مكانه إلى جانب الإمبراطور وبعد أن تلفت هذا الكاهن يميناً وشمالاً وإلى الأمام والخلف قال أمام هذا الجمع الغفير الذي خيم عليه صمت القبور:

- ان الآلهة تبتسم لنا أيها القيصر العظيم. فقال له الإمبراطور:

- في هذه الحالة نأمر بالمناداة على فتيات روما.



تسارعت الأحداث بعد ذلك وانتهى كل شيء. شعرت فانينا بيدي والديها تمتدان نحوها وتمسكان بها بشدة، كما كانا يضغطان على ذراعي همونيا اللتين أصبحتا كالحديد كي لا تصرخ. انطلق صوت الرئيس يقرأ أسماء الفتيات، فبدأ بإسم فانينا أولاً ثم قرأ أسماء باقي الفتيات، وبعد قراءة كل إسم كان هذا الكاهن العجوز جداً والهزيل جداً يضع لوحة مصنوعة من عاج الفيل في جفنةٍ مغطاة، مصنوعة من الذهب الخالص، وما أن انتهى الإمبراطور من تلاوة جميع الأسماء. حتى أخذ الكاهن هذه الجفنة وأعطاها للإمبراطور.

اختار الإمبراطور لوحة من بين هذه اللوحات وقرأ الإسم المكتوب عليها:

- فانينا ابنة كينوس مارسيوس فانينوس.



أطلقت والدة فانينا صرخة مدوية ملأت الأرجاء. فأمسك زوجها بكتفيها وضغط عليها. أما همونيا فشعرت وكأنها قد تعرضت لطعنة قاتلة. وحين التفتت الفتاة ورأت والدتها قد سقطت على الأرض مغمى عليها، اكفهرّ وجهها وازرقّ من شدة الغضب. شعر العبد الأيبيري كلافاثور أن همونيا تريد أن تفتعل ضجة ما فأمسكها بذراعيه القويتين وطلب إلى المسكينة أن تطبق فمها، لكن همونيا غرزت أسنانها في ذراعه فنفر دمه الأحمر الغامق ووصل إلى فانينا.

شعرت الفتاة الصغيرة أن يداً امتدت إليها فجأة وسحبتها. كانت تلك، هي يد الإمبراطور الذي جاء ليخطف هذه الفتاة من أهلها حسب العادات المتعارف عليها وقال:

يا فتاتي الحبيبة، أنا، أعلن أنني أخذتك من أجل أن تتولي أمر اللحن الصوفي المقدس، وقد اخترتك باسم جميع أهالي روما لكي تضعي جميع أمور الدين في نصابها.



علت أصوات جميع من كان في الساحة ووصلت عنان السماء. هتف الجميع: فانـيـنـا، فانـيـنـا. ها هي ذي الفتاة الصغيرة الشقراء أصبحت خادمة للآلهة. اتجه باقي الكهنة نحو فانينا وتحلقوا حولها وبدأوا يسحبونها. لاحظت فانينا فرح الفتيات الأخريات اللواتي لم تختارهن الآلهة، وشاهدتهن وهن يعانقن آباءهن وأمهاتهن وإخوتهن وصيحات الفرح تعلو وعلى الخدود تنسكب دموع الفرح. ثم شاهدت فيتانوس الصغير وهو يشير إلى شعره ويضحك.



كانت فانينا تلتفت بين الحين والآخر وتنظر إلى تيبر وتراقب تصرفاته وهو بدوره يبادلها بهدوء نظراتٍ لم تفهم مغزاها، لكنها شعرت أنه مسرور لوجودها حتى بدون أن يتكلم.

وهكذا وصلوا إلى أول الدرج وعبروا الساحة التي تصل إلى معبد فستا. كان المكان قد خلا من المتفرجين ولم يبق فيه سوى الرهبان والعمالقة الألمان المكلفين بالمراقبة الذين انتشروا في جميع الزوايا والأزقة. نظرت فانينا مرة ثانية إلى الإمبراطور العجوز وضغطت بكفها قليلاً. بادلها تيبر الحركة نفسها فتبسمت الصغيرة بلا رغبة منها ثم ارتمت بعد ذلك على الأرض كوردة اقتلعتها العاصفة. لقد أحست فانينا أنها قد ألقيت في لجةٍ عميقة لا قرار لها، وكانت ترغب بانتهاء هذه التمثيلية التي تدور حولها.

سمعت أصوات المزامير والطبول، وهي تعزف ألحان الحرب، وسمعت أصوات الرجال والنساء، كما سمعت لغطاً كثيراً لم تفهم من معناه شيئاً. كانت كل هذه الأصوات تضج في رأس الفتاة وتحثها على الصراخ.

من الذي رطب شفتيها؟ ومن مسح جبينها بقطعة القماش المبللة؟ سمعت الفتاة الصغيرة في غيبوبتها صوتاً عميقاً ناعماً، دافئاً، موسيقياً لا شبيه له، سمعته يقول:

- ها هي الحيوية قد بدأت تدب في وجهها، وسوف تستفيق فوراً، لذلك دعينا ننهي أعمالنا قبل أن تصحو المسكينة وإلا فإن الأمور ستكون صعبة للغاية.

اعترض على هذا الحديث صوت لا طعم له:

- إن التضحية أمر صعب، وإلا فهي ليست تضحية، كما يقال في كتاب الأعيان.

- فبيديا وكلامينوس على حق فلقد جاء في الكتاب المقدس: إذا اختارت الآلهة أحداً لخدمتها عليه أن يلبي ذلك فوراً وبلا شروط.

عرفت فانينا الصوت جيداً، لقد كان صوت الإمبراطور.



امتدت يد خفيفة إلى رأس الفتاة وكأنها تداعبها، ثم امتدت يد أخرى أكثر قساوةً إلى شعرها فجمعته خلف رأسها، بعد ذلك سمعت فانينا صوتاً يشبه صوت آلة الحلاقة التي يستعملها الحلاق عندما يقص شعر والدها، وتلا ذلك وقع أقدام مسرعة ففتحت عينيها فجأة.

كان أول من شاهدته هو تيبر يمسكها من ذراعيها وقد ارتدى قناعاً. ثم شاهدت السيدة التي تقف إلى جانبه. إنها إمرأة فائقة الجمال لدرجة أن فانينا ظنت نفسها تقف أمام إحدى الآلهات. كانت تلك السيدة ترتدي معطفاً من الصوف الرقيق المزركش ببعض الثنيات يغطي جسمها ويمتد حتى غرة شعرها فبدت كتمثال أبيض حي!.

لقد فهمت فانينا من حركات هذه السيدة الإلهة أنها هي التي قصت شعرها. كانت السيدة التي لم تكن من الآلهة، قد ربطت ضفائرها الستة بشرائط حريرية بيضاء ووردية ورفعت هذه الضفائر على رأسها حتى بدت كالتاج. وكانت فانينا تعرف هذا النمط من التسريحات إذ سبق أن شاهدته في اللوحات المرسومة في صالة العرض في منزلها، ثم تذكرت أنه سبق لها أن شاهدت هذه المرأة، فقد كانت تأتي باستمرار لتقوم بترتيب الحفلات الدينية. إنها رئيسة راهبات فستا، العذراء المقدسة فبيديا.

ـ يا راهبة فستا المقدسة فبيديا قدمي لنا هديتك بعد أن قبلت الآلهة حارسة مدينتنا التي تواضعتِ وتضرعتِ من أجل قبولها.



كأن فانينا كانت بحاجة إلى سماع مثل هذا الصوت لكي تصحو. لقد كان صوت الراهب العجوز ذي العيون والوجنات الغائرة، كلافينوس صاحب الصوت الخافت الذي يساعد الإمبراطور. لقد قَفَّ شعر جسمها عند سماع صوته وهي لازالت مغمى عيها .

فجأة شعرت فانينا بالبرد، فلاحظت فبيديا ذلك وقالت:

- أيها القيصر غطِّ جسم الصغيرة، يجب أن لا تبرد.

وقبل أن يضع القيصر طرف وشاحه على الصغيرة، تصرفت بسرعة وتلمّست بأصابع يدها على شعرها الذهبي الذي كانت تفتخر به كثيراً والذي جزّته رئيسة الراهبات فأطلقت صرخة مخيفة.

إذن، فيتالوس الصغير لم يكذب، لقد جزّوا شعر فانينا الجميل وها هي رئيسة راهبات فستا تمسك بهذه الكتلة الذهبية وهي تقف على بعد خطوات منها، نهضت الفتاة من على الأرض وقالت لتلك السيدة كلاماً مبهماً لكنها كانت تتكلم بألم، بعد ذلك صرخت في وجهها قائلة:

- أريد شعري يا فيبيديا!. أعيدي لي شعري.

لكن الإمبراطور الذي كان يشيح بنظره عن الصغيرة قال بصفته الآمر:

- هيا قدّمي هدية المدينة إلى فستا يا فبيديا.



عزفت المزامير موسيقى الحرب، وقرعت الطبول مقطوعة الحزن. ثم توقفت الموسيقى فرجع الإمبراطور بضع خطوات إلى الوراء ووقف كالجدار ينتظر انسحاب الفرق الموسيقية ولاح أمام أنظار الصغيرة الوضع الذي حكم عليها أن تعيشه على مدى ثلاثين عاماً قادمة من عمرها.

كان المعبد يشمخ عالياً في وسط باحة راهبات فستا، وهو من أصغر معابد روما وأكثرها تواضعاً، كان ينبغي صعود ثلاث درجات من أجل الوصول إلى الصالة المحاطة بالأعمدة ويدخل إليها من باب واحد ضيق. أجمل نقوش المعبد هي تلك التي تزين تيجان الأعمدة المصنوعة من مرمر (كارارة) والتي تحمل القبة البرونزية وعلى الرغم من تواضع المكان فقد كان معبداً صغيراً مليئاً بالنقوش يلفت أنظار الجميع ويكتسب قدسية بالغة، ويتصاعد منه دخان لطيف. راحت دقات قلب فانينا تتسارع عندما وجدت نفسها فجأة بالقرب من المعبد الذي سمعت عنه كثيراً، لكنها لم تشعر

بالفخر أبداً على الرغم من أنها ستكون بعد قليل، المتفرجة، والضحية، وبطلة الحفل.



كانت نظراتها الفاحصة لا تفارق فبيديا. تُرى ماالذي تحضره لها رئيسة الراهبات من مصير، وهل ستنجح فانينا في كسب ود وصداقة هذه السيدة المقدسة؟

حتى الآن لم يكن لأحد تأثير على هذه الصغيرة مثل فبيديا، فما من شيء في هذه السيدة لايُحب. جمالهاخارق، ولطفها زائد، وتصرفاتها في منتهى الذوق والكياسة، ومقدرتها ورزانتها تلفت الأنظار، وبيت الآلهة هو بيتها. كل شيء ملكها بما في ذلك المعبد الذي تركع أمامه باحترام. تابعت فانينا طريقها وهي تشاهد باقي الأشياء التي زينت بها رئيسة الراهبات هذا المعبد. هناك شجرة في وسط باحة بيت الراهبات، تركوا حولها فراغاً في الباحة المبلطة، وأحاطوه بإطار قرميدي أحمر. كانت شجرة هرمة وعادية جداً، ولكن لا يمكن لمن يراها أن ينساها أبداً. أكثر ما يلفت النظر فيها هو ذلك المعطف المقزز الذي يتكون مما لا يقل عن مئة طقم كاملة من الشعر، الشعر الذي كان يزين رؤوس أجمل فتيات روما. لقد أصبح منظره مدعاة للحزن بعد أن أُخِذ من رؤوس الفتيات وتُرِكَ للهيب الشمس، للمطر، لِـ ...



بدأت الصغيرة ترتجف عندما بدأ الرهبان الذين التفوا حول الإمبراطور يرددون الكلام الإلهي وكلمة العذراء المقدسة. ويتلون أدعية بلسان غريب مبهم. بعد ذلك أشاروا بكتلة الشعر الجميل الذي كانت بين أيديهم إلى الجهات الأربع. "هذه الكتلة التي ستموت حتماً بعد أن قبلتها الآلهة" ورغم لونها الذهبي الجميل، إلا أنها ستكون بعد قليل في مقدمة الأغصان في شجرة راهبات فستا وسوف تلمع للمرة الأخيرة على أغصانها.

ثم بدأ الإمبراطور الكلام فقال:

- يا راهبة فستا المقدسة. خذي ابنة شعب روما وعلميها طرق وقواعد القدسية وأدعيتها ،علميها الدين، والوقار، والإحسان،احرصي عليها دوماً لكي تكون لائقة بعذريتها ونظافة قلبها بخدمة فستا، أم بلادنا. خذيها، فأنا أهبها لك.

قدَّم الإمبراطور فانينا إلى فبيديا، فأمسكت الراهبة الفتاة بعناية، بعد ذلك انسحب الإمبراطور وجميع الرهبان، ثم قال الإمبراطور بصوت قوي وهو يقف خلف درفتي الباب الكبير قبل أن يغلق:

- بالسلامة يافانينا.



ردت الفتاة الصغيرة على تحية الإمبراطور بمنتهى الجدية ثم أدارت برأسها نحو فبيديا وابتسمت لها بشكل لطيف، فبادلتها رئيسة الراهبات الابتسامة وقالت:

- تعالي لكي أقدمك إلى فستا.



ها هي فانينا الآن في معبد الآلهة، عارية تماماً كما ولدتها أمها، في صالة دائرية الشكل، مظلمة. ثمة لهب يتصاعد من إناء فخاري كبير وضع فوق عمود قصير، ينير المكان. إنه الشعلة المقدسة الأبدية التي لا تنطفئ أبداً، ومن أجل ذلك يتناوب على خدمتها ليلاً ونهاراً ستّ راهبات، إنها الشعلة التي تمثل الآلهة فستا. إلهة النار وأم الوطن، ومعبودة روما. هذه الشعلة المحبوسة في مركز الأرض هي التي تهب الحياة لكل شيء في الطبيعة.



تسللت من بين الظلال إحدى الراهبات وأمسكت فانينا من يدها وأخذتها إلى أمام المحراب ثم أمسكتها من يدها الثانية راهبة أخرى ومن بعدها قدمت ثلاث راهبات أخريات من راهبات فستا وأمسكن بأيدي بعضهن البعض وشكلن حلقة كاملة.

بدأت فيبيديا تقديمها:

- ها هي خادمتك الجديدة يا فستا، فإذا كانت هذه رغبتك فإننا سنقوم بتعليمها طرق المبادئ المقدسة والأدعية التي ورثناها عن آبائنا، وسوف نقوم بالاعتناء بها لكي تكون جديرة في أحد الأيام بخدمة الشعلة المقدسة التي تمثلك.

يا فستا خذي فانينا فقد أهدتك إياها روما.



ثم أُلقيت حزمة من الأغصان اليابسة فوق الإناء الفخاري حيث الشعلة، فتطاير الشرر، فشعرت فانينا ببعض التوتر وأمسكت بأيدي الراهبات اللواتي كن على يمينها وشمالها.

بعد ذلك انقطعت الحلقة وانتهى الاحتفال.



القسم الرابع

كانت أنامل نموشيا تتحرك فوق ثياب الصغيرة وهي تقوم بترتيبها بينما كانت فانينا تدقق بغضب وهي تنظر إلى وجهها في المرآة الفضية.

وعلى الرغم من مضي أقل من ساعتين على مغادرة والديّ فانينا ومربيتها هذا المكان الكائن في هضبة بالاتين، إلا أن الأحداث قد توالت بسرعة خلال هاتين الساعتين. كانت أحداثاً مليئة بالغرابة والدهشة، والشعور بالخوف حتى أصبحت الصغيرة في حالة يرثى لها، ولا تطيق أن يلمسها أحد وإلا أجهشت في البكاء!.

وبصفتها قد صارت راهبة في فستا فقدخُصّت بشقة لسكنها. وهاهي الآن في شقتها مع أصغر الراهبات سناً وهي نموشيا، التي كانت تساعدها في ارتداء زيها الجديد الفخم بعد أن تفحصته بإعجاب مرات عدّة.

شقة فانينا واسعة، جميلة، تقع في الطابق الأول من البناء الكائن في آخر باحة المعبد. تطل على صالة واسعة مزينة بالسيراميك مثل شقق باقي الراهبات. يتحتم على كل من يريد الدخول إلى شقة فانينا أن يمر من الصالة المشتركة. كانت الشقة عبارة عن غرفة نوم صغيرة، وحمام مزود بالماء الساخن والبارد وصالة صغيرة لكي تنام فيها الخادمة الليلية. غرفة النوم تحتوي على سرير نحاسي، وطاولة وصندوق خشبي كبير مصنوع من خشب الأرز ومصباح كاز، ومرآة فضية تشبه مرآة والدها، كانت تنظر إليها فانينا بوجه عابس.

عملت نموشيا كل ما في وسعها على ترتب ثياب فانينا بشكل جيد. نموشيا فتاة نحيفة جداً وظريفة. عيناها خضراوان واسعتان ولون بشرتها كلون الدراق.

لكنها تتصرف بخشونة فتطلب من فانينا أن تدور ذات اليمين وذات الشمال، تتصرف معها وكأنها قطعة من الحجر. أمّا ماأغضب فانينا وهي تنظر إلى وجهها في المرآة، فهو شكل رأسها. الذي أصبح يشبه رأس غلام جميل يكسوه وبر قصير بلون الذهب.

وهنا تدخلت نموشيا وقالت لفانينا وهي تضحك منها:

- أنت تفكر ين بشعرك أليس كذلك؟ لا تخافي سيصبح طويلاً آجلاً أم عاجلاً وعليك أن تصبري حتى ذلك الوقت.

بعد ذلك أخرجت العذراء الشابة، من الصندوق الموجود في الغرفة شعراً مستعاراً ذا تسريحة تشبه تماماً تسريحة الشعر التقليدية التي تزين رأس راهبات فستا. ثم وضعته بحركة خشنة على رأس فانينا وقالت باستهزاء:

- أرأيت إن فبيديا تفكر في كل شيء. فهذا الشعر هو أشقر وجميل مثل شعرك. اعترضت فانينا:

- لقد كان شعري أجمل.

وهي تمسك بالضفائر الستة المزينة بالشرائط الحريرية الحمراء والبيضاء بعد أن ضمتها معاً وبدأت ترتبها، ردت نموشيا على فانينا:

- لا أريد أن أدَّعي عكس ما تقولين فهذا شيء لا يهم.

بعد ذلك حدقت بعينيها الخضراوين في وجه الفتاة الصغيرة وقالت لها باستخفاف:

لعلك لا تعرفين حتى الآن، أنهم يجزون شعر الفتيات في يوم زفافهن تماماً كما قصوا شعرك اليوم!.

ارتعدت نموشيا قليلاً وهي تقول هذا، ثم قطبت جبينها وقالت:

- إن الفتيات اللواتي يتزوجن، يقسمن لأزواجهن أنهن سَيَكُنَّ مخلصات لهم مدى الحياة. أما نحن فنقسم أمام فستا!. إنهن يتجولن بشعرهن القصير لمدة يوم واحد فقط، أما نحن فمحكوم علينا أن نبقى هكذا ولكن بدون أزواج!.

لم تكتشف فانينا لهجة الأسف والندم التي تخللت حديث نموشيا، كل ما فهمته من حديثها أنها سوف تتجول كالعروس كل يوم، وكان هذا الفهم كافياً لإضفاء حالة من البهجة والسرور عليها فأجابتها قائلة:

- إن ما تقولين صحيح يا نموشيا فأنا لم أكد أدقق في شعر العرائس، ثم إن الفتاة تنتظر طويلاً حتى تكبر لكي تقص شعرها، أما أنا فلم انتظر كل هذا الوقت!.



- ثم سألت الفتاة الصغيرة نموشيا ببراءة بعد أن تخلصت من تأثير الخوف والغضب والتردد الذي سيطر عليها:

- هل يحق لنا حضور الحفلات؟

ردت نموشيا بلا تحفظ:

- ستحضرين الحفلات العامة.

- وهل سأتلو الأدعية؟

- إنك سوف تقرأين الأدعية التي ستلقنك إياها ماكسيميليا أكبر الراهبات سناً وهي من رفيقات فبيديا.

- وهل ستقوم فبيديا وماكسيميليا بشرح كلمات الأدعية التي لا أفهمها.

هزت نموشيا رأسها بالإيجاب ثم أضافت:

- لا أحد يستطيع أن يفهم هذه الأدعية بشكل كامل بما في ذلك الرهبان العجائز لأن الأدعية التي تقرأها فبيديا هي باللغة اللاتينية القديمة بالإضافة إلى الكلمات الأترُسْكيه التي تتخللها.

- إذا كان الأمر كذلك فحله بسيط، لأن عائلتي أصلها من الأترسك وسوف أسأل والديَّ عن معاني تلك الكلمات عندما يأتيان لزيارتي.



قطعت نموشيا كلام الفتاة الصغيرة وقالت لها بفظاظة: أنت لا تفهمين شيئاً فنحن لا يحق لنا أن نعرف هذه الأدعية أو نكررها إلا مع الرهبان، وإذا كنت ترغبين في أن تكوني بعيدة عن المشاكل عليك أن تتعلمي كيف تمسكين لسانك ويجب أن تعلمي أن ما يجري هنا لا يصح أن يعلمه أحد من الغرباء!.



ها قد أصبح والدها الحقيقي الذي لا تُخْفى عنه شيئاً من أتراحها أو أفراحها، رجلاً غريباً!.

طفرت الدموع من عيني فانينا، لكن نموشيا تجاهلت هذه الدموع واستمرت في الحديث:

- لا يمكنك أن تفعلي شيئاً يا صغيرتي، عليك أن تتعايشي مع حياتك الجديدة هذه، فالآن لم يعد لك عائلة سوى نحن والإلهة، لذا عليك أن لا تهتمي بأي شيء آخر.

تمتمت الصغيرة:

- إذن علي ألاّ أتحدث عن أي شيء مما جرى لي هنا، أليس كذلك؟

- بالتأكيد، فحتى أكبر الراهبات سناً يسألن فبيديا عما يجب أن يتحدثن أو لا يتحدثن وبإمكانك أن تتخيلي الوضع الذي سوف تعيشينه والذي كنت أعيشه أنا حتى قبل شهر عندما تم توظيفي بمراقبة النار.

وبدون تفكير سألت فانينا:

- وهل مراقبة النار أمر صعب؟

هزت نموشيا رأسها بالإيجاب ثم أضافت:

- ليس فقط أمراً صعباً، بل هو صعب للغاية، فحسب القواعد المتبعة يجب المحافظة على هذه الشعلة لكي لا تخبو أبداً. لذلك يتوجب إضافة مواد الإشتعال وسَحْب الرماد المتراكم بصورة دائمة.

ثم وضعت نموشيا على رأس فانينا شالاً من الصوف الأبيض الرقيق ثم ضغطت على كتفها وقالت:

- أنا لا أغفل عن عملي ولو لثانية، ثم صمتت وتمتمت قائلة:

- إنها تشلُّ تفكيري!.

شعرت فانينا بالاستغراب لأن الحديث وصل إلى هذه النهاية ففتحت عينيها جيداً وسألت:

- ما الذي يشلُّ تفكيرك؟

فردت عليها نموشيا وهي تحاول التهرب من الإجابة بينما كانت تقوم بتثبيت الشال على الشعر المستعار بجبسات ذهبية صغيرة:

- إن كل شيء يشلُّ تفكيري.

- هكذا إذن؟

سارت نموشيا بضع خطوات مترددة في الغرفة ثم اتخذت قرارها ووقفت أمام فانينا وسألتها بعد ان قطبت حاجبيها:

- هل تعرفين كيف تحافظين على السر؟

فأجابتها الصغيرة على الفور:

- طبعاً أعرف.

- أتقسمين باسم الآلهة أنك لن تفشي السر الذي سأقوله لك أبداً؟

فقالت فانينا بمنتهى الجدية:

- بكل تأكيد. أقسم على ذلك.

- هل أنت صديقة لي؟

فقالت الصغيرة بفرح:

- طبعاً أنا صديقتك يا نموشيا.

سيطر شعور الفرح فجأة على نموشيا فجلست إلى جانب فانينا ووضعت يدها على كتف الفتاة الصغيرة وقالت لها وهي تداعبها:

- أنا عاشقة يا فانينا!.

لم تكن فانينا تتوقع أن يُفشى أمامها وفي هذا المكان مثل هذا السر، لذا سيطر عليها الاستغراب وسألت بصورة لاشعورية:

هل قلت إنك عاشقة؟

- نعم، أنا أحب أحد الشباب!. تذكرت فانينا كل ما سمعته عن هذا الموضوع من قصص كان يسردها والدها ومربيتها وقالت وقد وقعت تحت هذا التأثير:

- هذا يعني أنك سوف تتزوجين!.

ثم عادت فانينا إلى وعيها وقالت:

- أنا أعلم أن راهبات فستا لا يتزوجن.

فضربت نموشيا الفتاة الصغيرة على ذراعها بقبضة يدها مداعبة ثم قالت:

ـ طبعاً لا يتزوجن يا مجنونة. إنهنَّ لا يستطعن الزواج إلا بعد أن يهبن أجمل ثلاثين عاماً من أعمارهن إلى فستا، وأنا أعلم أن الزواج من رجل أو حتى إقامة علاقة ما أمر لم يخطر على بال فبيديا، أو ماكسميليا، أو أنّيا أو كورنيليا. إنهن مؤمنات، حتى أن كورنيليا الحمقاء قد ساقها عقلها القاصر فجاءت إلى هنا بمحض إرادتها. أما أنا فلم يسألني أحد إذا كنت أرغب في أن أكون راهبة أم لا، وإلا لما كنت جئت إلى هنا!.

لقد جاؤوا بي إلى هنا رغماً عني عندما كنت صغيرة لا أفقة شيئاً. تماماً كما حصل معك. لماذا يجب القضاء على الجانب الإنساني في حياة المرأة، عندما تصبح إحداهن راهبة؟ هل تفهمين ماذا اقصد؟

لم تكن فانينا متأكدة أنها فهمت ما قالته نموشيا، ومع ذلك فقد أشارت برأسها وكأنها تقول نعم. تجرأت نموشيا أكثر واستمرت في حديثها بصوت مرتجف:

- سوف ترين يا صغيرتي أنك ستكونين سعيدة في هذا المكان حتى سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، ولكن الأمر سوف يختلف كثيراً عندما تصبحين في السادسة عشر مثلي عندما ينظر إليك الرجال على أنك لست فتاة صغيرة، عندها ستشعرين بوطأة هذه الثياب التي ترتدينها وسوف تلعنين هذا الزي. عندما تتيح لك فرصة مقابلة أحد أصدقاء الطفولة الذين يعيشون حياة طبيعية.

شعرت فانينا بعدم الارتياح فهي تعتقد أن راهبات فستا يجب أن لا يتحدثن بمثل هذه الأحاديث فقالت:

- لماذا تحدثيني عن هذه الامور؟

- كي أريح نفسي قليلاً، ألست صديقتي؟

حاولت نموشيا أن تكمل حديثها الذي بدأته.

î ● î î ● î

لازلتِ صغيرة، ولكنني على يقين أنك مثلي، لم تُخلقي لتكوني راهبة فستا ولا تستطيعين أن تتأكدي مما أقوله إلا عندما يحبك أحدهم وهو يراك من أول نظرة، وأنا على ثقة أنك ستقعين في الحب أيضاً وسوف تشعرين عندئذ أنك بحاجة لي كما أنا بحاجة إليك الآن.

فقالت فانينا:

- ولكن ما الذي أستطيع تقديمه لك؟

اتخذت نموشيا قرارها بسرعة ومالت على أذن فانينا وهمست:

- إن ابن أخي أبيوس اللطيف ضابط في الفرقة الثانية عشر التي تتمركز في الشرق وهو الآن في روما في إجازة مدتها ثلاثة أشهر، فأنا أعلم أنه يحبني، لكنه لا يستطيع

أن يبوح بحبه احتراماً للزي العسكري الذي يرتديه، وأنا أرغب في أن أُمَضّي معه ولو ساعة من الزمن، عندها سيختلف الوضع كثيراً. لعلك فهمت ما أردت قوله أليس كذلك؟

لم تكن الفتاة الصغيرة تعرف ما يجب أن تقول فأدارت رأسها إلى الطرف الآخر ولم تعد تتابع حديث نموشيا!. فقد دب الرعب في قلبها وخافت كثيراً فسألتها نموشيا باستغراب وقلق:

- ألست صديقتك؟

سيطرت نظرات اليأس على الراهبة، مما جعل قلب فانينا يفيض بالحنان فاحتضنتها وقالت:

- تعرفين تماماً أنك صديقتي.

فقبلت نموشيا الطفلة الصغيرة وتابعت حديثها:

- سوف أقترح على فبيديا بعد عدة أيام أن أصطحبك إلى بيتكم لكي تقومي بزيارة والديك وأنا واثقة تماماً أن والدك على معرفة بأبيوس وأنني سأصادفه هناك، وعندها، عندها... وتحت تأثير إحساس غريب رفعت فانينا رأسها فرأت فبيديا واقفة بالباب وهي تنظر إليهما.



خيم الصمت في الغرفة فأمسكت مكسيميليا التي كانت تجلس على السرير فانينا وحبستها بين ركبتيها مما جعلها تشعر بالخوف من جديد، خاصة بعد أن أشارت رئيسة الراهبات بحركة قاسية من رأسها لكي تخرج نموشيا من الغرفة.

ماالذي سيجري؟

إن من ينظر إلى التعابير التي ارتسمت على وجه ماكسيميليا والراهبة الأخرى كورنيليا التي كانت تقف إلى جانب النافذة لا يشك أبداً أن ما سيحصل هو سيءٌ جداً.

كانت ماكسيميليا بعمر فبيديا رئيسة الراهبات، يبدو عليها أنها في سن الثلاثين أو الخامسة والثلاثين، تبدو طويلة جداً، وكان لها فيما مضى جمال أخاذ أشبه ما يكون بجمال جينون الرياضي الذي تزين تماثيله ساحات روما، أما الآن فلم يبق في وجهها أي بريق. ومرد ذلك هو ردات الفعل على الخوف الذي تتعرض له. لذلك فهي تحاول دائماً أن تتحدث كثيراً لكي تنسى الواقع الذي تعيشه، تعيد وتشرح كل شيء عدة مرات وبتأنٍّ:

- سوف تكونين سعيدة جداً هنا يا صغيرتي، وسوف تضيئين حياتنا، ونحن سنفعل كل ما في وسعنا لكي نزين حياتك ولن نألوَ جهداً في سبيل ذلك.

في هذه الأثناء أطلقت نموشيا صرخة قوية اهتزت لها أركان البناء واخترقت جميع الحواجز والجدران، امتقع وجه الراهبتان عندما شاهدتا العرق البارد يتصبب من جسم فانينا التي صرخت:

ـ نموشيا!.

ثم أعقبتها بصرخة ثانية أقوى من سابقتها.



لم تعد فانينا في وعيها، ولم تستطع أن تحتمل، وكيف تحتمل وتغمض عينيها عما يجري لهذه الإنسانة التي عاهدتها على الصداقة وأن تكون كاتمة سرها؟ يجب أن تدافع عن نموشيا ويجب أن تنقذها من أيدي من يسبب لها الأذى. وبدون أن تنتبه للعباءة التي كانت تلف جسمها كالمعطف، تخلصت من يدي ماكسيميليا وانطلقت إلى صالة الموزاييك، بدون أن تترك مجالاً لكورنيليا لكي تمسكها، وهبطت الدرج وكأنها تتدحرج، وبدأت تركض باتجاه مصدر الصوت، والصراخ، والأنين، واجتازت الممر الطويل وعبرت من أمام عشرة أبواب.



وعندما وصلت الباحة ووقفت أسفل القنطرة كان خدّاها قد أصبحا كالجمر. عرفت أنها اقتربت من المكان الذي فيه نموشيا. لأنها كانت تسمع أصوات السياط التي تنهال على جسد الفتاة العاثرة الحظ. مشت باتجاه الصوت.

كان هناك بعد القنطرة درج رطب من الرخام. صعدته فانينا بلا تردد وما إن وصلت إلى الدرجة الأخيرة حتى اختفى صوت نموشيا، وتوقف صوت السياط. كانت الصغيرة تشعر بهذه الأمور بدون أن ترى شيئاً بأم عينيها. أسرعت بعض الشيء، لكنها تعثرت وسقطت على الأرض بعد أن شعرت أن هناك جسماً ساخناً له شعر قذر قد مرَّ بين قدميها، هبت واقفة وتابعت جريها ثم توقفت فجأة وبدأ جسمها يرتجف.



سلكت طريقاً يتسع قليلاً نحو اليمين، ثم يفضي إلى قبو أضئ بمشعلين. نموشيا هنا وقد رُبطت من معصميها وشُدَّت إلى خازوق طويل مثبت في الأرض، وقد انحنى جسمها وكأنها تريد أن تحمي نفسها من السياط التي تنهال عليها. لقد تورَّم ظهرها الجميل وأصبح أزرق وأحمر من آثار الجلد.

في هذه الأثناء شاهدت شبح أحدهم يبتعد عن المكان. تمنت فانينا أن لا يكون هذا شبح فيديا. لكنه كان شبح فيديا، التي بدت على وجهها علائم القسوة وبانت حبات العرق تتصبب من جبينها، وقد حلت ضفائرها لكي تكون مرتاحة أكثر وهي تجلد نموشيا، كما خلعت ثيابها وأصبحت عارية وأسوأ مما لو كانت ولدتها أمها. وظلت تمسك بيدها ما تبقى من ذلك السوط الدامي الذي تمزق من شدة الضرب.



- لقد قتلتموها. قتلتموها لأنها صديقتي.

قالت فانينا ذلك، ومشت إلى الوراء، وصعدت الدرج إلى الوراء أيضاً ثم دفعت بيدها كلاً من كورنيليا وماكسميليا اللتين كانتا تتبعانها وراحت تركض بلا وعي حتى وصلت إلى الباحة التي فيها المعبد وهي لا تدري إلى أين تذهب. وكان يخرج أمامها

من كل زاوية بعض النسوة بينهن راهبات فستا، وخدم، وعبيد من جميع الأعمار والمستويات، والجنسيات، وقد تحلق الجميع من حولها. وامتدت الأيدي من كل الاتجاهات كي تمسك بها ولم تكن فانينا تأبه للثياب التي كانت تسقط من على جسمها ولا إلى الشعر المستعار الذي يكلل رأسها. فبدا رأسها بعد ذلك مثل رأس خروف صغير جُزّ شعره.



أُدْمِيَتْ ركبتاها وصارت في حالة يرثى لها، ولم تكن الصغيرة تدرك الحالة المزرية التي وصلت إليها. لم تفكر سوى بالهروب من هذا الجحيم لكي تصل بأسرع ما يمكن إلى منزلها.

- بابـــا!. بابـــا!. النجدة مامـــا!. همونيـــا!.

فاستجاب صوت غاضب وصارخ:

- فانيـنـــا!.

إنه صوت همونيا. الصوت الذي يعرف تماماً كيف يعبر عن الغضب.

بعد ذلك حدثت ضجة كبيرة وفُتِح الباب الخارجي فتدحرج إثنان من العبيد على الأرض، ثم شاهدت فانينا ظلاً يخيم عليها. تلك كانت همونيا التي هبت فوراً لنجدتها وذهبت معها ووقفت كالصنم أمام فبيديا وباقي الراهبات وهي تصرخ بجنون:

- لقد أعطيتكم اليوم أجمل فتاة في روما. والجميع يعرف ذلك. والآن انظرن إلى أي حال أوصلتموها!.

لم تهتز فبيديا، رئيسة الراهبات لما قالته همونيا، بل ركزت نظراتها على فانينا وسألتها بصوت هادئ:

ـ هل تصرفنا معك بسوء يا فانينا؟

فقالت الصغيرة وهي تبكي:

- لا تسمحي لها أن تلمسني يا همونيا، فهي ستميتني كما فعلت مع نموشيا!. لقد ضربت المسكينة بمنتهى القسوة حتى انكسرت عصا السوط. لقد ماتت نموشيا!.

فسألت همونيا بهدوء:

- هل ضربتك رئيسة الراهبات يا فانينا؟

كلا لم تضربني.

- حسناً لماذا ضُرِبَتْ نموشيا إذاً؟

- لا أدري. نموشيا صديقتي، وكانت تفضي إليّ ببعض همومها فجاءت فبيديا وضربتها.

التفتت همونيا نحو فبيديا وسألتها؟

- ماذا فعلَتْ نموشيا؟

- هذا شيء لا يخصك.

- هذا ليس جواباً على سؤالي.

تنفست فبيديا الصعداء وقالت:

- اتبعيني إذن.

كانت هناك امرأة عجوز تنتظر في صالة الموزاييك وفي الشقة المخصصة لسكن الراهبات والدموع تنهمر من عينيها. دخلت فبيديا ومن ورائها دخلت همونيا وهي تحمل فانينا بين ذراعيها.

وما إن دخلن الغرفة حتى نظرت الفتاة إلى السرير. فرأت نموشيا، وقد ضُمِّدت جراحها بعناية، وبدا عليها أنها عانت كثيراً من الألم، ولكنها بقيت على قيد الحياة.

فقالت لها رئيسة الراهبات فبيديا بصوت ناعم مخملي وبدون أن تفقد هيبتها:

- كيف حالك؟

فردت نموشيا.

- أشعر أننيأفضل.

تابعت فبيديا كلامها:

- أريد أن تقولي الحقيقة: أسألك يا نموشيا بحياة وجه وماء وحرمة الإلهة فستا، وبحرمتنا نحن اللواتي نقوم على خدمتها أن تجيبيني: هل تستحقين الجزاء الذي تعرضت له أم لا؟

دبت الحيوية فوراً في وجه راهبة فستا الشابة واعترفت بصوت خجول وهامس:

- أستحقه أيتها العذراء المقدسة.

- هل كان جزاء قاسياً؟

ـ كلا أيتها العذراء المقدسة.

ـ هل تحقدين عليَّ بسبب هذا الجزاء؟

فردت نموشيا باستغراب:

- قطعاً أيتها العذراء المقدسة.

ثم تابعت قائلة: أنا أعرف العقوبة التي أستحقها وأعرف أنني يجب أن أخضع لهذه العقوبة مهما كانت قاسية، ولقد تصرفت أنت الآن بسرعة قبل أن أتمادى بالخطأ ويصبح خطأي مميتاً!.

ورغم أن قيامها بأي حركة ومهما كانت بسيطة يمكن أن تكون مصدر ألم لها. لكن الفتاة المسكينة أمسكت يد فبيديا وقبلتها، فيما كانت فانينا تراقب باستغراب ما يدور حولها:

بعد ذلك سألت فبيديا المربية:

- والآن ما رأيك؟

قلبت المربية شفتيها وقالت:

- لقد أغرقتني بأمور غريبة لم أرها في حياتي، ثم أمسكت فانينا من ذراعها وقالت:

- هيا يا ابنتي لم يعد لنا مكان هنا.

فردت عليها فانينا:

- نعم لنذهب يا همونيا!. فأنا أريد الذهاب إلى بيتنا، أريد والدي، لا أريد أن أكون راهبة في فستا.

وبحركة سرية حالت فبيديا دون خروجهما من الباب وقالت لهما بمنتهى الهدوء والحزم وهي تقف عند كل كلمة تقولها:

- أنت ملزمة بالبقاء هنا يا فانينا. أنت تعرفين ذلك جيداً يا همونيا، وتعرفين أنه لا توجد قوة في هذا العالم يمكن أن تبعدها عن هذا البيت بعد الآن.

في هذه الأثناء، وقفت ماكسيميليا في الباب وقالت لرئيسة الراهبات:

- إن حضرة الراهب كلافينوس هنا أيتها العذراء المقدسة، وهو يريد أن يتكلم معك.

هرعت فبيديا لمقابلة ضيفها. وتركت كلاًّ من فانينا وهمونيا عند نموشيا. وهما تقفان في بهو الشقة.

كان صوت كلافينوس الضعيف، وكأنه مصاب بالزكام، يصل إلى آذان كلٍّ من فانينا وهمونيا.

- يجب أن تعلمي جيداً يافبيديا أنك تحطين من قدر الطرق المقدسة في نظر الشعب وأنت تعالجين هنا بعض الأمور!. لقد هب جميع سكان الحي وهم يطلقون صيحات الغضب، وأخبروني بالعقوبة التي أنزلتها بالراهبة نموشيا!.

فأجابت الراهبة بصوت موسيقي أنيق:

- لقد كنت متأكدة أنه لا بد وأن يهرع أحد المخبرين الإثنى عشر الذين أسكنتهم هنا لكي ينقلوا لك ما يحدث أولاً بأول، ولا بد أن مخبريك قد أخبروك أيضاً أن نموشيا لا يمكن أن يتحسن وضعها قبل شهر !.

- حسناً ما سبب هذه العقوبة؟

- لقد تحدت نموشيا القواعد المتبعة في هذا البيت وقامت بتزيين الفتاة الصغيرة.

همست فانينا في إذن همونيا وقالت:

- إنها تكذب: لقد كان هندامي بسيطاً وزينتي أقل من زينة نموشيا.

- فقالت لها المربية:

- أسكتي كي نسمع باقي الحديث.

فعقب الراهب على جواب فبيديا:

- لقد وصلتني عدة تقارير عن نموشيا. ان لها علاقة وطيدة مع أحد الضباط الشبان واسمه أبيوس نوميسيوس، وأنك حبستها في البيت كي لا تقابل هذا الشاب، وقد علمت أنها أرادت أن تستغل براءة الطفلة فانينا وإشراكها في الجريمة لكي تقابل الضابط الذي تحبه.

- لو كان الأمر كما تقول يا كلافينوس المحترم لما كنت تمهلت ابداً في إخبار مجلس الرهبان!.

- أنت تعلمين جيداً أنني المكلف شخصياً هنا بمعاقبة الراهبات المذنبات.

ـ أعذرني يا كلافينوس المحترم، أنا أعلم أن صلاحية معاقبة الراهبات هي بيد رئيس الرهبان ورئيس السلطة الدينية ألا وهو الإمبراطور!.

- ولكنك تعلمين أنه قد منحني جميع السلطات الدينية عندما يكون غائباً عن روما!.

- ولكن الإمبراطور هو الآن في روما يا كلافينوس المحترم وكن على ثقة تامة أننيسألجأ إليك عندما يسافر.

فقال كلافينوس محذراً:

- حافظي على هدوئك يا فبيديا، واعلمي أن القيصر تيبر يرغب في أن يسكن بعيداً عن المدينة، لذلك عليك أن تتوقعي أن لا يكون هذا البيت آمناً من العواصف والأخطار، وإذا كان الإمبراطور يظهر لكم الآن المودة والاحترام إلا أنه لن يستطيع أن يفعل شيئاً عندما تتعرض الإمبراطورية لأي سوء إذا حل غضب الآلهة على هذا البيت، الذي سيكون هدفاً لانتقام الشعب، واعلمي أن رئيسة الراهبات لن تتمكن

عندئذ من حماية راهباتها من انتقام الشعب، ولن تستطيع منع نزول الصاعقة على رؤوسهن.

- أشكرك يا كلافينوس المحترم لأنك زودتني بهذه الأفكار والمواضيع لكنني أرغب في أن تشاهد الطفلة التي انضمت إلينا هذا الصباح.

دفعت باب الصالة التي كانت تقف فيها فانينا وهمونيا، وأمسكت الفتاة الصغيرة من ذراعها، وقامت بحركة فيها الكثير من التهكم وسحبتها من يدها حتى الكرسي الذي يجلس عليه كلافينوس إلى جانب الشباك.

تكلم الراهب مع نفسه فقال:

- ماذا فعلت بنفسك!.

تدخلت فبيديا قائلة:

- هذه ليست الفتاة الأولى يا كلافينوس المحترم فكل الفتيات اللواتي يأتين إلى هنا يرفضن الدخول ويبكين وينُحْنَ في بادئ الأمر، لكن فستا المقدسة تمنحهن بعد ذلك القوة والإيمان فتهدأ نفوسهن، وإلا فلن تجد أحداً يخدم الآلهة!.

ثم التفت كلافينوس إلى شقة نموشيا وأشار إلى همونيا وسأل:

- ومن تكون هذه الإمرأة؟

فأجابته فبيديا:

- إنها مربية الطفلة فانينا، وسوف نسمح لها بالبقاء هنا لكي تستمر في عنايتها ورعايتها.



القسم الخامس

لم تكن فانينا تجرؤ أبداً على السير بمفردها في مثل هذه الساعة المتأخرة من بعد الظهر ولا أن تمر وسط هذا الجمع الغفير الذي ازدحم على طول الطريق المقدسة، وكأن ممثلي بلاد العالم أجمع قد اتفقوا على الحضور إلى هنا، البيض، والسود، وبعض الشعوب الهجينة التي تكونت من تزاوج سكان البلاد التي استعمرتها روما من بعضهم البعض. كان الناس قد سدوا الشارع الذي يحيط بالمباني الفخمة، وراحت أصواتهم وصيحاتهم تخترق عنان السماء.

توزع بعض الفرسان في كل الأمكنة وتحركوا بسرعة، وثمة، في الأمام شخص مهم يحاول الوصول إلى الساحة بسرعة، ولكنه مضطرب لا يدري ماذا يفعل لكي يعبر هذا الزحام. كذلك كان في المكان قافلة تضم ستة أو ثمانية من الخدم العمالقة. يحملون مركبة ومعهم بعض الفرسان البربر يحاولون معاً اختراق الزحام وشق طريق للمرور وما إن يفلحوا في إحداث فجوة حتى تنغلق بسرعة وسط صراخ الجماهير وشتائمها.

أما عربة فانينا ذات العجلتين فقد راحت تتقدم بسهولة. قائدها يسير في المقدمة وقد وضع حزاماً أبيضَ ولم يكن بحاجة لأن يرفع صوته بل كان يكتفي بالقول:

- افتحوا الطريق. ابتعدوا إلى الجوانب.

لم يكن هذا الموظف بحاجة لرفع حتى عصاه التي يمسكها في يده اليمنى، فالناس كانوا يفتحون له الطريق من تلقاء انفسهم وباحترام، وكان جميع موظفي

الإمبراطورية من ذوي الرتب العالية، وممثلو العائلات الأصيلة ينحنون باحترام أمام هذه العربة. ووسط هذه الحالة شعرت فانينا بالسعادة على الرغم من علمها أن هذا الاحترام وهذه التحيات من قبل أهالي روما وكبار الشخصيات لم تكن من أجل شخص هذه الراهبة التي لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها بعد، بل هو من أجل أن يكتسبوا بركات أم المدينة، التي هي عنوان العدالة والفضيلة والإحسان.

كانت بوبيليا تقف إلى جانب فانينا وهي تعيد وتكرر هذه الجملة بلا ملل وهي تكاد تطير من الفرح منذ أن ركبت العربة من أمام بيت راهبات فستا:

- هل رأيت كيف يفتح لنا الناس الطريق ؟

وضعت فانينا يدها بلطف على كتف الفتاة الصغيرة، وركزت أنظارها على نقطة معينة ثم قالت للفتاة الصغيرة بدون أن يظهر على وجهها أي تعبير وبدون أن تحرك شفاهها:

- اسكتي يجب أن تحافظي على هدوئك ووقارك عندما تكونين وسط الشعب. تستطيعين أن تحدثيني عن سعادتك العارمة عندما نعود إلى البيت.

لم تستطع الفتاة الشابة منع نفسها من ان تتبسم بعد هذا الذي قالته لبوبيليا، إذ عادت بها الذكرى إلى عشر سنوات تقريباً خلت وإلى موقف مشابه حيث قالت لها فبيديا الكلام نفسه.



قابلت فانينا مظاهر الحفاوة والاحترام بمنتهى الجدية وبدون أن تظهر على وجهها أية تعابير، وكأنها إلهة تعودت على هذه الأمور، ولكنها كانت تعيش فصول مسرحية قديمة من جديد. عادت بالذكرى إلى مساء ذلك اليوم الذي دخلت فيه عالم راهبات فستا بشكل درامي!.

وتذكرت أيضاً كيف كان الشرر يتطاير من عيني همونيا عندما شاهدت الجروح على ظهر تلك الفتاة جرّاء جلدها بالسياط، وكيف قامت بمسحها بمرهم من صنعها، ثم

كيف دخلت فبيديا بعد ذلك إلى الحمام وهي ترتدي قميصاً ومعطفاً أبيضين كالثلج وقالت للمربية بلهجة الأمر:

- دعي عنك فانينا. أنا سأساعدها في ارتداء ثيابها.

كانت هذه هي المرة الثانية منذ الصباح التي ترى فيها الفتاة الصغيرة راهبات فستا وهن يرتدين هذا الزي الرائع. بعد ذلك قالت فبيديا:

- إنني ذاهبة الآن إلى نبع "كامن" المقدس لكي أجلب الماء وسوف تذهبين معي يا فانينا!.

ثم استدارت نحو همونيا وأضافت:

- وأنت تستطيعين أن تأتي أيضاً، وقد هيأت لك بعض الثياب الملائمة.

كان ذلك اليوم شبيهاً بهذا اليوم فقد كانت بالانتظار عربة تجرها دابتان من الخيول، وعددٌ من الخدم يحملون ستة جرار، ولكل جرة مسكتان من الجانب، ويقفون أمام الباب الكبير بانتظارنا، كل ما مر معي في ذلك اليوم يشبه ما يمر الآن، فها هم الناس قد تجمهروا لرؤية راهبات فستا وهن ذاهبات في رحلتهن الأسبوعية ليجلبن الماء إلى المعبد لكي يغسلنه وكيف تقدمت رئيسة الراهبات بغرور وأخذت مكانها في العربة، ثم وضعت يدها على كتفي وقالت لرئيس القافلة بلهجة الأمر وبدون أن تأبه إلى هتاف الجماهير وتصفيقهم:

- ها!.

وها هي السنون قد مضت، وها هي فانينا تخرج إلى الشارع لأول مرة، قبل أن تصبح راهبة كبيرة في السن، وتأخذ مكانها في العربة بعد أن جلست بوبيليا إلى جانبها وسط تصفيق الجماهير وهتافهم وهي تعطي الأوامر نفسها.

لم يمض سوى خمسة عشر يوماً على وفاة نموشيا التعيسة حتى انتخبوا عوضاً عنها بوبيليا الصغيرة التي لازالت عيناها متورمتين من البكاء منذ أن قصوا بآلة الحلاقة

المقدسة، شعرها الأسود كالأبانوس، ثم علقوه على الشجرة الموجودة في باحة الراهبات إلى جانب شعر فانينا الذهبي الذي قصوه في ذلك الحين وقد صار الآن بلا لون لكثرة ما نالت منه الشمس والمطر.

وها هي فانينا تخجل الآن من الدموع التي ذرفتها في ذلك الحين رغم أنها لم تكن تود بشكل من الأشكال أن يقصوا شعرها، لكن ها هو الشعر قد نما من جديد وأصبح أكثر كثافة وملفتاً للنظر أكثر، أما هذا الزي الذي تلبسه الآن وتفتخر به، فهو حصيلة عشر سنوات مليئة بالسعادة أمضتها هنا!.

حقيقةً، لم يكن لأي واحدة من فتيات روما حظاً سعيداً مثل حظ فانينا، علماً أن همونيا كانت قد رسمت لها صورة قاتمة لا تخطر في بال أحد عن حياة راهبات فستا. ولم تنس فانينا كلام والديها اللذين كانا يحدثانها دوماً عن مرتبة الشرف التي سوف يحظى بها السناتور فانينوس، سليل ماسترنا المقدس، وكيف يجب على فانينا أن تحافظ على عذريتها.

أما همونيا، هذه المربية المخيفة الوفية التي هي أكثر وفاءً من أي كلب، فإنها لم تكن تفارق فانينا، لا ليلاً ولا نهاراً، وهي على الدوام جاهزة لبذل كل التضحيات كي لا تتعرض الصغيرة إلى أي أذىً. همونيا ليست عجوزة، وها هي الآن، تسير بقوة وحيوية إلى جانب العربة.

مع الأيام، صارت فبيديا بمثابة أم ثانية لفانينا، ولكنها تسعى جاهدة ،وعلى الدوام لأن تُعوّد الفتاة الصغيرة على السمو فوق العادات الفانية. كانت معلمة مخيفة لا تمل أبداً، و تريد أن تُشكِّلَها من جديد. جهدت أن تعلمها كل شيء، ولم تتوان عن الاتفاق مع جميع أنواع المعلمين على ذلك، فقد كان يأتي إلى بيت الراهبات في فستا وبناء على طلبها هي، لفيف من الرهبان، والكهنة والمنجمين، وفتاحي الفال، وكأنهم يقومون باستعراض رسمي. كان صبر فانينا ينفد في ببعض الأحيان فتقول:

- صدقيني أيتها العذراء المقدسة، إن الأمور تختلط في رأسي بهذه الطريقة!. فأنت تلزمينني بتعلم اللغة اليونانية، والكلتية، والأترسكية، والألمانية والعبرية،

والمصرية، وعلم النجوم. ورغم أنني على قناعة تامة أن هذه الأمور سوف تفيدني في أحد الأيام، إلا أنني أتساءل ما علاقة تلك الأدعية، وأشكال السحر، والوصفات المرعبة، في العبادة في فستا؟ خاصة "لوكست" الذي طُلب منه أن يعلمني الأسرار المخيفة. إن بدني يقشعر كلما تذكرت قصة تلك السيدة التي قتلت عدداً من الرجال بعد أن دسَّت لهم السم، وكيف حاول أن ينقذها من السجن؟

اعترضت فبيديا التي لم تكن تتوقع اعتراض هذه الفتاة التي تحت وصايتها وقالت:

- لقد جاء لوكست لكي يعلمك طريقة تحضير النباتات التي تقضي على السموم، وهذه الأمور لابد أن تفيدك في أحد الأيام!.

فتحت فانينا ذراعيها بحركة تفيد أن لا فائدة من الكلام ثم أجابت:

- إذا كان عليّ تعلّم كل شيء قد يفيدني في يوم ما، فلن أنجوَ من أيدي المعلمين ولو بعد مئة عام.

وهنا قاطعتها فبيديا قائلة:

- إن كل ما أقوم به هو تنفيذ لتعليمات الإمبراطور يا ابنتي، لذلك يجب أن لا تناقشيني أو تعترضي على ما أفعله، بل عليك أن تطيعي فقط!.

ـ حسناً ولكن ماالذي يريده الإمبراطور مني؟ ها هن رفيقاتي يقمن بأعمالهن بمنتهى النجاح رغم أنهن لم يتعلمن شيئاً مما أتعلمه أنا!.

كانت فبيديا تعرف كيف يمكن تجاوز مثل هذه الأسئلة بمنتهى المهارة.

ارتعشت فانينا حزناً في يوم احتفالها بعيد ميلادها العاشر، وهي تتذكر هذه الأمور. لم تكن تدري أكان ما مر معها حلماً أم حقيقة.



في المساء، بعد انتهاء السهرة، وفي الوقت الذي كانت فانينا ترغب في الذهاب إلى النوم، دعتها فبيديا وبدون أية مقدمات لمشاركتها في مناوبتها في المعبد هذه الليلة.

كادت فانينا تطير من الفرح. فهذه هي المرة الأولى التي تسهر فيها حتى هذه الساعة المتأخرة، وهي لم تنتظر أبداً أن تمضي كل هذا الوقت الطويل عند الشعلة المقدسة!. من يدري؟ ربما كان ذلك خيراً لها وسبباً في ارتقائها درجة جديدة في سلّم الرهبنة!.

كانت الأضواء البرتقالية المنبعثة من النيران المشتعلة في المحراب تنعكس على الجدران العارية في المعبد الصغير الدائري وينتج عنها ظلالٌ ساحرة متراقصة وكان أوار الشعلة وصوت طقطقة قطع الخشب التي تحترق يعطيان صدى سحرياً. كانت الدقائق تتوالى وفبيديا تغدو وتروح بمنتهى الهدوء، تنظف الرماد أولاً، ثم تتفحص بدقة العيدان الخشبية التي رتبتها فوق النار بشكل هندسي. وكانت فبيديا تعرف جميع أنواع الأشجار السعيدة والمباركة والجديرة بنيران الإلهة المقدسة، كالكمثرى والتين الأبيض، والخوخ، والكرز، والعناب وغيرها من الأنواع الأخرى.

صاحت فبيديا فجأة:

- يا أم روما!. ها هي فانينا!.

استغربت الفتاة الصغيرة عندما سمعت اسمها. ثم رفعت الراهبة يديها باتجاه المحراب وبدأت تتلو دعاءً إثر دعاء، وبعدها أخذت من إناء فخاري قليلاً من المسحوق الأزرق ونثرته فوق النار، فراحت ألسنة النار الزرقاء تتصاعد حلزونياً حتى كادت تلامس سقف المعبد، ثم أخذ الظلام يلف المعبد شيئاً فشيئاً.

تقبضت فانينا على نفسها وتيبست في مكانها. لكنها لم تخف لأن فبيديا تقف إلى جانبها. ولكن هل كانت هذه فبيديا التي تعرفها جيداً يا ترى؟

كانت فبيديا تسبح في خضم من الدخان الحلزوني الذي تنبعث منه رائحة تُحْدِث الدوار وكان وجهها يذكّرها بصورة راهبة معبد أخرى،ليست من مخلوقات هذا العالم. إذ لم يشاهد في وجه هذه المرأة المقدسة أي أثر لِلكِبَر أو التجاعيد على الرغم من جميع المتاعب والمسؤوليات التي تتحملها. كانت نظراتها تشع وتتغلغل في الأعماق، وبعد ذلك همست:

- فانينا!. يا فانينا!. عليك أن تكوني قوية لأنك سوف تضطّلِعين بمهمة كبرى، ويجب أن تكوني أهلاً للقيام بها!.

كان صدى الكلام الصادر عن رئيسة الراهبات ينعكس على القبة البرونزية فيكسب صوتها رهبة وجلالاً ـ مما جعل فانينا تشعر وكأنها تعيش في عالم من الخيال!.

بعد ذلك أردفت فبيديا قائلة:

- فانينا لقد قرأ كلٌّ من الإمبراطور ورئيس المنجمين تراسيلوس إسمك في السماء!.

إنك سوف تمسكين بأقدار روما مرات عدّة بيدك!.

ارتعدت فانينا عند سماعها عبارة فبيديا الأخيرة، وقالت بصوت مرتجف وهي لا تصدق ما سمعت:

- أنا أُمْسِك بأقدار روما بيديَ؟

فأجابتها رئيسة الراهبات:

- نعم يا فانينا سوف تمسكين بأقدار روما بين يديك، وعليك أن لا تنسي أن انتخابك لم يكن مجرد مصادفة!. إننا نشكر الآلهة لأنك استطعت أن تلفتي أنظار تيبر.

استفاقت فانينا من الحلم الذي كانت غارقة فيه على وقع نعال الخيول وصوت قرقعة السلاح، ثم سمعت صوت صهيل أحد الخيول وتبعه صوت قوي أصدر أمراً قصيراً لكي يبتعد الناس الذين يلتفون حول عربتها. عبرت العربة التي يجرها إثنان من الخيول الطريق المقدس وانعطفت باتجاه طريق النصر.

التفتت فانينا إلى اليسار فشاهدت مفرزة من الفرسان البريتوريين المخصصة للحماية وحفظ النظام، تقوم بتنظيم الزحام المتقدم من حي سبور، وقد حبسوا أجسامهم بالدروع وعلى رؤوسهم الخوذ الحديدية المزينة بالريش، وكان عددهم حوالي الخمسين، يمسكون بأيديهم تروساً صغيرة مدورة ويضعونها على صدورهم، وقد

أسندوا حرابهم الطويلة المزدانة بالأعلام على الأرض، واستعدّوا لتحية الراهبة الشابة.

مثل فبيديا تماماً، تحكمت فانينا بتعابير وجهها وانتابها غرور هادئ. بعد ذلك تنازلت قليلاً ثم أدارت رأسها نحو الجنود ونظرت إليهم نظرة ملؤها الوقار وكأنها تريد أن تشكرهم على وقوفهم بهذا الاحترام الهائل من أجل تحيتها!.

كانت نظرات الفتاة الشابة التي اصطدمت بنظرات الرجال تخلو من أي معنى ما عدا نظرتها إلى الضابط الذي كان يقف على رأس المفرزة، فلقد لفت هذا الضابط أنظار فانينا إذ كانت تصرفاته وهندامه الفخم مميزةً عن باقي الجنود.

كان يضع على كتفيه شالاً أحمر بلون الياقوت، وعلى صدره درعاً من الذهب حِيكَ بشكل بديع حتى صار كريش العصافير. كان حاسر الرأس ويمتطي فرساً فضّياً جميلاً، يلفت النظر بطول ذيله وغرته السوداوين وقد غُطيّ ظهره بسرج من جلد النمر. كان يعقد ذراعيه على صدره. لم تشاهد فانينا بين جميع الرجال الذين صادفتهم في حياتها رجلاً له نظرات جريئة مثل هذا الضابط. إنها نظرات غريبة وثاقبة وتحكي أشياء كثيرة!.

لم يكن هناك في روما من يجهل هذا الضابط. هذا الرجل الناضج كان يلفت أنظار فانينا دوماً في الاحتفالات التي كانت تحضرها. إنها لم تنس هذا الرجل الأسمر بوجهه الأترسكي وفكه القاسي الذي يذكرها بالحيوانات المفترسة كما أنها لم تنس أبداً فمه وشفتيه القرمزيتين اللتين تشبهان شفاه النساء و تشعان شهوة.

كان والدها يحدثها دوماً عن هذا الضابط، المسمَّى ساجان، رئيس مفرزة الحماية المشكلة من البروتوريين وعدد أفرادها حوالي عشرة آلاف جندي وهم مكلفون بحراسة جميع أبواب المدينة وعلى استعداد لأن يفدوا رئيسهم بأرواحهم.

كان ساجان هذا يُعَدّ الرجل الثاني في الدولة بعد الإمبراطور. أمّا الآن فهو الرجل الأول بعد أن انزوى الإمبراطور تيبر العجوز في جزيرة كابري. جميع الناس يجثون

أمامه على ركبهم ويعدّون ذلك أمراً عادياً، وقد انتصبت تماثيله في جميع أرجاء المدينة، وتلقى احترام الجماهير، تماماً مثل تماثيل الآلهة، أو أوغست أو تيبر.

ولكن مهما كان الرجل صاحب سلطة ونفوذ، ومهما كان ذا مكانة عالية فإن فانينا لم تشعر بالارتياح لتلك الضحكة التي أطلقها ولم تستطع أن ترى أي معنى لها!. فلقد كان ينظر إليها وكأنه لص يحاول أن يثمن قيمة الشيء الذي يود سرقته، لذا كانت نظراته تحوم حول الفتاة الشابة وكأنها تداعب جسدها. فبعد أن تفحص وجهها الجميل الذي يخلو من العيوب راح يتفحص قوامها الرائع فانحدرت نظراته نحو معطفها ثم ركز أنظاره على بروز صدرها، ورغم أن الثنيات الموجودة على المعطف كانت تخفي كثيراً من ملامح جسمها إلاّ أنه كان يحاول أن يمسك ببعض رؤوس الخيوط لكي يتمكن من تخيل الأمكنة المحرمة لدى هذه الراهبة الشابة، وكأنه يقوم بتعريتها تحت أشعة الشمس!.

كانت الفتاة الشابة قد وقعت تحت تأثير مثل هذه التخيلات فبدأت تشعر بالحرارة تدب في أوصالها، فارتخت قدماها وشعرت أن هذا الرجل، لا بد أن يكون ساحراً، ولا بد أنه هو المسؤول عما يحدث لها. لذا كانت تتمنى لو تستطيع القضاء عليه.

أدارت رأسها بقسوة، وكتمت صيحة كانت تريد أن تطلقها لكي يقوم قائد القافلة والسيدتان اللتان كانتا تسيران إلى جانب العربة بحث الخطى.

وفي سير الموكب باتجاه الساحة والجميع يهتف بحياة صاحبة القدر المطلق، راحت فانينا تصب جام غضبها على تيبر وعلى الإمبراطورية، واستغربت كيف يحتفظ تيبر بمثل هذا الرجل الوقح المستهجن وقليل الأدب؟

تمتمت بوبيليا:

- أرأيت كم هو وسيم يا فانينا؟

- ومن هو الذي رأيته؟

- ومن سيكون؟ انه ساجان طبعاً؟

- اسكتي. ودعي عنك. ثم عن أي وسامة تتحدثين؟ انه رجل عجوز.

ضغطت فانينا على أعصابها وهي تتكلم إذ رأت الأنظار كلها قد تركزت عليها. تمالكت نفسها وحافظت على برودة أعصابها وأطلقت نظرة براقة إلى جماهير الشعب الذين راحوا يصفقون لها.

لكن هيهات أن تكتشف في عيون الرجال الذين كانوا ينظرون إليها مثل تلك النظرات الثاقبة التي أطلقها رئيس مفرزة البروتوريين، تلك النظرة التي هدّت كيانها.

وما عساها أن تفعل أمام تلك المجموعة المحيطة بها: العبد الزنجي النيجيري العملاق الذي كان يقف إلى جانبها وينظر إليها أيضاً ويحدق بها كثيراً كما لو أنه أحد السكارى، اليوناني ذو اللحية، الروماني الذي تعلم أن يقف باحترام أمام راهبات فستا، الرجل البروتاني ذو اللحية الحمراء، الغالي المخمور، البربري الذي يشبه القرد، الرجل القيصري صاحب الجلد الناشف، وكيف سوف تتصرف أمام نظرات هؤلاء!

تذكرت الجملة التي قالتها نموشيا قبل عشر سنوات:

- سوف ترين عندما تصبحين في السادسة عشرة من عمرك، عندما ينظر إليك الرجال على أنك لست فتاة صغيرة.

تمتمت فانينا ببعض الكلمات وكأنها تتكلم مع أسنانها.

- لماذا ينظر هؤلاء جميعهم إليَّ؟

تدخلت بوبيليا وقالت وهي فرحة:

- لأنك جميلة يافانينا.

- لقد كانت رئيسة الراهبات فبيديا أجمل مني لكنها لم تتعرض لنظرات الرجال مثلي.

فقالت الفتاة الصغيرة معترضة على كلامها:

- أبداً، غير صحيح. ألا تعرفين أنك أجمل من رئيسة الراهبات؟ ألم تنظري إلى نفسك في المرآة؟

- أنت تسخرين مني يابوبيليا!.

- أبداً. أنا أقول الحقيقة.

نعم، إن بوبيليا الصغيرة تقول الحقيقة!.

إنها همونيا هي التي همست بهذه الكلمات وهي تسير إلى جانب العربة. هذا هو حال هذه المربية فهي تسمع وترى كل شيء. إذ بدا من نظراتها أنها كانت فرحة جداً.

غضبت فانينا مرة أخرى وتمنت لو أن الأرض انشقت وبلعتها. ما هذا الحظ السيء. إنها تقف كالصنم فوق هذه العربة، وكل الأنظار متجهة إليها وهي لا تستطيع التهرب منها، ثم إنها مضطرة للوقوف بقامة مشدودة. كانت الفتاة الشابة ترغب في أن تسمع صوت العقل وأن تتحكم في عواطفها، وتحاول أيضاً التخلص من نظرات ساجان التي سيطرت على تفكيرها. وتذكرت تحذيرات فبيديا وتوصياتها أن تحافظ على هدوئها وتتحكم بأعصابها أمام الشعب، بعد أن لبست زي أنصاف الآلهة.

لم يعد بإمكان الراهبة الشابة أن تقوم بأداء أي دور منذ أن لبست هذا الزي. فقد كانت هذه الفتاة الجميلة، تعيش بمفردها، حتى أنها كانت تخشى نظرات الرجال الثاقبة.

- ارجع إلى الوراء. افتح الطريق.

كان قائد القافلة يصدر أوامره لجماهير الشعب لكي يفتحوا الطريق لكن، هاهو الآن يركز كلامه على شخص واحد:

- اقول لك افسح الطريق.

كان يقف إلى الأمام وعلى بعد خطوات منه وفي وسط الممر الذي قسم كتلة الشعب إلى قسمين، شاب تسمَّر في مكانه ووقف يمعن النظر بفانينا.

نسيت الفتاة الشابة تلك الوجوه التي شاهدتها قبل قليل وركزت نظرها في وجه هذا الشاب، وكأنها في حلم. أهو وسيم إلى هذه الدرجة؟ لم تكن الشابة متأكدة من ذلك!. الشيء الوحيد الذي تأكدت منه هو لون عينيه الزرقاوين كاللازورد، وكأنها جاءت من أعماق بحر عميق. تمنت الراهبة الشابة لو استطاعت أن تغوص في أعماق بحر عينيه، لكي تغسل الأدران التي علقت بروحها قبل قليل وليحل محلها الفرح والسعادة.

أراد قائد القافلة أن يبعد الرجل إلى جانب الطريق، وكان يستطيع في هذه الحالة أن يأمر بضربه وسوقه إلى أقرب مركز تابع له. فلا أحد له الحق في اعتراض موكب إحدى راهبات فستا. ولكن على ما يبدو فإن هذا الشاب الأبيض البشرة والذي ظهرت على جبهته العريضة بعض البقع البيضاء من وهج الشمس، والذي يتميز، بعظام رفيعة، وشفتين ممتلئتين، توضعت على جانبيهما غمازاتان رائعتان، وأسنان ناصعة البياض كالثلج، وعمر ه يقرب من ثمانية عشر أو عشرين عاماً، وجد أن له مثل هذا الحق!.

وأما فانينافقد بدا أنها نسيت وصية فبيديا الثانية التي تقول: عندما تكونين وسط الجماهير، عليك أن لا تولدي انطباعاً أنك تعلقت بأحد. فها هي قد سهت عن نفسها وهي تنظر إلى وجه الشاب وراح قلبها وصدرها يخفقان بشدة، وتتنهد بين الحين والآخر، فشعرت كما لو أنها تحلّق في الفضاء. لقد ارتسمت في ذاكرتها كل تعابير وجهه، أنفه الشامخ وجنتاه وذقنه المستديرة التي توحي بالعناد. لم تعد تستطيع ضبط عواطفها تجاه هذا الشاب الذي احتكر جميع ألوان الأخشاب الجميلة. فشعره الذهبي بلون الهافان الذي تجده في أشجار الكمثرى، يلقي بظلاله الجميلة على خديه.

في هذه الأثناء ضربتها بوبيليا بمرفقها وسألتها بدهشة:

- ما بك؟ هل أنت مريضة؟

انتبهت فانينا، ونظرت إلى الأمام فرأت رفيق هذا الشاب الذي كان يقف إلى جانبه يجره من حزامه ويقول له:

- هيا ابتعد عن وسط الطريق يا فيندكس!. وإلا فسوف يدهسونك!.

عاد الشاب إلى وعيه وابتعد.

وقبيل ابتعاده، تلفظ فيندكس ببعض الكلمات وكأنه يعتذر لها، ثم اندس وسط الجماهير وغاب عن الأنظار.

- أجيبيني يا ابنتي ما بك؟ هل أنت مريضة؟ سألتها همونيا هذه المرة.

ثم سألتها بوبيليا مرة ثانية وهي تتوسل لها:

- أرجوك قولي أي شيء.

كانت فانينا تسمع الكلام دون أن تجيب عليه، ولم تأبه ايضاً للخدم الذين كانوا يرافقون العربة، ويرمقونها بنظراتهم بين الحين والآخر، على الرغم من أنها تعلم أن هناك واحداً منهم على الأقل يعمل جاسوساً لكلافينوس، و لن يتوانى عن نقل ردة فعلها أمام هذا الحادث البسيط، إلى مجلس الرهبان، لكنها لم تهتم لذلك ، بقدر اهتمامها باللحظات الجميلة التي عاشتها خلال هذه الحادثة.

امتلأت في الدقائق التي عاشتها خلال هذه الحادثة بوجود شاب اسمه فيندكس، على الرغم من أنها حاولت جهدها أن تبقى بعيدة عن الرجال حتى تلك اللحظة. أما الآن فهاهي تردد اسم فيندكس بين شفتيها وكأنها تكلم نفسها.

نهرتها همونيا قائلة:

- عليك أن تعودي إلى صوابك ، وأن تأخذي بعين الاعتبار وجه وحرمة الآلهة ياابنتي الحبيبة.

فردت عليها فانينا كأنها تحلم:

- أرجوكم اتركوني. لا تزعجوني.

لم يأبه فيندكس لكلام الناس وهو يدفعهم بساعديه ومنكبيه عندما كان يشق طريقاً لنفسه، وفجأة وجد نفسه من جديد أمام فانينا ونظراته لا تفارق وجه الفتاة وكأنه لم يشبع من النظر إليها.

فقالت لها همونيا بانزعاج:

- لا تنظري إليه يا ابنتي. تصرفي وكأنك لا ترينه.

أما بوبيليا فقالت:

- ها قد عاد. كم هو لطيف! وبدأت تقفز من الفرح.

فقدت همونيا السيطرة على أعصابها، فقالت:

- ما من شك في أنه أحد رجال كلافينوس، وهو يريد قتلك!. إنه يدفعك لارتكاب جريمة الحنث باليمين. يجب أن لا تنسي يا فتاتي ما حدث لنموشيا. ثم أريد أن أقول لك شيئاً آخر، إذا كنت سوف تستمرين بقلة الأدب، والله سأفقأ عينيه!.

عادت فانينا إلى نفسها بعض الشيء، وهدأ الشاب أيضاً بعد أن رأى أن لا معنى للهيجان الذي سيطر عليه خاصةً وأنه يقف أمامها ويراها. بسهولة رمقته الفتاة الشابة بنظرة وبدون أن يراها أحد ثم غمزته رغم أنها كانت تتظاهر أنها تركز أنظارها على نقطة بعيدة.

كان هذا الشاب غريباً!. رغم أنه بدا عليه للوهلة الأولى أنه من سكان روما. فجميع شباب روما يلفون على خصورهم أحزمةً من القماش الأبيض التقليدي مثله، بالإضافة إلى أنه كان يلبس في بنصر يده اليسرى حلقة ذهبية تلمع. وكان يشد قميصه الطويل الذي يصل إلى الورك بحزام، وقد زين هذا القميص عند نهايته بشريط أحمر غامق. ما إن انتهت فانينا إلى هذه النتيجة التي تؤكد أن هذا الخاتم وهذا الحزام يدلان بلا أدنى شك على أن هذا الشاب من الأشراف، حتى كان قائد القافلة قد طلب إليه أن يخلي الطريق.

لكن اسم فيندكس يدل على أنه غريب عن روما فهو إسم لاتيني لاوجود له لدى أي عائلة من أشراف روما، أضف إلى ذلك أنه لا يمكن لأي شاب من روما أن يتصرف بهذا الشكل أمام تلك الفتاة الشابة خاصة وأنها إحدى راهبات فستا المقدسة. والشيء الآخرالذي يميزه عن شباب روما هو طول قامته التي لانظير لها عندهم.

في الوقت الذي كانت فيه فانينا تسأل نفسها هذه الأسئلة وترد عليها اختفى هذا الشاب المجهول بعد أن مر من خلف البغل المحمل بحِزَم العلف.

وبعد قليل علا صوت الصراخ في وسط الزحام، وبدأ الناس يتدافعون كالمجانين، ويصرخون، ويشتمون، وبدأ البغل يرفس ذات اليمين وذات الشمال فوقع الحمل من على ظهره وسقط في الفراغ الذي كان من المفترض أن يكون فيه فيندكس واقفاً. مال بعض الناس فوق هذا الفراغ وحاولوا أن يرفعوا هذا الشيء الذي تمدد على الأرض. كان لونه شاحباً، وعيناه مغمضتين والدم يخرج من جانب شفتيه ويرسم خطاً أحمراً رفيعاً. لقد كان هذا الشيء هو فيندكس الذي كان لا يقوى على الحركة!.

امتقع لون فانينا، وتجمدت جميع أعضاء جسمها وبدا وكأن قلبها سوف يتوقف عن الخفقان، وبصورة لا شعورية أطلقت صرخة ملؤها الألم، ودفعت بوبيليا من جانبها وهي تريد أن تقفز من العربة لكي تركض نحو الشاب، ولكن يداً حديدية أمسكتها من معصمها وأوقفتها مكانها. كانت همونيا المربية المخلصة بلا شك هي صاحبة هذه اليد. ثم التفتت إلى الخادم الذي كان يسير خلفها بصوت سمعه الجميع :

- هيا ساعدني. لماذا تقف هكذا؟ ألا ترى أن سيدتي قد أغمي عليها؟

كان الخادم يتمتم وهو يهب لنجدة فانينا :

- أنا أستغرب كيف يذهب الناس إلى السيرك ليتفرجوا على المصارعين وهم يفتحون بطون بعضهم!.

عادت فانينا إلى وعيها وتصرفت كما تعلمت من فبيديا عندما تتعرض إلى مثل هذه المواقف وقالت :

- اسكتوا جميعاً.

ثم وقفت في مقدمة العربة وصرخت في الخدم:

- هيا تحركوا. ماذا تنتظرون؟

وما أن بدأت العربة تتحرك وسط جموع الجماهير حتى طلبت فانينا إلى همونيا التي كانت تسير إلى جانبها وارتفاع كتفها قد وصل إلى ورك فانينا:

- أريد أن اعرف كل ما جرى.

فاعترضت عليها المربية:

- هل جننت؟

- افعلي ما أمرتك به، وإلا ذهبت وعرفت كل شيء بنفسي. هيا اذهبي واسألي الناس، أريد أن أعرف كل شيء.

استغربت همونيا هذه اللهجة التي كانت فانينا تخاطبها بها، فرفعت رأسها نحو الفتاة الشابة فوجدتها واقفةً كالتمثال في مقدمة العربة وقد استندت بذراعها على كتف بوبيليا. إنها ليست فانينا التي تعرفها!. تتصرف وتصدر أوامر وكأنها إمبراطور يتحكم في مصائر الناس. كانت تكرر جملة واحدة:

- أريد أن أعرف كل شيء.

استكانت همونيا فوراً لأوامرها وقالت لها:

- سوف تعرفين كل شيء يا حبيبتي.

دُهشت المربية من هذه الشخصية الجديدة. يبدو أن دروس ضبط النفس والتحكم بالعواطف التي تعلمتها من فبيديا قد أعطت ثمارها!.

اكتشفت فانينا أنها أصبحت مثل جندي تعلم كل شيء عن فن الحرب وأصبح جاهزاً ومهيأً لتلقي الضربات وكل أنواع المخاطر. وها هي الآن تشعر أنها أصبحت أفضل حالاً مما ينتظر من رئيسة راهبات فستا. لقد نضجت وأضحت رزينة وذات أعصاب باردة!.

على بُعْد بِضْع خطوات كان هناك بعض الرجال يحملون فيندكس إلى أقرب منزل، جثة لا حراك فيها. ولم تلتفت فانينا نحو هؤلاء الرجال!. ولم تنظر إلى هذا الإنسان الذي صار لثوانٍ مضت أغلى، عندها من أي إنسان. أغلى من أبيها وأمها وأغلى حتى من فبيديا وهمونيا.

وبتصرفها هذا تحاشت كلام الفضوليين وأحكامهم.

في هذه الأثناء تدخلت إحدى السيدات البدينات وسألت بصوت ناعم:

- ما الذي حدث لهذا الشاب؟

فأجابها أحدهم.

- لا أدري!. رأيته يهوي إلى الأرض.

- هل شاهدت أحداً يضربه؟

- رجل قزم اختلط طوله في عرضه!.

- ذراعاه طويلتان كالقرد!.

- لكنه كان يتمتع بقوة هائلة. لأنني حاولت أن أمنعه فضربني وأحسست أن عظام صدري وكتفي تكاد تتحطم!.

- إذن أنت أوفر حظاً من المصارع بوركا فقد حاول أن يعترض طريق هذا القزم فناوله لكمة على بطنه جعلته يقذف الدم!.

- أعتقد أن هذا القزم من العبيد. فهذا واضح من ثيابه القديمة ومن معطف الجلد الذي يرتديه، ومن القبعة التي يغطي بها رأسه لكي يحميه من المطر.

- لكن كيف يمكن لعبد أن يضرب أحد الأشراف.

- كل شيء ممكن في هذه الدنيا!.

- على كل حال لقد نال هذا الشاب المتهور جزاءه واستحق ما جرى له. لأن من يقوم بدفع الناس كالوحش لا بد أن يأتية وحش وينتقم منه.



في كل مرة يملأ فيها أحد الخدم جرة الماء ويسلمها إلى إحدى الراهبات، كانت فانينا تتلو في إثر ذلك بعض الأدعية القصيرة للآلهة ولبيري إجاري الذي أوصل الماء من نبع الإلهة ديانا من أجل تنظيف معبد فستا.

كان عدد الجرار سبعاً، وهي طويلة، ولكل منها قاعدة مدببة من الأسفل لكي لا تتركز على الأرض فيتكدر ماء النبع المقدس!. لذلك فقد كان ملؤها أمراً في غاية الصعوبة، إذ يترتب على من يذهب لملء هذه الجرار أن يمد يده كثيراً إلى الأمام. لكن فانينا لم تكن تفكر بهذه الصعوبات. ركزت اهتمامها في ذلك الكائن الذي حمله الأغراب جثة لا حراك فيها، وكانت تود أن تعرف مدى العذاب والآلام التي يكابدها!.

حاولت أن تكرر الحركات التي تعلمتها بشكل لا شعوري، رغم أنها كانت حزينة. كان الخدم قد التفوا حولها وهم ينظرون إليها دون أن يتكلموا، لكنها كانت متأكدة أن هؤلاء لن ينسوا أبداً حادثة إغمائها في الطريق وبلا شك سيشمتون بها ويفسرون الأحداث وفق أهوائهم وسوف يسخرون من تلك السيدات المغرورات اللواتي يدعين أنهن ربات الفضيلة والشرف.

ولكن من أين لهن أن يدركن ذلك الإحساس النظيف الذي شعرت به الراهبة الشابة. فحتى فستا المقدسة وصاحبة الشفقة لا يمكن أن تلومها على هذا الإحساس.

تذكرت فانينا فوراً التحذيرات التي كانت تكررها فبيديا وتذكرت ما يخص الخدم وعلاقتهم براهبات فستا وعلى الأخص من تقيم منهن في دير الراهبات.

كانت بوبيليا الصغيرة تقف إلى جانب الراهبة الشابة وهي لا تجرؤ على الحركة، وكانت فانينا من جهتها، تشعر بنظراتها المملوءة بالمحبة، والتي كانت تخفف عنها بعضاً مما تعانيه. وبعد أن ملأت بوبيليا الجرة الأخيرة شعرت بتعب شديد وألم في رجليها وكتفيها. ولم تعد رجلاها تقويان على حملها، لكن فانينا حافظت على هدوئها ووقارها كما تعلمت فرتبت معطفها بشكل جيد وربطت الشال، ثم رفعت يديها إلى الأعلى لتأخذ الماء من على كتف الفتاة. ثم دعت للآلهة ولبيري إجاري،

ثم مدّت يدها لتمسك بوبيليا من يدها لكي تلحق بعربة الخدم التي حُمّلت عليها الجرار، فشعرت أن يدها قد لمست شيئاً غضاً دافئاً. كان ذلك شفتا بوبيليا.

فشعرت فانينا بالحرارة تسري في أوصالها واغرورقت عيناها بالدموع.



اخترقت العربة الزحام، وقد أخذت همونيا مكانها إلى جانب سيدتها. بعد ذلك قالت الراهبة الشابة بلهجة الأمر لقائد القافلة:

- هيا انطلق.

رفع قائد القافلة عصاه وبدأ يشق الطريق وهو يقول:

- هيا افسحوا الطريق. ابتعدوا.

لكن المشكلة، برزت مرة أخرى أمام ناظري فانينا فسألت مربيتها بهدوء:

- هل فهمت شيئاً؟ فأجابت همونيا بصوت منخفض كي لا يسمعها أحد:

- لا يوجد شيء خطر. كل ما في الأمر أن أحدهم قد لكمه في أسفل ذقنه.

- ولكن ما هذه الدماء التي كانت تنفر من فمه؟

- لقد عضَّ على فمه أثناء الضربة!.

بعد ذلك تنهدت فانينا وسألت:

- وهل عرفت من هو؟

- إنه من غالة. هناك في روما سيناتور من غالة، وهذا الشاب هو ابنه، وقد قدما إلى هنا البارحة من ليون!.

همست فانينا ببعض الكلمات دون أن تفتح شفتيها:

- إذن والدي يعرفهما جيداً!

احتدت همونيا وقالت:

- ممكن، ولكن أرجوك أن تنتبهي لتصرفاتك وأن تأخذي الحذر والحيطة في كل ما تقومين به: هل تعرفين من هو أول شخص من غالة شاهدته يدخل بيتنا؟ إنه فيتالوس!. والد فيتالوس الصغير ذي الشعر الطويل الأجعد وأحد الأطفال الذين جمعهم الإمبراطور تيبر منذ عشر سنوات!. أنت تعرفين فيتالوس؟ فيتالوس السيناتور البدين والصديق الحميم لدومتيوس صاحب اللحية البرونزية الذي عُين في غالة وكان قد زار منزلنا في اليوم الذي أخذك فيه تيبر لكي تصبحي راهبة. إنني أخشى من هؤلاء الناس يا ابنتي فانينا، فأنت تعرفين كم يكرهون والدك، وكم ينتظرون أن تسنح لهم الفرصة لكي يتخذوا منك أداة لانتقامهم، ثم أنت في وضع حرج أكثر من الجميع، لذا أتوسل إليك أن تهدأي وترتاحي.

لكن فانينا لم تكن تسمع ما تقوله مربيتها، فقد كانت تمسك بيد بوبيليا، وتمسك طرف العربة باليد الأخرى، وهي غارقة في أحلام لا نهاية لها.

فكّرت أن فيندكس هناك في أحد تلك الأبنية، وهو الآن يفكر فيها!. وكان هذا كافياً لإدخال السعادة والسرور إلى قلبها.



كان صوت عجلات العربة البطيئة التي وقفت عليها فانينا يُسمع وهي تسير فوق أحجار طريق النصر، وهتافات الجماهير وتصفيقهم يعطي همونيا حافزاً لكي تتكلم أكثر- وفي هذه الأثناء سمعت فانينا، بعض الكلمات تصدر من هنا وهناك، إلا أنها لم تستطع جمع هذه الكلمات لكي تفهم مغزاها.

- هذه الأمور مفتعلة!. أقسم بذلك، ولا بد أن يكون لصاحب اللحية البرونزية إصبعاً في ما يحدث!. لقد أقسم هذا الرجل على الانتقام وقال لأبيك "إن ابنتك سوف تكون أداة لانتقامي، وأن عينيك لن تكونا كافيتين لذرف الدموع التي سأجعلك تذرفها". هل نسيتِ هذا؟ إذا كنت قد نسيته فأنا لم أنسه. إنهم يسعون للنيل منك. انتبهي يا ابنتي واحذري من كلافينوس السافل وإلا فعليك أن تتحملي ما سيحل بك!. إن ابتساماتك تعد دليلاً كافياً على أنك حنثت بيمين راهبات فستا وهذا هو ما يمكن أن يعرضك للوأد وأنت على قيد الحياة!. انهم سيضعونك في القبر ثم يهيلون

عليك التراب. وهذا النوع من الموت مريع جداً. ربما تعتقدين أن الإمبراطور قد منحك مكانة مميزة عن باقي راهبات فستا!. ولكن الإمبراطور الآن بعيد من هنا. إنه في كابري، ويقولون إنه لم يعد يعي شيئاً فهو في حالة سكر دائمة، من الشفق وحتى العشاء، لذا فلن تتحرك إصبعه الصغيرة من أجلك.

بعد ذلك سكتت المربية فجأة. فسألتها فانينا باستغراب:

- ماذا بك؟

همست همونيا:

- انظري إلى الأمام إلى درج معبد فينوس!.

نظرت فانينا إلى المكان الذي أشارت إليه المربية فامتقع لونها. فقد لفت نظرها وجود شبح لا يشبه أحداً، كان يقف على بعد خمسين قدماً منها وعلى آخر درجة من درجات المعبد المزخرف، الذي بدا كما لو أنه وردة. كان هذا الشبح يمثل بزملاء فيدكس الذين تعرضوا للاغتيال. بدا هذا الشبح بطوله كأنه يخص إنساناً لا يزيد عمره عن أربعة عشر عاماً. أما عرضه فكان مترين وهو يشبه عرض عملاق ضخم، يلبس قفطاناً مقفلاً من النوع الذي يلبسه الفقراء والعبيد في أيام البرد القاسية، وهو من قطعة واحدة من الجلد وله فتحة وحيدة في منتصفه، لونه بلون الصدأ، ويُلبس من الرأس.

مثل هذا القفطان يصل طوله حتى الركبة إذا كان طول من يلبسه معتدلاً، أما مع هذا القزم، فقد تدلى القفطان حتى ستر قدميه المعوجتين. وقد وضع على رأسه بإحكام طاقية مدببة. أكثر ما لفت نظر فانينا في هذا الشبح العجيب هو يداه!. وكيف يمكن أن تكون مثل هذه الأيدي الضخمة لمثل هذا الإنسان القبيح! يداه كحليتان، مكسوتان بشبكة من الأوردة النافرة، وبالعضلات أيضاً. كانتا تتدليان على جانبيه كالأموات وقد تطاولتا حتى كادتا تلامسان حذاءه الغليظ. وتبدو ملامح الغدر جلية على هذا المخلوق الوحشي. صعدت فانينا درج المعبد باتجاه هذا المخلوق الذي تعمد الوقوف في هذا المكان المميز لكي يلفت نظر الراهبة الشابة، أفسح لها الناس الطريق لكي تمر وهم يرمقونها بنظراتهم، ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها.

لم يتوار القزم عن الأنظار بل تسمر في مكانه لكي تراه الراهبة. ثم التفت نحوها وبدأ يمعن النظر بها، ولكنه لم يستطع أن يتبين علامات الرعب التي ارتسمت على وجهها، وقد منعه من ذلك طاقيته الضيقة المتدلية على وجهه. وأما الراهبة الشابة فقد بذلت قصارى جهدها لكي تسيطر على الخوف الذي دب في أوصالها، على الرغم من الدروس الكثيرة التي تلقتها على مدى السنين الماضية حول السحرة الدجالين وأعمالهم المخيفة، إلا أن ما شاهدته الآن بأم عينها يفوق كل ما تعلمته من قبل. لقد شكل هذا الكابوس المزعج وبطله سبباً آخر لكي تسيطر الأحزان من جديد على حياتها.

كانت فانينا تقترب منه أكثر كلما دارت عجلات العربة أكثر، لكنها لم تعد تتذكر أي كلمة من مفردات اللعنات وأدعية الغضب التي تعلمتها، لقد تملكها الاشمئزاز من هذا القزم، لأنه رفع يده على فيندكس، وكم تمنت لو تستطيع أن تقطعه إرباً إرباً وتمحوه من الوجود، وتجعله طعاماً للديدان، ثم ليذهب بعد ذلك إلى الجحيم. ولكنها كانت قد نسيت الدعاء اللازم.

ها قد أصبحت قريبة من القزم ولم يبق بينهما سوى بضع خطوات، وفجأة تسمرت في مكانها وأحست أن جسمها بدأ يتثاقل حتى أصبح كالرصاص. لقد خشيت النظر إليه.



وعندما اقتربت العربة منه، نزل هذا الرجل المجهول درجات المعبد ببطء وبدأ يسير كالإوزة العرجاء ثم اندس وسط الجماهير.

وبعد قليل من وصول فانينا إلى بيت الراهبات شاهدت هذا الرجل المجهول مرة أخرى. وهذه المرة كان يجلس على درج تمثال جوبيتر فوق هضبة بالاتين، وهو ينظر إلى الفتاة الشابة من خلال طاقيته المظلمة التي غطت وجهه.

الفصل السادس

■ لا تنظري إلي بمثل هذه البراءة فهذا لن يفيدك أبداً لأنني أعرف كل شيء!.

كانت فانينا قد اضطربت كثيراً عندما شاهدت القزم الذي كان يستر جسمه بقفطان أحمر، فهرعت مسرعة إلى غرفة فبيديا رئيسة الراهبات، التي كانت بانتظارها، والتي وقفت مكتوفة اليدين، مقطبة الحاجبين.

- نعم إنني اعرف كل شيء ولديَّ تقرير مفصل عما جرى اليوم بعد الظهر!.

لقد أُعد هذا التقرير من قبل الخدم الذين كانوا برفقتك، وأستطيع أن أؤكد لك أن هذا التقرير سوف يعرض على مجلس الرهبان!.

كانت فانينا لازالت تحت تأثير هذه الأمور الغريبة والمحيِّرة التي حدثت معها هذا اليوم. لذلك لم تفهم شيئاً من كلام رئيسة الراهبات، التي أخذت تتكلم بحدَّة، وتغدو وتروح كالنمر الهائج.

نفد صبر فبيديا فصرخت غاضبة:

- لماذا تقفين هكذا؟ تكلمي. قولي شيئاً. ألا تعلمين أن تصرفاتك تشبه تصرفات بائعات الهوى في حي سبور؟ نحن لم نسمع أبداً ومنذ أن تأسست طريقتنا هذه أن راهبةً من فستا قد عرضت نفسها لمثل هذه السخرية. هل كان يجب أن يحدث هذا معك وأنت التي بذلت من أجلها كل جهد لكي تنضج؟ سيموت الإمبراطور غيظاً

إذا علم بالأمر، وسيكون محقاً بذلك. لماذا لا تجيبين؟ ألا تعرفين ما قمت به من أجلك؟

رفعت فانينا رأسها ببطء شديد ونظرت إلى فبيديا وقالت بهدوء:

- هل انتهيت ؟

كانت فانينا لما تزل تستعيد في خيالها الأحداث التي مرَّت هذا اليوم، وهي لا تزال تحت تأثير نظرات فيندكس اللازوردية حتى هذه اللحظة. وكأن هذا الشاب ما يزال يقف أمامها. كانت تتذكر، وبوضوح، كل تفاصيل وجهه. ورغم أن الفتاة الشابة كانت تستغرب ما حدث لها، إلا أنها كانت متأكدة أنها لم تقترف وزراً ولم تغضب الآلهة. لذلك لم تحاول أن تبعد صورة هذا الشاب عن مخيلتها.

انتصبت بقامتها وقالت وعيناها تلمعان:

- ماذا لو قلت لك أننيلست نادمة على ما فعلته؟

هكذا تكلمت وكأنها تتحدى رئيسة الراهبات، وهي تنتظر أن تتصرف معها كما تصرفت مع نموشيا فتأخذها إلى القبو وتنهال عليها جلداً بالسياط.

لم تكن خائفة فهذا الشاب قد ملأ قلبها بالسعادة والفرح بدلاً من الحزن والآلام مع أنها لم تشاهده سوى مرة واحدة وقد لا يتاح لها أن تشاهده مرة أخرى. وها هي الآن تستعيد حسن تحكمها بعواطفها الذي أدهش همونيا!.

توترت فبيديا ودهشت من تصرف فانينا وقالت بصوت مرتعش:

- أكاد لا أفهمك أبداً. فقبل قليل كان يبدو عليك أنك فتاة لطيفة منكسرة عاجزة. أما الآن فأنت واحدة أخرى تحاول أن تدافع بعناد عن ذنبٍ اقترفته!. لم أكن أتوقع ما رأيت، كأنني أمام فتاة غريبة!.

لم تعد فانينا تحتمل وأرادت أن توقف سيل الكلام الذي كان يتدفق من فم رئيسة الراهبات، فقامت بحركة من يدها وكأن صبرها قد نفد.

بعد ذلك سارت فبيديا نحو نافذة الغرفة واستندت إلى الإطار البرونزي الذي يحيط بزجاج غير شفاف وقالت بصوت عال وكأن بها مسٌّ من الجنون.

- رغم أنني لا أملك تجاربَ في مثل هذه المواضيع، إلا أنني أفهمك جيداً. فهذا الإحساس اسمه خارج هذا البيت "عشق" ورغم أنه إحساس نبيل ويسكر الإنسان من السعادة، إلا أن هذا الإحساس محرمٌ عليك يا عزيزتي، وإلا فإنك تحفرين قبرك بيدك. وأنت تدركين أنك حنثت باليمين الذي أقسمته وهذا يعد ذنباً، ولذلك لم تعودي لائقة للمكانة التي رسمتها لك، وعليك أن لا تنسي ما حصل للراهبة مينوشا التي دُفنت حيةً.

وضعت فانينا يدها على فمها وسكتت. ورغم أن فبيديا كانت تتفهم حقيقة إحساسها النظيف نحو فيندكس، إلا أنها أرادت تذكيرها بالعواقب الوخيمة التي تنتظر راهبات فستا إذا ما حنثن باليمين.

ها هي فبيديا التي أحبتها فانينا كثيراً وأعجبت بها والتي عودتها الاعتماد عليها تتجرأ الآن وتشبهها بـ نموشيا!. لم تحتمل فانينا هذا الظلم فأرادت أن تزعج فبيديا فأمطرتها بوابل من الكلمات التي ندمت عليها فيما بعد:

- حتى لو كانت نموشيا مذنبة فلم يكن قتلها لازماً. لأن نموشيا لم تصبح راهبة في فستا بإرادتها. ثم ماذا عني أنا. هل كنت أرغب في أن أكون إحدى راهبات فستا؟ وماذا جناه الإمبراطور من كل الجهد والدهاء الذي بذله لكي أصبح راهبة في فستا وأنا لا أعلم أي شيء عن هذه الوظيفة!. إن الشيء الوحيد الذي استفاده هو أنه حرمني من التعرف على الحياة السعيدة الأخرى والتي هي أجمل من الحياة التي حضرتموها أنتم لي!. فلو لم أكن في هذه الوظيفة المقدسة، ولو كنت أعيش مثل باقي الفتيات وأحسست بميل نحو أحد الشباب، هل كنت سأتعرض لخطر الموت؟

اصفرّ وجه فبيديا حتى صار كالشمع، فقالت وهي تتأمل في وجه الفتاة:

- ما تتحدثين عنه يا فانينا ليس خطراً فحسب، إنه موت محقق ياعزيزتي، إنه موت ولا تستطيعين أن تتصوري العذاب الذي سوف تتعرضين له قبل الموت.

فهمست فانينا والوجد يكابدها :

- حتى لو حكموا علي بالموت فسوف أموت سعيدة !.

وهنا هبت فبيديا كالعاصفة وصرخت بجنون :

- أنا لا أريدك أن تموتي !.

وبقوة لا تقاوم سحبت فانينا وأجبرتها على الجلوس فوق السرير إلى جانبها. وبدأت تتحدث مع الراهبة الشابة وهي في حالة تدعو إلى الشفقة :

- ألا تعلمين أنني محرومة من الأولاد والبنات؟ أنت ابنتي، وليس لي سواك في هذه الدنيا.

ثم وضعت يدها فوق كتف الفتاة، وداعبتها وتابعت حديثها :

- هل فكرت لمرة واحدة لماذا لم أستعمل أنا حقي في هذه الدنيا، ولماذا لم أترك هذا البيت منذ سبع سنوات؟

هزت فانينا رأسها وكأنها تقول لها : لا ، بينما الدموع تنهمر من عينيها.

فشرحت لها فبيديا :

- لأنني رغبت أن أبقى إلى جانبك يا عزيزتي رغم أنني كنت في عمرٍ يمكنني من أن أكون أماً لفتاة من دمي ولحمي، ولكنني كنت على يقين أن أي فتاة لن تكون مثلك، ولن تكون هناك فتاة أخرى تستطيع أن تمنحني طعم السعادة كما منحته أنت لي. لذلك ضحيت بكل شيء واكتفيت بك يا وحيدتي ، فأنا أجد فيك نفسي وأرى فيك الفتاة التي اختارتها الآلهة لكي تقوم بوظيفة من لم تمسسه يدٌ مثلي ولكي تخلص المدينة في ساعة الشدة !.

نهضت فانينا فجأة وأحست بدمعة تسقط على يدها. كانت هذه الدموع قد فاضت من عيني فبيديا التي يلقبها الناس بالعديمة الإحساس وأنها من جليد أو كتمثال فينوس.

وبعد أن وقفت الشابةعلى قدميها ، قالت :

- أنا لا أريدك أن تبكي من أجلي.

لم تحتمل فانينا !. فقد كانت تنتظر أن ترى هذه السيدة أقوى مما شاهدتها الآن. ها هو القناع قد سقط عن وجهها وها هي آثار الشيخوخة والتعب بدأت تظهر عليها أيضاً.

وبابتسامة متعبة أخذت فبيديا منديلاً من تحت معطفها ومسحت عينيها وأنفها ثم قالت لفانينا :

- يبدو أنني خيبت أملك.

أجهشت فانينا بالبكاء وجثت على ركبتيها وأسندت رأسها إلى يد رئيسة الراهبات التي امتدت نحوها.

صرخت فبيديا بصوت قوي :

ـ توقفي عن ذرف الدموع التي لا لزوم لها ، فليس لدينا وقت لكي نضيعه. اسمعيني جيداً فأنا أريد أن أسألك بعض الأسئلة ، وآمل أن تجيبيني عليها بصدق : فانينا ، أريد أن أعرف ، هل هي المرة الأولى التي تشاهدين فيها هذا الشاب ؟

فأجابت الفتاة الشابة :

ـ نعم إنها المرة الأولى التي رأيته فيها !.

ـ إذن أنت لا تعرفين اسمه؟

ـ إسمه فيندكس !.

تسمرت يد فبيديا التي كانت تعبث بشعر فانينا وسألت باستغراب :

- سوكيف عرفت اسمه؟

فاعترفت فانينا بكل صراحة :

- كنت قد أرسلت همونيا لكي تجمع لي بعض الأخبار عنه.

لفَّ الجو بعض الصمت ورغبت فانينا في أن تحدَّ من غضب فبيديا. وبذلت قصارى جهدها من أجل ذلك. وأخيراً قالت رئيسة الراهبات:

- أرأيت كيف أن تصرفاتك لا تتسم بالحيطة والحذر يا ابنتي؟ كان يجب على همونيا أن لا تنصاع لأوامرك، خاصة وأنها سيدة ذات تجربة، إن حساب هذه الخاطبة عندي!.

- ما معنى كلمة خاطبة؟

هزت رئيسة الراهبات كتفيها وتابعت كلامها:

ـ جميع الأصدقاء بمن فيهم الإمبراطور يعرفون مدى الجهد الذي بذلناه من أجلك لكي تصبحي امرأة عالمة، في الوقت الذي أهملنا فيه باقي الفتيات الأخريات من أقرانك واللواتي تعلمن بدون أساتذة!.

اعترضت فانينا وقالت:

ـ أليس من الواجب الاهتمام بإنسان سقط على الأرض سواء أكان رجلاً أم امرأة؟ لقد خشيت كثيراً على الفتى من هذا القزم الذي كان يرتدي قفطاناً أحمر، من أن يهجم عليه ويقتله.

عندها وضعت فبيديا إصبعها على فم الفتاة الشابة ونظرت في وجهها بعد أن رفعت حاجبيها وسألتها:

ـ عن أي قزم تتحدثين؟

ـ هذا الرجل العجيب الذي أوقع فيندكس على الأرض. رجلٌ قصير القامة وعريضٌ أكثر من اللازم، كأنه وحش، يداه طويلتان جداً وتكادان تلامسان الأرض، لقد كان يتبعني أينما ذهبت، وقد رأيته يصعد درج معبد جوبيتر عندما التفت إلى بوبيليا!.

- هل استطعت أن تشاهدي وجهه؟

ـ كانت الطاقية التي وضعها على رأسه ضيقة جداً لدرجة أنني لم أتمكن حتى من رؤية رأس أنفه.

عضت رئيسة الراهبات على شفتها وبدأت تفكر، بينما أخذت فانينا تفكر بالسؤال الثاني الذي يمكن أن تطرحه عليها. لكن الأسئلة انتهت على ما يبدو، فأمسكت فبيديا الفتاة الشابة من كتفها وأرغمتها على الجلوس إلى جانبها ثم أخذت تكلمها بمنتهى الجدية:

- فانينا، لعلك نسيت أن لديك كثيراً من الأعداء، الذين لوثوا سمعة روما بأفعالهم الدنيئة التي يفتخرون بها. هؤلاء الأعداء هم الذين فضحهم والدك، وهم أعداؤك أيضاً. إنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً مع والدك، لذلك فهم سيحاولون أن يستغلوا نقاط ضعفك لكي ينهالوا بسهامهم عليك، وإن أسوأهم هو الذي أقسم يميناً قبل عشر سنوات أمام والدك أن يجعلك أداة لانتقامه. أنت تعرفينه. إنه دومتيوس ذو اللحية البرونزية!.

كانت الفتاة الشابة قد غيبت صاحب اللحية البرونزية من ذاكرتها ووضعته في أظلم نقطة. فهذا الرجل المقرف سبب لها الكوابيس على مدى أشهر. لقد كانت تتصبب عرقاً بارداً كلما تذكرته، لكن الجو الحميم الذي كانت تعيشه بين أصدقائها في دير فستا جعلها تمحو ذا اللحية البرونزية هذا من ذاكرتها، لكن ذكر هذا السيد مرتين خلال ساعة واحدة، مرة عندما ذكرته همونيا والثانية فبيديا، أعاده إلى ذاكرتها من جديد.

أسندت فانينا رأسها بيديها وغرقت بالتفكير، ورأت أن الحاجز الذي يفصل بين حقيقة حمايتها من تأثيرات الحياة، وبين خدمة فستا، أو بالأحرى أن تكون لائقة بخدمة فستا قد بدأ ينهار أخيراً. لقد قطعوا كل الروابط التي تربطها بهذه الدنيا، فلم تعد تعرف أحداً من تلك الكتل البشرية التي كانت تلتقيها عندما كانت تسير في شوارع روما، كما انها لا تعرف شيئاً لاعن المشاكل التي سيتعرض لها الإمبراطور،

ولا عن الصراع الدائر بين والدها، وهؤلاء اللصوص الذين لوثوا سمعة المدينة، ولكنها لم تكن محرومة من رؤية والديها مرة في الإسبوع ومن السعادة التي كانت تغمرها عندما كانا يأخذانها في حضنيهما، ورغم أنهما كانا يتحدثان معها كثيراً لكنهما لم يكونا يتكلمان شيئاً عن الصراع الدائر بين والدها وبين هؤلا ء الأشرار. كانا حريصين على تصنّع الابتسامة في أثناء حديثهما وكأن على وجهيهما أقنعة!. ومع أنها أمضت عشر سنوات في تعلم العلوم المختلفة ورغم أنها تعد عالمة بالنسبة لهذه العلوم، إلاّ أنها تعد جاهلة بالنسبة للأمور الأخرى.

أقبل الليل فنهضت فبيديا من مكانها، وأوقدت مصباح القنديل الصغير الذي يترك عادة متقداً طوال الليل والنهار ثم تابعت حديثها:

- في اليوم الذي ارتديتِ فيه هذا الزي، نقل الإمبراطور الرجل ذا اللحية البرونزية إلى غالة لكي لا يمسك بأي أذى، ولكن بعد ذلك حدثت بعض الأمور التي يطول شرحها الآن فساعدته على زواج أغربين الصغير من إبنة حفيد الإمبراطور أوغست فأصبح قريباً للإمبراطور وأصبح باستطاعته الدخول إلى منزل الإمبراطور!.

شدَّ هذا الكلام انتباه فانينا فقالت:

- الأمر مختلف إذن!. معنى ذلك أن العرش يمكن أن يكون في أحد الأيام من نصيب أحد أولاد أغربين ، وعندها سوف يأتي دومتيوس ذو اللحية البرونزية إلى روما بصفته والد الإمبراطور!.

فقالت لها فبيديا:

- ها أنت قد بدأت تفهمين!. لذلك فإن الإمبراطور يرغب في حمايتك لأنك غالية عليه، ولكنه مضطر أيضاً لمجاملة ذي اللحية البرونزية الذي ظهر في واجهة الأحداث والذي أصبح مصدر تهديد بالنسبة لك!.

عندما وصلت فبيديا إلى هذه النقطة، ابتسمت إبتسامة غريبة وأكملت حديثها:

- إن صاحب اللحية البرونزية ليس خطراً عليك فحسب، بل يمكن أن يكون خطراً عليَّ أيضاً، خاصة وأننا نعيش معاً، وإذا لم أخطئ الظن فإنني أعتقد أننيسأدخل معه ومن أجلك في صراع مرير عما قريب، وأعتقد أن ذلك سيكون صعباً للغاية!.

سألت فانينا باستغراب:

- لماذا؟

- ما حدث اليوم يجب أن يُنسى. ولكن كيف، وكلافينوس اللعين هو رئيس مجلس الرهبان!.

اعترضت فانينا:

- إنه ليس رئيس مجلس الرهبان، بل الإمبراطور!.

هزت رئيسة الراهبات رأسها:

- كلا مع الأسف. إن كلافينوس يمثل تيبر بهذه الوظيفة منذ أن غادر الإمبراطور روما، وكلافينوس هو قريب ذي اللحية البرونزية!.

فسألتها فانينا:

- ماذا قلت؟ ماذا قلت؟

استمرت فبيديا في الحديث:

- لقد كنا نخفي عنك دوماً هذه الحقيقة لكي لا تصابي بالقرف.

في هذه الأثناء طرق أحدهم الباب ودخلت آنيا وقالت:

- أيتها العذراء المقدسة، إن كلافينوس هنا وهو يريد مقابلتك.

اصفر وجه فانينا ورئيسة الراهبات وتمتمت رئيسة الراهبات وهي خارجة:

- لير اني. ولنر ماذا يريد؟



كان كلافينوس يزداد قبحاً كلما تقدم به السن، فوجهه نالت منه التجاعيد حتى أصبح مثل وجه عجوز هندي، وانثنت ذقنة حتى كادت تلامس أنفه، وأصبح جلده الوردي المتشقق أشبه بقاع بحيرة جافة، وكأن شرارة الحياة الأخيرة التي كان يحتفظ بها أوشكت أن تخبو. ومع أن عمره قارب المئة إلاّ أنه بدا أكثر من ذلك نظراً لأعمال الغدر والدناءه التي مارسها منذ ولادته!.

دفعت فبيديا فانينا أمامها وخرجت إلى الصالة المشتركة للراهبات. كان العجوز المقرف يجلس إلى جانب النافذة فوق كنبة على جانبيها مشعلان، وقد وضع بينه وبين ظهر الكنبة عدة وسادات لكي يسند ظهره.

فقالت له رئيسة الراهبات:

- هل أنت بخير يا كلافينوس المحترم؟

فأجاب العجوز بصوت يشبه الزقزقة:

- وهل أنت بخير يا فبيديا؟ ثم أكمل حديثه هازئاً وبدون أن يأخذ نفساً:

- سبب مجيئي إلى هنا....

أشارت فبيديا بأصبع السبابة نحو الرجل العجوز وهزت بها، بعد أن ضغطت على ذراع الفتاة وخاطبته وكأنه متهم، وكأنها لم تسمع الجملة الأخيرة التي نطقها.

- إسمح لي يا كلافينوس المحترم أن أعبر لك عن امتعاض جميع الراهبات، كنت أهيء نفسي الآن لكي أذهب إلى ريغيا (المجلس) لكي أتحدث عن هذا الموضوع!.

استغل الراهب كلام رئيسة الراهبات وقال لها قبل أن تنهي كلامها:

- وأنا أيضاً جئت إلى هنا من أجل هذا السبب، وما أردت قوله...

فقاطعته فبيديا:

- إن ما أريد قوله لك يا كلافينوس المحترم: لم يعد من الممكن قبول هذه الحماية المتواضعة لراهبات فستا، لقد أصبحن عرضة للكلام البذيء الذي يتفوه به بعض الرجال غير المهذبين، لذلك لن يستطعن بعد الآن الخروج إلى الشارع!.

تلعثم كلافينوس وقال:

- حسناً ولكن. حسناً ولكن...

كان العجوز يرفع رأسه ويفتح فمه لكي يلتقط أنفاسه بين الحين والآخر، لكن فبيديا لم تترك له مجالاً للكلام، بعد ذلك رفعت رئيسة الراهبات عقيرة صوتها كالمداحين الذين يحيون الحفلات وتكلمت مع هذا العجوز الشيطان الذي يشع من عينيه الغدر والخيانة، والذي كان جسمه قد أصبح مثل هيكل عظمي يكسوه الجلد، وكان يرتعش بشدة، وبدا مظهره مدعاة للسخرية.

لم تكن فبيديا تتوقف عن الكلام، في حين أن فانينا كانت تنتظر بفارغ الصبر لترى ردة فعل هذا العجوز ولم تكن تنتبه جيداً لكلام رئيسة الراهبات، لكنها انتبهت فجأة عندما سمعت رئيسة الراهبات تقول:

- لقد اعترض أحد الشباب موكب فانينا وهي ذاهبة إلى نبع كامن، ووقف أمامها في منتصف الطريق وتصرف بشكل بذيءْ، وقد أجمع كل سكان روما على معاقبته.

خشيت فانينا أن تأتي فبيديا على ذكر إسم فيندكس. وعندما حاول العجوز أن يرد عليها واجهته أزمة اختناق وبقي منكمشاً على الكنبة وعيناه شاخصتان، فهرعت الراهبات نحو العجوز وهن خائفات أن يلفظ أنفاسه داخل الدير، أما فبيديا التي كان جسمها قد انتفض من وجود هذا العجوز، فقد تظاهرت بالشفقة وحاولت أن تساعده على الجلوس ثم مدت يدها بكوب ماء وقالت له وهي تبتسم:

- اشرب يا كلافينوس المحترم. اشرب.

ثم أضافت:

- أرجو أن تعذرنا لأننا لم نستطع أن نقدم لك سوى الماء، فأنت تعرف أن النبيذ ممنوع هنا. ثم أكملت كلامها وهي تقول له: على مهلك. على مهلك.

كانت شفتاه تتدليان داخل الكوب. كان يرشف رشفات صغيرة، ثم يلتقط أنفاسه كالدجاج. استعاد نشاطه بعض الشيء لكن فبيديا لم تُضِعْ الفرصة فتابعت هجومها:

- قبل أن يخبروني بنبأ زيارتك هذه، كانت فانينا تقول لي: إذا لم يقوموا بدعم القافلة، فإنها لن تذهب مرة ثانية إلى نبع كامن!.

أومأت فانينا برأسها موافقة، خاصة بعد أن رأت أن الناس يتناولونها بألسنتهم. استمرت رئيسة الراهبات بالتحدث بطريقة مليئة بالتهديد وهي تهز السبابة باتجاهه:

- أنا لا أحب هذا النمط من الأحاديث يا كلافينوس فلا يحق لأي راهبة أن تقول أريد هذا ولا أريد ذاك. إن الراهبة ملزمة بتنفيذ الأوامر التي تعطى لها، لذا أرجو أن تقوم بتوبيخ فانينا بشكل جيد!.

- حسناً ولكن. حسناً ولكن...

لمعت عينا رئيسة الراهبات وأردفت قائلة:

- لقد فهمت. إنك تريد أن تعرف إسم الشاب الذي أثار حفيظة فانينا أليس كذلك؟

تسمرت فانينا في مكانها ونظرت إلى فبيديا وكأنها تتوسل لها لكي لا تذكر إسم فيندكس فهي على استعداد لارتكاب أي حماقة من أجل أن لا يمسَّ فيندكس بأي أذى!.

لكن رئيسة الراهبات تنفست ثم قالت:

- ليس بوسعي أن أعطيك إسمه إذ أنه على الرغم من أن فانينا قد أرسلت خادمتها لمعرفة اسمه إلا أنها لم تتمكن، لأن هذه السيدة المجنونة لم تستطع الحصول على هذه المعلومات الدقيقة، وآمل أن تكون أنت أوفر حظاً في هذا المجال!.

تنفست فانينا الصعداء بعدما سمعت ما قالته فبيديا، لأنه أوقف سيل الاتهامات التي كان قد حضرها هذا الراهب العجوز، والآن ليتكلم ما يشاء!.

وبينما كان كلافينوس يشرب جرعة الماء بصعوبة، تظاهرت رئيسة الراهبات بالاستغراب وقالت له:

- لم أسألك حتى الآن عن سبب زيارتك لنا في هذا اليوم. أرجو أن تعذرني ياكلافينوس المحترم. أنا أسمعك.

فأجابها العجوز وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما:

- لقد جئت لكي أتفقد وثائق الدير يا عزيزتي فبيديا، فقد علمت أنها تعرضت للتلف بعض الشيء!.

كان كلافينوس يتلفت يمينا وشمالاً وهو يتكلم، وكانت نظرات الغدر تبدو في عينيه وهو يمعن النظر في الراهبتين، وبعد أن نظف منخريه قال:

- كم أرغب في أن أتمم ملفات راهبات فستا اللواتي دُفِنَّ أحياء!.

ارتجفت فانينا رعباً. أما الراهب فقد تجهَّم وجهه ثم التفت إليها وبدأ صوته يلعلع بسرور مشوب بالغدر والشماتة وقال لها:

- منذ فترة طويلة لم يحل على مدينتنا مثل هذه الكارثة يا فانينا الصغيرة!. كنت آمل أن تكوني أكثر تعقلاً وهدوءاً من الراهبات اللواتي سبقنك. لأنه إذا حدث وحنثت إحداكن بأيمانها فعليها أن تعرف منذ الآن الأصول التي سوف تُتبع في حقها.



دفعت فانينا باب الغرفة بعد أن شعرت أن رأسها قد أصبح كالرصاص وأن يداً كالجليد تضغط على صدرها.

كانت الغرفة مظلمة، وكان هناك قنديل صغير تنبعث منه شعلة صفراء خافتة في الزاوية القريبة من النافذة، ولم تكن فانينا تسمع سوى وقع أقدام الخدم الذين كانوا

يحملون مركبة كلافينوس وهم ينزلون على الدرج، وكلام فبيديا المخصص للمراسيم وهي تودع الراهب العجوز حتى أوصلته إلى قسم الخدم.

أين همونيا؟ لقد شعرت سيدتها أنها بحاجة إليها الآن أكثر من أي وقت مضى. ولماذا لم تكن موجودة في الغرفة؟

توقفت فانينا وهدأت في مكانها ولم يعد لديها أي طاقة، فقد اختلطت تلك اللوحات التي شاهدتها، والكلمات التي سمعتها هذا اليوم المتعب ببعضها البعض وهي تضغط على أعصابها وتطن في رأسها!.

كانت نموشيا قد قالت لها:

- سوف تكونين سعيدة هنا حتى سن الرابعة عشرة، ولكن ما أن ينظر إليك أحد الرجال على أنك لست فتاة صغيرة حتى تشعرين بعبء هذا الزي الذي ترتدينه.

وها هي فانينا قد أصبحت الآن في السادسة عشرة، وها هو قلبها ما يزال يخفق منذ أن شاهدت الشاب قبل قليل. هذا القلب الذي أصبح يخفق بهيجان لم تكن تعهده من قبل. وعلى الرغم من تحذيرات همونيا، ودموع فبيديا وتلميحات كلافينوس القذرة وعلى الرغم من الجواسيس المزروعين حولها، فهي لا زالت تعيش تلك اللحظة السعيدة!.

تقدمت فانينا بتردد بضع خطوات، وحاولت أن توقد مصباحاً من شعلة القنديل، لكنها ألقت به على الأرض بقرف!.

راحت فانينا تفكر بما سمعته من حديث وهي تكلم نفسها:

- جُنَّ جنونهم، وضخموا الأمر كثيراً. فهل يعقل أن يقوموا بمحاكمة إحدى مريدات فبيديا؟ هذه المريدة التي تعتبر السليلة الأخيرة لأشرف عائلات روما. ولماذا؟ لأن شاباً جميلاً، قد نظر إليها بإعجاب! وهل يتطلب ذلك محاكمتها بتهمة الإخلال بالشرف؟ إذا كان الأمر كذلك فهي لا ترغب بتلك الحياة السعيدة التي وعدوها بها. ربما أن الشاب لا يزال يتذكرها، وربما أنه لا يجد أن ذلك القزم الذي كان يرتدي

قفطاناً أحمر مسؤولٌ عما حصل، وبينما كانت تفكر بهذا النمط شعرت بخجل من الحديث الناري ومن الدفاع المستميت الذي قامت به رئيسة الراهبات، وفكّرت، كم أن فبيديا التي تنازلت واستمعت إليها ذات أخلاق عالية جداً، وأكثر مما تصورت، لكن ما أضعف موقفها هو قناع الأمومة الذي تظاهرت به.

وبحركة لا شعوريه فتحت الفتاة الشابة النافذة، وأطلقت صرخة مخنوقة. فجأة انتصب أمامها شبح. شبح رجل كان يقف فوق إطار النافذة الضيق وعلى ارتفاع ثلاثين متراً من أرض الباحة ذات الحجارة السوداء.

ذعرت فانينا مما رأته ورجعت إلى الخلف حتى التصقت بالجدار المقابل للنافذة وفمها مفتوح وهي تنظر إلى الشبح باستغراب!.

بحركة رشيقة قفز هذا الرجل من فوق إطار النافذة إلى الداخل!. لقد أصبح الآن داخل الغرفة. هذا كابوس!. لا يمكن أن يكون حقيقة أبداً. إذ لم يسبق من قبل أن دخل رجل بيت راهبات فستا، ما عدا كلافينوس، رئيس الرهبان ، وطبيب الراهبات. ولايمكن لأكثر اللصوص جرأة أن يفكر بمثل هذه الحماقة التي تعد ضرباً من الجنون بل جرماً عظيماً. فهل هذا الرجل مجنون أم أنه الرجل القزم؟. لكن لا. وعلى الرغم من أن الغرفة كانت مظلمة بعض الشيء إلا أن العين كانت تستطيع أن تميز طول هذا الرجل وهيافته.

قد يكون أحد جواسيس كلافينوس، أو ذي اللحية البرونزية الذين تحدثت عنهم همونيا.

ماالذي كانت تنتظره الآلهة لكي تهب لنجدة فانينا التي تسمرت من خوفها على الجدار؟ أرادت أن تصرخ لكي يهب أحدهم لنجدتها لكن صوتها اختنق في حلقها ولم تتمكن من الصراخ.

عندها تكلم الرجل:

- اعذريني يا ملاكي على مجيئي إلى حصنكم هذا فجأة وبلا استئذان!. لا يسعني السرور وأنا أراك لوحدك، مستفيداً من غياب تلك العجوز التي تحافظ جيداً على سيدتها!.

بعد ذلك مد يده ببطء نحو القنديل الذي سقط على الأرض والتقطه، ثم أكمل حديثه. كنت أريد أن أحاسب تلك العجوز. ولكن لا بأس، سأقوم بهذا في وقت آخر!.

حبست فانينا أنفاسها وهي تنظر إلى وجه هذا الرجل وحاولت أن تتأكد من ملامحه من خلال نور القنديل الخافت الذي كان قد اقترب منه ثم همست بصوت لا يكاد يسمع:

- فيندكس!.



القسم السابع

دنا فيندكس من فانينا وعلى شفتيه ابتسامة حائرة، ولكنه كان يتحرك بمنتهى الجرأة، ونظراته فيها شيء من الاستخفاف، وكأنه لا يعلم شيئاً عن الحالة الخطيرة التي عاشتها هذه الراهبة الشابة لتوها، وما تزال.

قال لها:

- إذن أنت تعرفين إسمي أيتها الأميرة الجميلة!

لم تكن حالة فانينا تسمح لها بالكلام، فاكتفت أن أومأت برأسها وكأنها تقول له نعم. لقد أصبح الشاب أمام فانينا وجهاً لوجه. رفع القنديل باتجاه وجه الراهبة وبدأ يتأمل وجهها من دون أن يتكلم، وهو يلهث. راح يتأمل وجهها على نحو ما فعل قبل ساعة وهي في طريق النصر.

بعد لأي، قال لها:

- إن جوبيتر يعلم أنك هكذا أجمل!. نعم أنت أجمل فتاة شاهدتها عيناي منذ أن أبصرتا هذه الدنيا!.

ثم بدأت يداه ترتعشان وصوته يخفت، وقد بذل جهداً كبيراً حتى تمكن من أن يعود إلى حالته الطبيعية فهدأ من هيجانه وتكلم بهدوء وقال لها:

- لست نادماً على ما ارتكبته من جنون وما قمت به من حركات خطرة، لقد كنت مجبراً على ذلك لكي أتمكن من الوصول إليك!.

انتفضت فانينا وعادت إلى نفسها فمدت رأس إصبعها نحو الشاب وبدأت تدفعه وهي تقول له بهمس:

- إذهب من فضلك، لأنك ستقتل إذا شُوهِدْتَ هنا!.

استغرب الشاب كلامها وأجابها:

- ولم أُقتل!؟ إن الوصول إلى هنا ليس بالأمر السهل، ليس كالدخول إلى أي حقل، فبعد أن رأيتك في الشارع عرفت أنني لست في حلم وقد جئت لكي أقطع الشك باليقين. لقد قاموا ببناء جدار حول بيتك هذا، ارتفاعه تسعة أمتار ليمنعوا وصول المعجبين إليك، ولم يكتفوا بذلك بل وضعوا فوجاً كاملاً من الحراس!.

كان الشاب قد قطب حاجبيه بعض الشيء وأكمل حديثه وهو يهرش في ذقنه:

- نعم أنت تحتاجين إلى عدد كبير من المرافقين كالرجل الذي سدد لي لكمة في ذقني هذا اليوم!.

فأجابته فانينا بدهشة:

- أنا لا أعرف ذلك الوحش، تمنيت لو أن صاعقة نزلت عليه.

- ماالذي تريدين قوله؟

ثم تابع كلامه وهو يركز نظره عليها.

- هل تريدين القول إن هذا الرجل لا يعمل بإمرتك؟

لم يعد بإمكان فيندكس السيطرة على أعصابه ولم يعد يتمكن من إيجاد كلمات يمكنها التعبير عن أفكاره جيداً فقال:

- هذا يعني أنك استنكرت ما فعله معي، ولم تغضبي مني، ولم تجدِي في ماقمت به تصرفاً أحمق؟ أم أنك لم تبالي بي؟

ما الذي كان يأمله هذا الشاب؟ ومااالذي يمكن أن ينتظره من إحدى راهبات فستا؟ الراهبة في فستا كالأموات تماماً، فلا يمكن لأحد أن يلمسها!. إنه لا يعلم أنه معرضّ الآن لخطر الموت.

يجب توضيح هذه الأمور!.

كانت فانينا صامتة ومثل عاصفة هوجاء راحت الأفكارتهب عليها وتحاول أن تقتلعها وتلقي بها بعيداً. لم تعد تعرف شيئاً، وهي راضية بأي خسارة يمكن أن تتعرض لها، ولكنها لا تريد لهذه العاصفة الهوجاء أن تلقي بها بين ذراعي هذا الشاب. كم كانت تود أن تتوقف حركة الزمن وتنسى هذه الصاعقة التي يمكن أن تهبط فوق رأسيهما.

كان فيندكس يتكلم، ويتكلم، بلا توقف وفانينا تستمع إليه، نشوى، وكل كلمة ينطق بها كانت تنحفر في ذاكرتها.

- البارحة كانت المرة الأولى التي أشاهدك فيها، عندما كنت أمر في ذلك الوقت مع والدي من الطريق الجديدة، رفعت رأسي فرأيتك تقفين عند النافذة وكنت قد حللت شعرك!. لم يغب عن ناظري أبداً شعرك هذا فقد كان يضيئ مخيلتي كأشعة الشمس تماماً، حتى كدت أصبح كالمجنون!. لقد كنت سبب جنوني؟ وكنت أفكر أن ما رأته عيناي يخص إحدى الإلهات وهو سراب خادع. إذ لا يمكن أن يكون لإنسان ما مثل هذا الشعر!. ورغم أنني أقف أمامك الآن إلا أن هذا التفكير لا زال يراودني .

ثم همس بعد ذلك عدت مرات وكأنه يكلم نفسه:

- فانينا. فانينا. فانينا.

كان من الواضح أن صدى هذا الاسم يتردد في أذنيه كلحن عذب جميل وأجمل من كل الألحان. ثم تابع حديثه :

- لقد رغبت في رؤيتك مرة أخرى. إنني أتمنى أن أمضي كل عمري معك. سأخطفك من هنا، وآخذك إلى غالة ، وهناك سنعيش في إحدى غاباتها الرائعة، في ركن هادئ، ركن لا يستطيع أن يصل إليه أحد كي يأخذك مني. سوف نبقى أنا وأنت لوحدنا فقط. سأظل أنظر إليك دوماً لكي أشبع ناظري. يجب أن نجد مثل هذا الركن!. الذي سيكون جنتنا!.

كانت ضوضاء المدينة تطرق مسامع الشابين. كما كانا يسمعان وقع أقدام تسير في الباحة، ثم سمع صفق باب.

لم تعد فانينا تقوى على الكلام فقالت هامسة :

- هذا محال . لا أستطيع أن أذهب معك.

- لكنك ترغبين بالذهاب أليس كذلك؟ إذا كنت ترغبين فليس هناك من قوة تستطيع منعي من إنقاذك والذهاب بعيداً عن هذا المكان، يكفي أن تقولي نعم، وسوف ترين ماذا سأفعل بعد ذلك؟

تدرك فانينا تماماً أنه يستحيل عليها الوصول إلى تلك الجنة وأن غابة الأحلام هذه محرمة عليها إلى الأبد!.

لم تكن الفتاة الشابة لترتوي من كلام هذا الشاب الذي أحبته، ولم يعد لديها أي شعور بالخوف، وبدأت تحلم معه وهو يحدثها عن الحياة السعيدة التي سيعيشانها سوية وينسيان كل ما يحيط بهما، ولكن، مع ذلك، كان الحذر والخوف يسيطران عليها ، ولم تكن تريد أن تقلل من المخاطر، أو أن تخدع هذا الشاب. وأما فيندكس فلم يكن يعلم أن فانينا أصبحت خادمة للآلهة، وجميع تحركاتها مراقبة من قبل الرهبان وخدم الإمبراطور!.

فقالت له بهدوء حزين :

- هذا غير ممكن. غير ممكن.

هزّ فيندكس رأسه وأجابها:

- لا تخافي أنا أعرف كل شيء عن راهبات فستا، وأعرف أنهم يسيطرون على عقولكن بمعتقدات بالية وباطلة لا تليق بكن، يدفعونكن للتضحية بالعواطف والعلاقات الإنسانية، بحجة أنكنّ ستنِرن هذه الكائنات. إن تصرفاتهم معكن هي الدّجل و البربرية بعينهما.

تكلم الشاب بحدة، ثم حرك يده وكأنه يريد أن يمسك الراهبة ذات الشعر الذهبي. لكن فانينا منعته من ذلك بصورة لا شعورية.

بعد قليل سمعا وقع أقدام تصعد الدرج، وبدا أن هناك شخصين يصعدان الدرج وهما على عجلة من أمرهما. فهمست فانينا:

- هناك أناس قادمون إلى هنا!.

ورداً على ما قالته الفتاة الشابة مد فيندكس يده التي تحمل القنديل باتجاه الفتاة، وسحب خنجره من غمده الذي كان في حزامه.

فقالت له فانينا وقد اضطربت لرؤية السلاح:

- هذا لا يجوز. اهرب أرجوك!.

- ليس لدي وقت لكي أصعد وأتسلق على إطار النافذة الذي كنت أقف عليه!.

راح وقع الأقدام يقترب شيئاً فشيئاً، ثم فُتِح باب صالة شقق الراهبات الخارجي ثم أُغلق. وسمعت فانينا صوت فيبديا الصارم والغاضب بدون أن تفهم ما تقول.

ابتسم فيندكس وهو يداعب رأس الخنجر المدبب بأصبعه ثم قال:

- لا تخافي ابداً. فأنا من يتحمل المسؤولية.

- أرجوك. لا تتكلم.

كانت فانينا تلتفت حولها وهي مضطربة فخطر في بالها فجأة شيء ما ، فقالت فجأة :

- الصندوق.

وأشارت إلى الشاب كي يختبئ في الصندوق الكبير المصنوع من خشب الأرز والذي تضع فيه ثيابها وقالت :

- هيا بسرعة.

فقال لها فيندكس مستهجناً :

- كلا. لا يمكن أن تطلبي ذلك مني !. أليس هذا منتهى الجبن بالنسبة لشاب مثلي !.

فناشدته فانينا :

- أرجوك. من أجلي !.

رضخ إرضاء لها ، ولكن ما إن تمدد داخل الصندوق حتى أغلقته بسرعة وجلست فوقه من شدة خوفها وقد انقطعت أنفاسها.

كان صوت فبيديا يلعلع في الصالة وهي تقول :

- متى ستفهم فانينا أن هذا الأمر مهم لي أيضاً ، كما هو مهم لها. أنا لا ذنب لي أبداً في كونها أصبحت راهبة ، لذلك ، عليها ان لا تتعامل معي على أنني عدوة لها ، وعليها أن تكون عوناً لي ومؤيدة لما يطلب منها ، بدلاً من أن تتصرف على عكس ما يجب.

بعد ذلك سمعت صوت همونيا تقول :

- أتوسل إليك ، لا تتكلمي بصوت عال أيتها العذراء المقدسة ، فقد تسمعنا فانينا !.

- المصباح مطفأ. هذا يعني أنها ليست في الغرفة !.

فتح الباب فجأة ودخلت السيدتان، وتسمرتا عندما شاهدتا فانينا. فوضعت همونيا الفنار الكبير الذي تحمله، على الطاولة وسألت فانينا!

- لماذا تجلسين فوق الصندوق والقنديل في يدك؟

ثم أردفت فبيديا: ولماذا تركت هذه النافذة مفتوحة؟

أمسكت رئيسة الراهبات المربية من يدها وسارت باتجاه فانينا ثم أمسكت ذقن الفتاة الشابة وأجبرتها على الإلتفات نحوها وقالت لها:

- وجهك شاحب، كما أنك ترتعشين.

في هذه الأثناء سمعت فانينا قرقعة داخل الصندوق فلم تفتح فمها بأي كلمة، فسألتها فبيديا:

- هل ما قاله كلافينوس قد أثار حفيظتك؟

هزت الفتاة الشابة رأسها وكأنها تقول نعم.

قالت همونيا باستغراب :

- ألم يكن من الأفضل لك أن تتمددي في سريرك وترتاحي قليلاً؟

لكن كيف لفانينا أن تترك هذا الصندوق؟ مدَّت يدها إلى المربية وناولتها القنديل قائلة:

- كلا لا أريد، أنا مرتاحة جداً.

التفتت فبيديا نحو همونيا وأمرتها قائلة:

- دعينا لوحدنا.

أطاعت المربية بدون رغبة منها، وما أن خرجت من الغرفة حتى سحبت فبيديا كرسياً بلا ظهر وجلست أمام فانينا ومن ثم أمسكت يدها الصغيرة بكفها، وساد الجو فترة صمت قطعته رئيسة الراهبات فقالت:

- إن من ينظر إلى حالك هذا سوف يفهم فوراً كما تفهمين أنت أيضاً، الوضع المريع الذي وصلت إليه!.

ما كان لفبيديا أن تعرف سبب الاضطراب الذي يسيطر على فانينا. اعتقدت أن مرد ذلك سوء استعمالها للثقة التي أولتها إياها رئيسة الراهبات، وأن الفتاة قد خجلت من هذا الذنب الذي ارتكبته، وأنها أدركت أن فبيديا لا يمكن أن تكون شريكتها في الذنب. لم تكن فانينا لتجرؤ على مجرد التفكير فيما يمكن أن يحدث إذا ما شاهدت فبيديا فيندكس في الغرفة، ولا كيف ستكون ردة فعلها. إذ ما من شك في أنها سوف تسلمه إلى مجلس الرهبان لكي تنقذ الراهبة الشابة التي تعدها كابنتها.

لم تكن السيدة التي في مقتبل العمر تدري ما يدور في ذهن ابنتها الحبيبة فتابعت:

- لقد فكرت جيداً، وتأكدت أن كلافينوس يرغب في التخلص منك، وهو لم يعد يخفي رغبته هذه، وهو على استعداد للقيام بأي شيء من أجل تحقيق ذلك، وأنا لا أستغرب أبداً إذا جاء بفيندكس إلى هنا وهيأ لك فرصة لمقابلته!.

امتقع لون فانينا، لأن فيندكس يسمع كلام فبيديا، ومن يدري كيف يفكر الآن بعدما علم أنه هو السبب في ما يحصل لها، وقد يقفز من الصندوق ليقوم بالرد على كلام رئيسة الراهبات!.

ردت الفتاة الشابة:

- لا تدعي الدنيا تظلم في عيني إلى هذا الحد!.

استمرت فبيديا باندفاعها:

- أنا أعرف كلافينوس أكثر منك. إنه منزعج جداً منك لأنك خرجت من تحت وصايته واكتسبت ثقة الإمبراطور. وبالإضافة إلى بعض العلاقات السرية التي تربطه بصاحب اللحية البرونزية، والتي تزيد من حقده عليك وعلى عائلتك فإنه ينفر منك لأنك شابة جميلة جداً وهو رجل عجوز جداً وقبيح، وثمة سبب آخر يجعله ينفر

منك. وهو أنه تكهن بالمستقبل الباهر الذي ينتظرك بينما لم يستطع هو أن يصل إلى الموقع الذي كان يرسمه في خياله!.

كانت فبيديا تعدد هذه الأشياء وهي تضغط على فانينا براحة كفها ثم أضافت:

- سأعيد عليك ما قاله لي وأنا أودعه عند شقة الخدم:

منذ أن دُفِنَتْ كلاًّ من راهبات فستا: إيميليا، وليجينيا، ومارسيا، أحياء في مقبرة الجناة والمجرمين في عهد كلٍّ من قناصل الكاربو، وهم: جيجيليوس، وميتالوس، وبابيريوس، لم تنزل هذه العقوبة بحق أي راهبة أخرى وقد مضى على ذلك ما يقارب المئة سنة، وأنت تعلمين أن قوانين روما أبدية ولا تتغير، ولازال هناك متسع في تلك المقبرة لحفر قبور أخرى!.

سمعت فانينا مرة ثانية صوت قرقعة في الصندوق، فرفعت رأسها نحو رئيسة الراهبات ونظرت إليها باستغراب ثم تكلمت ببطء:

- هل قال كلافينوس ذلك؟

- أقسم لك باسم راهبات فستا أنه قال ذلك!. وقد تقع المصيبة على رأسينا في أي لحظة لذا علينا أن نتخذ قرارنا بسرعة وقبل فوات الأوان.

كانت فانينا تخشى أن تنتبه فبيديا إلى القرقعة التي تصدر عن الصندوق الخشبي، وبنفس الوقت كانت ترفض كلام كلافينوس الحاقد، ولكنها لم تستطع أن تظهر أي ردة فعل.

تنهدت رئيسة الراهبات وسألتها:

- أما زلت تفكرين بذلك الشاب؟

ما الذي يمكن أن تجيب به فانينا؟ فالشاب يسمع كل ما تقوله، ثم إن فبيديا لن تصدقها إذا قالت لا. سيطر هذا التفكير على عقل الفتاة لذلك اعترفت قائلة:

- نعم إنني أفكر به.

استمرت فبيديا بأسئلتها :

- وكيف تفكرين؟

نظرت فانينا باستغراب إلى فبيديا ولم تجبها على هذا السؤال.

فأصرت فبيديا وسألت :

ـ ألا يخطر في بالك أي شيء وأنت تفكرين به؟ . ألا تشعرين مثلاً برغبة في تقبيله؟

احمرّ وجه الفتاة الشابة خجلاً ، لكن فبيديا أصرت على سؤالها وقالت :

ـ أجيبي.

فأجابتها فانينا وهي تريد أن تعصي أوامرها :

- وكيف تريدين أن أجيبك على مثل هذا السؤال ـ أرجو أن تكفي عن تعذيبي وأن تتركيني بحالي.

عندها وقفت رئيسة الراهبات على قدميها متثاقلة ثم أرخت كتفيها وقطبت جبينها وتمتمت قائلة :

- لقد فهمت الآن ، إنك لا تريدين مساعدتي لكي أقوم بمهمتي !.

ظلت تفرك كفيها من شدة الغضب ، لكنها اتخذت قرارها على ما يبدو وبدأت فوراً بالهجوم :

- حسناً. يمكنك أن تفكري بفيندكس كما تشائين ، فهذا شيء يخصك وحدك ولكن إياك أن تتصوري أنك تستطيعين المضي إلى أبعد من ذلك !. هل فهمت؟ وعلى كلٍ وتفادياً لحدوث مقابلات غير متوقعة بالأصل ، وحتى صدور أوامر أخرى ، فأنت ستكونين حبيسة هذا البيت ولن تخرجي من هنا إلا بإذني الخاص ، وذلك من أجل حضور الحفلات العامة ، أو الذهاب إلى زيارة والديك بصحبة إحدى صديقاتك !.

فهمست فانينا :

- هل معنى ذلك أنني لن أراه بعد الآن؟

- نعم: لن ترينه أبداً!.

كان وقع هذا الجواب القاطع على فانينا قاسياً جداً، فشعرت كأنها تلقت صفعة قوية أو جلدت بالسوط على ظهرها ولكنها حاولت إخفاء شعورها هذا.

هكذا قررت فبيديا، يجب أن لا يشاهدا بعضهما مطلقاً!. ولكن فبيديا لا تعلم أن هذا الشاب هو الآن على بعد خطوتين منها، وهو يسمع حديثها كاملاً. وأنه تجاوز كل الجدران المحيطة بالفتاة وكل المخاطر، وكل أولائك الجواسيس، ولم يستطع أن يقف بينه وبين الفتاة أي حائل.

أمسكت رئيسة الراهبات فانينا من ذراعها وقالت لها وهي تسحبها نحو الباب.:

- تعالي.

قررت الفتاة أن تجامل رئيسة الراهبات وأن تستجيب لرغبتها، ورأت أن خروجها الآن من الغرفة مع فبيديا هو الحل الأمثل، وسوف يستغل فيندكس خروجهما من الغرفة لكي يهرب، ولا بد ان يفكر بعد أن يصبح خارج الدير بفرصة أخرى لكي يقابل فيها فانينا، وربما تمكن في أحد الأيام من خطف الفتاة والاختفاء في إحدى غابات غالة ، يتذوقان السعادة معاً بعيداً عن الرقباء. إنه، بلا شك، سيكتشف وسيلة لكي يأخذها إلى إحدى هذه الغابات في أحد الأيام!.

عندما وصلتا إلى الباب أفسحت فبيديا الطريق لفانينا لكي تخرج أولاً، ثم ركزت أنظارها في عيني الفتاة، ولم تلاحظ فانينا أي أثر للغضب في عيني رئيسة الراهبات، وشعرت فانينا بقسوتها ومقدرتها على ضبط أعصابها كما كانت تعهدها من قبل وأنها "فينوس الجليدية" التي لا تقبل التغيير أبداً، وهي عندما تغالي بتصرفاتها من أجل الحفاظ على هذه الفتاة التي تحت وصايتها فإن دافعها في ذلك هو حرصها وحبها المفرط لها!.

فجأة شعرت فانينا بالحزن، وكأن قلبها قد تغلف بشعور غريب



هبطت الإمرأتان من على درج البيت العريض وخرجتا إلى الباحة، وكان ظل معبد فستا يلوح وسط الظلام.

استدارت فانينا فجأة إلى الخلف دون أن يشعر بها أحد فرأت شبحاً أسود يخرج من نافذة الغرفة، ويتعلق في إطار إحدى النوافذ المجاورة.

كان فيندكس يحاول الهروب بسرعة وقد اضطر من أجل ذلك للقيام بحركات بهلوانية خطرة، ولكن على الرغم من خطورة هذه الحركات لم تخف فانينا، لأن الثقة تملكتها إلى أبعد الحدود في مهارته، ونجاحه، ولا شك أنه سيصل إلى الشارع بأمان بعد قليل. هذه الخواطر جعلت فانينا تحث الخطى وتلحق بفبيديا.

وصلت الراهبتان إلى المعبد، وعندما دخلتا شاهدتا ماكسيميليا وهي توشك على الانتهاء من مسح بلاط المعبد بماء كامن، بعد أن غطست قطعة من قماش الصوف الأبيض في إحدى الجرار.

وبإشارة من رئيسة الراهبات نهضت الراهبة ماكسيميليا ودنت من رئيسة الراهبات فهمست فبيديا بأذنها ببعض الكلمات. فنظرت هذه الراهبة باستغراب في وجه رئيسة الراهبات ثم خرجت من المعبد مسرعة. بعد ذلك راحت فبيديا تحرك بسرعة، الأغصان المشتعلة فوق المحراب، ثم رفعت الرماد الزائد، بينما اكتفت فانينا بمراقبتها دون أن تتحرك، محاولة إيجاد أي تفسير لحركاتها. لكن فكرها شغل بأمور أخرى كثيرة. رغبت في ترتيب هذه الأمور التي أصبحت في حال هرج ومرج لكي تضعها في قالب معين.

ولم تمض سوى برهة قصيره، حتى سُمع وقع أقدام. التفتت فانينا فوجدت ماكسيميليا قد عادت، ولكن هذه المرة بصحبة كلٍّ من آنيا، وكورنيليا التي كانت تحمل بين يديها بوبيليا الصغيرة، فأخذت كورنيليا الفتاة الصغيرة النائمة ووضعتها فوراً إلى جانب المحراب.

ودت فانينا أن تفهم لماذا تقوم رئيسة الراهبات بفحص هندامها، وهندام باقي الراهبات؟ فبعد أن رتبت ثنيات معطفها بصورة جيدة، ربطت جيداً إحدى الشرائط

الحريرية الموجودة على شعرها، وجاءت ووقفت أمام النار، بينما ماكسيميليا منهمكة بالأدعية والصلوات!.

الآن فهمت فانينا كل شيء، لذا لم تستغرب عندما دنت منها كورنيليا وآنيا وأمسكتاها من يديها، ثم أمسكت فبيديا ماكسيميليا من يدها ووضعن بينهن بوبيليا، وهكذا اكتمل الطوق الذي ضربنه حول المحراب.

وبإشارة من رئيسة الراهبات، سكتت ماكسيميليا، فقامت فبيديا بوضع سبعة عيدان خشبية من أنواع مختلفة فوق النار فتألقت شعلة النار بشكل جيد، ثم وضعت رئيسة الراهبات وجهها بين يديها، وغرقت في تفكير عميق، وبعد أن ركزت أنظارها على القبة البرونزيه قالت بصوت مرتجف:

- جانوس، جوبيتر، مارس، كفرينوس، بللون، لارس، أنتم أكثر قدرة مني، لأنكم رغبتم في ذلك، وأنتم الآلهة الذين جئتم إلينا، وأنتم الأكثر قدرة من آلهتنا المحليين، لذلك، أسترحمكم بأرواح الأموات التي تألهت، وبجاهكم أنتم، وجاه أُمِّنا فستا، أن تمنحوا القوة لفانينا التي تقف أمامكم الآن لكي تكون جديرة بطيبتها، وصوفيتها، وعذريتها ونظافة قلبها للقيام بإيقاد شعلة فستا!.

بإشراقة وجهها الجميل نظرت فبيديا إلى فانينا التي كانت تعيش صراعاً في داخلها، إذ تمنت أن تستخدم تلك القوة العظيمة في سبيل حبها لفيندكس، مع علمها أنه الأمر المحال. كانت عيون فبيديا تشع بقوة لدرجة أن الفتاة بدأت ترتجف من رأسها حتى أخمص قدميها وكأنها تقف أمام أحد السحرة ممن يحكمون سيطرتهم على من يقف أمامهم فيطيعونهم ويتصرفون كالعبيد، وعلى هذا النحو سارت فانينا نحو المحراب واستندت بيدها وقالت بصوت متهدج:

- خذيني يا فستا.

وأكملت فبيديا:

- خذيها يا فستا. لقد وَهَبْتُها لك روما!.

ثم قامت فانينا بترتيب العيدان التي أخذتها من الراهبات اللواتي كن موجودات ووضعتها فوق النار. وانتهى الاحتفال.

فقالت لها رئيسة الراهبات:

- سوف تناوبين هذه الليلة بمفردك في المعبد، وأنهت كلامها قائلة:

لك الحق أيضاً يافانينا في أن تراقبي هذه الشعلة التي هي رمز فستا.



لم يبق في المعبد سوى فبيديا، وفانينا، وماكسيمليا، وكان النعاس قد غلب كلاً من كورنيليا، وآنيا، اللتين كانتا واقفتين في مكانيهما دون أن تفهما شيئاً. لذلك أخذتا بوبيليا وعادتا إلى البيت.

بعد ذلك عادت ماكسيميليا إلى مكانها بالقرب من الشعلة المقدسة وهي سارحة كعادتها دوماً.

بعد قليل سألت رئيسة الراهبات:

- كيف تشعرين يا فانينا؟

مسحت الفتاة جبينها وأجابت:

- إن نظراتك كانت السبب في وجع دماغي!.

داعبت فبيديا الراهبة الشابة من خدها وقالت لها:

- اعذريني يا ابنتي. ماذا تريدنني أن أفعل؟ فأنت ترغمينني على أن أستعمل معك أساليبَ لا أريد استعمالها. لكن كوني على ثقة أن هذه الأساليب لن تتكرر ثانية. إنني أريد أن أعلمك كل شيء، وأريدك أن تكوني أكثر مقدرة مني!.

ثم تضرّعت رئيسة الراهبات إلى الآلهة لكي تهب إلى نجدة ابنتها الحبيبة وانقاذها من الظلال السيئة التي تحوم حولها، ثم أضافت وهي تبتسم:

- هل تعلمين أن المقدرة شيء جيد؟

بعد ذلك لفت بذراعها خصر فانينا وسارت وإياها إلى الطرف الثاني من المعبد حتى وصلتا إلى نقطة أمام الباب فوقفت وأشارت إلى تلك النقطة وقالت: انظري!. ثم أومأت برأسها إلى ماكسيميليا، التي مدت يدها إلى أسفل المحراب ومن ثم بدأت تحركها وكأنها تحرك ذراع رافعة، وما لبث أن تحرك الحجر الذي تقف أمامه فانينا وظهر درجٌ حلزونيٌّ من البازلت الأسود.

ارتعدت الفتاة لما رأته وقالت باستغراب وهي تلوم فبيديا:

- لمَ لم تقولي لي أن هناك درج؟

- لأنه لا يحق لك حتى الآن أن تعرفي مكان هذا الدرج، إذ لاينبغي لأحد أن يصل إلى مستودعات المعبد، وحدهم الرهبان القدماء من يحق لهم معرفته.

ثم تناولت فبيديا المشعل من يد ماكسيميليا وأمسكت فانينا من كفها وبدأتا تنزلان الدرج.



مساحة هذا المستودع أصغر من مساحة المعبد، وهو يحتوي على قسمين، قسم مسقوف بقبة حمراء، وقسم ثان سقفه منخفض جداً وجدران أسفل القبة، مغطاة بالكامل بألواح المرمر السوداء. المنظر مهيب ويبعث القشعريرة في نفس من يشاهده !.

بدأت الراهبتان تسيران في المستودع بخطىً وئيدة، إذ لم يكن لهيب الشعلة بكافٍ لإضاءة المكان. كان نوره يشع فقط على لوحات المرمر الأسود الموجودة على الجدران وينعكس كما لو أنه ارتد عن مرآة. حاولت فانينا أن تنظر إلى نمط الكتابة المنقوشة على اللوحات فوجدت أنها قد كتبت بعبارات قديمة!.

لم يكن في المستودع من الأثاث سوى ثلاثة صناديق ضخمة مصنوعة من البرونز وعليها أقفال كبيرة الحجم. والمستودع هذا، باردٌ جداً، مثل مقبرة!.

همست فبيديا:

- هذا المكان مقدَّس تماماً كالشعلة التي تضيء فوق رأسينا، وهذه الصناديق ملأى بالكنوز وسوف أطلعك عليها في أحد الأيام. أهم ما فيها تلك القطع التي أخذت من تماثيل الآلهة وعلى الأخص تمثال "بلاديوم" الذي كان قبلاً في مدينة تروفا، يؤمن الحماية لها، لكن إينياس نقله من تروفا وأتى به إلى روما وهو مصنوع من خشب "البلاس".

ومن سخرية القدر أن فانينا بدأت تطلع على أسرار هذه الطريقة التي تشعر نحوها بالفخر والعظمة، في الوقت الذي بدأ هذا الشعور يخبو عندها، وسواء أكانت الفتاة راغبة في كشف هذه الأسرار أم لا، إلا أنها وقعت تحت تأثير هذا الجو السحري وهذا الامتياز الذي خُصّت به، وكانت تريد أن تشبع كل رغباتها وأن ترى وتتعلم كل شيء، مع أنها تعلم مسبقاً أن فبيديا ستعلمها كل شيء ولكن، قطرة، قطرة.

- سأطلعك الآن على شيء يتعلق بوجودك أنت، وأريدك أن تعرفي هذا الشيء قبل والدك!.

ثم وقفت رئيسة الراهبات أمام لوحة قديمة جداً كانت معلّقة فوق أكبر صندوق ووجهت الشعلة نحوها وقالت لها:

- إقرأي.

مدت فانينا رأسها ثم تراجعت وكأن رعباً قد دب في أوصالها، لكن فبيديا أصرت قائلة:

- إقرأي.

بدت الكلمات التي وُجِّهت الشعلة إليها مكتوبةً بحروفٍ صغيرة كادت أن تتآكل. فبدأت فانينا تقرأ بصوت مرتجف:

- في هذا العصر وقبل أن يقوم روميلوس وأخوه روميوس بإنشاء هذه المدينة على طول نهر تيبر، ذهبا إلى الكاهن الأعظم ما سترنا مارسيوس فانينوس سليل أشرف

عائلات "أترووريا"، التي تعد الوطن الأساسي للكهنوت وطلبا منه أن يُعْلِمهما بصورة قطعية عن المكان الذي اختارته الآلهة لبناء هذه المدينة.

وجواباً على طلبهما قام ماسترنا العظيم بسؤال الآلهة، ووقف روميوس على هضبة آفانتين ورأى ستة من طيور المالك الحزين، ووقف روميلوس فوق هضبة بالاتين فشاهد إثنى عشر طيراً من طيور المالك الحزين. أعاد ماسترنا، سؤال الآلهة مرة أخرى فأجابوه أن هذه العلامات هي بشرى خير بالنسبة لروميلوس. وعند ذلك ووقفاً للطقوس المقدسة جمع روميلوس ثوراً أبيضاً وبقرة وربطهما في نيرٍ من حديد كان ماسترنا قد صنعه بنفسه ، ثم طاف بهما حول هضبة بالاتين ورسم دائرة تمثل سور المدينة التي تصورها.

وبينما كان سور المدينة يرتفع، أراد روميوس أن يسخر من أخيه روميلوس فقفز قفزة واحدة وأصبح فوق السور، فقال له أخوه روميلوس"إن من يتجاوز هذه الأسوار سوف يقتل كائناً من كان" ثم انقض على أخيه وقتله وهكذا تحققت مشيئة الآلهة التي أرادت أن تتعمد أساسات هذه المدينة بالدم. ثم أراد روميلوس أن يكون إلى جانب ماسترنا العظيم احتراماً لقدسيته ولإعجابه الشديد بمزاياه العظيمة فبنى له بيتاً في المكان المناسب، وهكذا سكن ماسترنا مارسيوس فانينوس روما، وخُلّد إسمه حتى كاد أن يصل إلى مرتبة الآلهة!.

توقفت فانينا عن القراءة ثم التفتت إلى رئيسة الراهبات التي كانت تراقبها وقالت لها بدون أن تغير ملامح وجهها:

- لم أكن أتوقع أن هناك لوحة خاصة باسم ماسترنا. قالت ذلك وشعرت بالاضطراب.

فأجابتها فبيديا بحزم:

- ليس هذا فحسب. يجب أن تمتلئي فخاراً، لأن أجدادنا قد وجدوا أن من اللائق أن ترقد جثة هذا الرجل العظيم رقدتها الأخيرة في معبد فستا وخلف هذه اللوحة!.

استندت فانينا على فبيديا ولم تعد تقوى على الوقوف على قدميها بعد أن شعرت برهبة المكان الذي يرقد فيه نعش جدها، لقد شعرت أنها قد انسحقت، وأنها قد تعرت تماماً ولم يعد باستطاعتها إخفاء أي شيء.

فهمست فبيديا قائلة وكأنها قرأت ما يدور بخلد فانينا:

- إنه يقرأ كل أفكارك وأفكاري، ولا يغرب شيء عن ناظريه أبداً، وهو يعرف الخفايا والأسرار التي لا تريدين الاعتراف بها!.

تراجعت الفتاة إلى الوراء بصورة لا شعورية وقد سيطر عليها الخوف، حتى كادت أن ترتطم بالجدار المقابل فأمسكتها فبيديا من يدها وأوقفتها أمام لوحة كبيرة من الرخام كتب عليها قائمة طويلة من الأسماء. وهي أسماء جميع الراهبات اللواتي خدمن في فستا منذ إنشاء هذه الطريقة.

رفعت فانينا يدها وكأنها تريد أن تعترض، لكن فبيديا قالت لها وهي تبتسم:

- لم يعد لدي وقت طويل لكي أتخلى لك عن مكاني. وسوف تستلمين مكاني بعد عشر أو خمسة عشر عاماً عندما أشعر أنك أصبحت مؤهلة لذلك، وعندها سوف أنسحب أنا إلى الصفوف الخلفية، وأنتظر الأوامر منك!.

تسمرت فانينا في مكانها ونظرت إلى رئيسة الراهبات وهي لا تعرف ماذا يجب أن تقول، فداعبتها فبيديا من ذقنها واستمرت في الكلام:

- كان جدك ماسترنا مارسيوس فانينوس قد أخبرنا هو وبعض الكهنة البارزين أن إحدى النساء سوف تمسك بأقدار روما بين يديها عدة مرات، وقد نظر تيبر إلى النجوم وعرف أن هذه المرأة هي أنت!. لذلك اجتثك من جذور عائلتك وسلمك لي، أما أنا فلم يتنبأ أحد من أجلي بأي شيء. وهكذا أنا أقل منك وزناً في ميزان الآلهة!. نعم أنا لا شيء بالنسبة لك، ومع ذلك أنا لا أغار منك. بل أفتخر بك وسعيدة بوجودك.

وعندما وصلت رئيسة الراهبات إلى هذه النقطة بدأت تتكلم بجدية أكثر:

- لكن مقابل ذلك فأنت تعرفين أننيأواجه أناساً شرسين من أجلك، إنهم أقبح من حراس جهنم ولا أستطيع أن أتخلص منهم، ولكن مهما عانيت من أجلك فإنني لن أسمح لأي منهم أن يمس شعرة واحدة منك.

وبينما كانت رئيسة الراهبات تتكلم بمثل هذه الجدية، أضاءت الشعلة أمام لوحة تعتبر فارغة نسبياً وكأنها قامت بذلك مصادفة. كانت اللوحة تحتوي على عشرة أسماء فقط، فبدأت فانينا تقرأ الأسماء بصورة لا شعورية بيناريا، أوبيا، أوربينا، مارسيا، ليجينيا.

شعرت فانينا أن هناك يداً باردة تمتد نحوها، فالتفتت إلى رئيسة الراهبات وهمست:

- وهؤلاء أيضاً. هؤلاء أيضاً؟

- نعم هذه قائمة بأسماء الراهبات اللواتي دُفِنّ أحياء، أو اللواتي وجدن فرصة للانتحار، وقد كان بينهن من أوشكت أن تصبح قدّيسة.

ثم هزت رئيسة الراهبات كتفها وأكملت حديثها:

- وحسب اعتقادي لم يكن عدد المتهمات يتجاوز اثنتين أو ثلاثة على الأكثر وأنا على ثقة تامة أنهن كن عذارى كما ولدتهن أمهاتهن يوم متن.

فسألت فانينا:

- إذن لماذا قتلن؟ ولماذا لم يعترض أحد على موتهن؟

هزت فبيديا رأسها وأجابت بطريقة فلسفية:

- إن حياتنا يا ابنتي مرهونة بخيط رفيع. فهم يرفعوننا إلى السماء عندما تكون الأمور على ما يرام، أما إذا حدث وارتكبت إحدانا ذنباً، أو كان لها علاقة مع أحد الرجال، فسوف تحاكم بتهمة أنها تجرأت ودنست محراب الآلهة بيدها القذرة وسوف تحكم وينتهي أمرها!.

عندها قالت فانينا بغضب:

- هكذا بدون أدلة، أو شهود!.

انعكست ضحكات فبيديا الساخرة على جدران القبة وسمع صداها يتردد عدة مرات.

ثم قالت:

- هذا أمر بسيط للغاية فمن السهل جداً أن ترغمي أحد العبيد على الكلام بعد أن تطبقي عليه أساليب التعذيب، ثم ما رأيك بأعمال الجاسوسية التي يقوم بها كلافينوس وبالجواسيس الذين يزرعهم حولنا والذين هم على أتم الاستعداد لتلفيق التهم والإدلاء بشهادتهم على ذنوب لم نرتكبها نحن!.

أطبقت الراهبة الشابة كفيها على وجهها واستندت إلى الجدار فقالت لها فبيديا:

- تفكرين في شريكك بالجريمة أليس كذلك؟

فسألت الفتاة الشابة وكأنها لم تفهم:

- أي شريك في الجريمة؟

- أنت بريئة جداً يا ابنتي. إن راهبات فستا يحتجن إلى شريك لكي يمارسن جريمتهن، شأنهن في ذلك شأن باقي النساء. لذلك فإنهم سيجدون لنا شريكاً في الجريمة.

ثم دنت رئيسة الراهبات من وجه فانينا أكثر وهي تحاول أن تزيدها إيضاحاً فابتسمت وقالت:

- لا تظني أن الأمر سهل عندما ينظر شاب وسيم إلى إحدى راهبات فستا ويتعلق بها. لا تفكري بهذه الأوهام أبداً، إنهم سيلحقون به ويقبضون عليه حتى إذا هرب إلى آخر الدنيا، وسوف يستنفرون فرقاً كثيرة وقد يفتعلون الحروب إذا لزم الأمر، لأن هذا الشاب قد اقترف أكبر الذنوب التي يمكن أن ترتكب في روما!. لقد لطخ سمعة إحدى راهبات فستا، وبالتالي سمعة روما، ويجب أن يكون هدفاً لعذاب آلهة المدينة، أما الأدلة التي تثبت وقوع مثل هذه الجريمة فأمرها سهل ويمكن الحصول

عليها بسرعة، ويجب أن تتأكدي أن محاكمته سوف تتم وفق المراسم المعتادة، وسيحكم عليه، وسيقومون بتنفيذ هذا الحكم في الوقت الذي يقومون فيه بوأد شريكته راهبة فستا وهي على قيد الحياة، ويضعون الأغلال في عنقه ويقيدونه كالعبيد ثم يقومون بجلده بسوط من الجلد مطعم بحبات الرصاص حتى الموت!.

تخيلت الفتاة الشابة منظر فيندكس وهو يجلد فأغمضت عينيها وسقطت على الأرض وهي تبكي وتقول:

- لماذا لم تخبريني عن هذه الأمور من قبل؟

نظرت فبيديا باستغراب:

- ولماذا يجب أن أخبرك عنها؟ ولماذا يجب علي أن أُعَكّر عليك صفو حياتك السعيدة بمثل هذه القصص التي تهز الأبدان، كنت أهدف من تعليمك أن تصبحي خادمة حقيقية للآلهة، وهذا ما تصرفوه معي أيضاً!.

بعد ذلك أمسكت رئيسة الراهبات فانينا وأرغمتها على الوقوف، وأجبرتها على أن تنظر إليها، ثم قالت لها بقسوة:

- ها أنت أصبحت تعرفين كل شيء، لقد قلت لي: "حتى لو حُكم علي بالموت فسوف أكون سعيدة"، ولكن هل ستكونين سعيدة أيضاً لو كنت تعلمين أن هناك شاباً سوف يضحي بحياته من أجلك، وأنه سوف يكون في الوقت نفسه بين يدي الجلاد؟

قبلت فانينا بالهزيمة ولم تُحِر جواباً. لقد أدخلتها رئيسة الراهبات في طرق شائكة، وحققت غاياتها دون أن تغضبها. أدركت فانينا أنها قد وصلت إلى طريق مسدود ولم يعد لديها أي خيار!. نعم، تقبّلت اندفاع ذلك الشاب نحوها، ورضيت أن تهب نفسها إلى هذا الكائن وأن تضحي من أجله، وأن تعيش معه في إحدى الغابات الرائعة. لكن جميع هذه الأحلام انهارت بعد أن برزت أمامها هاتان الحقيقتان!.

وهاهي الآن قد فهمت أن عيش هذه القصة دونه الموت!. لعلها لاتخشى الموت ولكنها لن تقبل أبداً أن يتعرض فيندكس لخطر الموت!.

كانت فبيديا صامتة وهي تتابع انعكاس ردة فعل الفتاة الشابة على تعابير وجهها. لقد قالت فبيديا كل ما عندها والآن جاء دور فانينا.

شعرت الفتاة الشابة برغبة عارمة في الهروب من هذا المكان الكئيب الذي انهارت فيه كل أحلامها السعيدة فقالت:

- دعينا نخرج من هنا.

وقفت فبيديا جانباً وأفسحت الطريق لفانينا وصعدت الراهبتان الدرج المؤدي إلى المعبد معاً.



أنزلق غطاء الرخام أمام الراهبتين دون أن يحدث أي صوت، كان هذا الغطاء الرخامي قد رُكّب بشكل لا يمكن أن يميزه أي شخص آخر عن باقي بلاط الأرضية.

لم تكن الفتاة الشابة تعلم كم من الوقت مضى عليها في هذا المستودع الذي انهارت فيه أحلامها، لكنها كانت متأكدة أنه وقت كافٍ لكي تنقلب فيه حياتها رأساً على عقب مرتين منذ صباح هذا اليوم.

كانت ماكسميليا لما تزل هناك، وما إن شاهدت الراهبتين حتى أشارت إلى الساعة المائية الموضوعة على رفٍ مثبت على الجدار. لقد انتهت فترة مناوبتها.

فقالت لها فبيديا:

- شكراً لك يا ماكسيمليا، والآن بإمكانك الذهاب إلى النوم.

خرجت هذه الراهبة التي هي في أواسط العمر، من المعبد، ثم سمع صرير الباب البرونزي الثقيل وهو يفتح. كما سمع صوته وهو يُغلق محدثاً أنيناً طويلاً.

اتجهت فانينا نحو المحراب، وقامت بتلاوة بعض الأدعية التي يجب عليها أن تتلوها قبل استلامها المناوبة من راهبة أخرى . وبعد أن قرأت هذه الأدعية بصوت مسموع، قامت بتنظيف الرماد بعناية كما تعلمت ثم وضعته ضمن جرة، بعد ذلك جلبت بعض عيدان الخشب من الصندوق المدفون ضمن الجدار ورتبتها بشكل هندسي.

كانت فبيديا تقف في الطرف الثاني من المحراب وهي تراقب باهتمام بالغ حركات الراهبة الشابة.

أما فانينا فقد وقفت ساكنة أمام الشعلة ولم تتحرك، بعد أن شاهدت ألسنة النار تتصاعد بكل قوتها، ولم يعد أمامها سوى الصبر والدعاء.

- فانينا !.

رفعت الفتاة الشابة رأسها واستدارت نحو فبيديا.

تكلمت فبيديا بهدوء وقالت:

- فانينا كنت أنتظر هذه اللحظة بلهفة ومنذ مدة طويلة، وكنت على ثقة أنك سوف تكونين سعيدة جداً لأنك حققت الهدف الأول من الأهداف التي رسمتها لك. ولكن ويالَلأسف لم أر ما كنت أتوقعه، كنت أود أن أراك تتحركين بحيوية أكثر، وأن تكوني متلهفة لمثل هذه الأجواء الاحتفالية لكي تضفي عليها مزيداً من الأبهة والجلال. لذلك قررت إيقاف هذا الاحتفال.

فقالت فانينا غاضبة:

- أرجو أن لا نبحث مثل هذه الأمور!.

- ما كنت لأبحث أموراً كهذه لو لم تكن مهمة يا ابنتي!. وبهذه المناسبة أود أن أنقل إليك رغبات الإمبراطور التي أصر علي من أجلها كثيراً!.

هزت الراهبة الشابة كتفيها، فاستمرت رئيسة الراهبات:

- لقد أراد تيبر أن أنقل لك شكره وامتنانه لأنك وهبت شبابك للمدينة وهو يرجو أن تقبلي منه هذه الهدية !.

بعد ذلك أخرجت فبيديا من صدرها وبسرعة جسماً يشبه رأس الحربة.

- إنه مبضع من البرونز يا فانينا. وقد قال في رسالته " إن هذه القطعة هي أثمن ما في خزائني كلها". هذا السكين متوارث عن جميع الراهبات اللواتي جئن من عائلته وهو يخص أكثرهن شهرة وهي رئيسة الراهبات كلوديا الثانية.

بعد ذلك دارت رئيسة الراهبات حول المحراب وقدمت هذا الجسم الغريب إلى فانينا وقالت لها :

- لقد وجد هذا المبضع في أساسات هذا المعبد وفي المكان الذي يرقد فيه جدك ماسترنا رقدته الأبدية ، وهو قطعة من النير البرونزي الذي صنعه بنفسه وأعطاه لروميلوس !.

أخذت الفتاة الشابة المبضع البرونزي ، كان خفيف الوزن. دافئاً لكن حوافه قاطعة كالسكين.

تابعت فبيديا قائلة :

- يجب أن يكون معك دوماً ، فهو يحمي صاحبه. وإنك الآن أحوج ما تكونين لمثل هذه الطلاسم أكثر من أي شخص آخر. كما أنه يفيدك في تجاوز الصعاب التي تخططها لك الأقدار ، وفي التخلص من المكائد والأفخاخ التي ينصبها لك كل من دومتيوس ذي اللحية البرونزية ، وكلافينوس.

وبحركة حنونة احتضنت رئيسة الراهبات فانينا ، ثم اتجهت بخطى سريعة نحو الباب ، وحانت منها التفاتة وهي تغلق الباب خلفها فوجدت فانينا تبكي للمرة الثانية في يومها الطويل هذا.



القسم الثامن

كان يوماً خريفيا رائعاً، وكانت همونيا لا تتوقف عن الحديث عن ماكسيميليا، الفتاة الشابه، بينما كانت المركبة الفخمة تصعد الطريق المؤدي إلى بيت عائلة فانيننا في تلة بالاتين

ـ انظري إلى حال هذه الفتاة، لقد شحب لونها، أليس كذلك، أيتها العذراء المقدسة؟ . لو رأيتها في مكان آخر لما عرفتها، إنكن تظلمنها كثيراً وسوف تقضين عليها، فالبارحة أرغمتموها على أن تناوب قسماً من الليل مع أنها كانت منهكة طوال النهار.

حافظت فانينا على صمتها ولم تنطق ولو بكلمة. كان قلبها يخفق بشدة رافضاً كل شيء. عادت بذاكرتها عشر سنوات إلى الوراء، وتذكرت كيف أنهم لقنوها كل شيء، ولكنها لم تتعلم شيئاً!. وكيف فشلت فيبيديا في تحقيق أحلامها من خلالها، وكيف أنها صممت على أن لا تقابل فيندكس وأن تعمل كل شيء كي تنساه.

لكن فيندكس ظل يشغل تفكيرها دائماً فصورته الجميلة عندما وقف ينظر إليها بإعجاب وهي تسير في طريق النصر ماتزال ماثلة أمام ناظريها، وكذلك عندما تسلق أحد الأعمدة في بيت الراهبات. وكيف ظهر أمامها في الليلة السابقة بشحمه ودمه يحدثها عن نفسه وعن السعادة التي سوف يتذوقان طعمها معاً في أحد الأركان الهادئة في إحدى غابات غالة . ولازالت تتخيل القزم ذا القفطان الجلدي الذي سدد

له لكمة في ذقنه وأوقعه أرضاً، جاعلاً الدماء تنزف من فمه، راسمةً خطاً أحمر. إنها ما تزال تتخيل أيضاً ما قالته فيبيديا عندما شرحت لها كيف أنه سيموت تحت ضربات سوط الجلاد المصنوع من الجلد المطعَّم بحبات الرصاص. لقد كادت هذه الأمور تؤدي بالفتاة الشابة إلى حافة الجنون.

آه لو أن بمستطاعها نسيان ذلك. إنها على استعداد لأن تحني هامتها أمام إرادة الآلهة من أجل إنقاذ فيندكس، وأن تبذل قصارى جهدها من أجل ذلك وتريح أعصابها، لكن تحقيق هذا الأمر يحتم عليها أن تنسجم مع آراء راهبات فستا، وتتصرف مثلهن، فهن لا يُظهرن أحزانهن ويُحَصِنَّ أنفسهن من الرغبات الدنيوية، وكأنهن قد قطعن علاقاتهن مع العالم، ولبسن ذلك القناع البراق الخالي من الأحاسيس كذاك الذي تضعه فيبيديا على وجهها فيجعلها تمثالاً.



فانينا! ياابنتي!.

كانت ترِنْتا تمشي بسرعة على الطريق الذي يمر في منتصف الحديقة، ثم وقفت إلى جانب النافورة وبدأت تنادي ابنتها، وعندما أصبحت فانينا أمامها، نظرت الأم إلى وجهها باستغراب وسألتها:

ـ ماذا بك؟ وجهك، وجهك هو نفسه. تبتسمين، ولكنني اشعر أنك لست سعيدة!.

اعترضت فانينا:

- وكيف عرفت أنني لست سعيدة ياأمي؟ ومن أين جئت بهذه الأفكار؟

ثم تصنعت السرور وقالت:

- تعلمين أنني كنت مناوبة ليلة أمس للمرة الأولى. وقد شعرت ببعض التعب لأنني لم أتعود على ذلك. هذا كل ما في الأمر. ثم استدارت نحو ماكسيميليا وهمونيا اللتين كانتا تتبعانها، وتصنعت التحدث معهما بمنتهى اللطف وأضافت:

- إنني أراهن أن ماكسيميليا قد شعرت بما أشعر به الآن عندما قامت بمناوبتها الأولى وسهرت طوال الليل.

وكالغنمة الهادئة أكدّت ماكسيميليا ذلك وأجابت:

- تقولين الحق يافانينا.

لم توافق همونيا على ما قالته الراهبتان، ولكن عندما حاولت أن تفتح فمها أسكتتها فانينا وغيرت مجرى الحديث فوراً فسألت والدتها:

- أين أبي؟ هل هو خارج المنزل؟

أجابتها أمها:

- كلا، إنه في صالة اللوحات مع بعض أصدقائه.

التفتن جميعهن في آن واحد وكأنهن قد اتفقن، ونظرن إلى حيث أشارت تِرِنْتا، فشاهدن السيناتور فانينوس يسير في تلك اللحظة في الممر المحاط بالأعمدة وإلى جانبه رجلان. لقد كان الرجل الثاني، هو نفسه فيندكس.



امتدت يدٌ نحو ذراع فانينا وأمسكتها من معصمها، تلك كانت يد همونيا التي رأت أن تسندها على ما يبدو لكي لا تتعرض لأي أذىً.

راحت فانينا تفكر بالمخاطر التي ستعقب هذه المقابلة. وقفت في مكانها مضطربة. وشعرت كأن كابوساً يخنقها، وأن رجليها لا تقويان على حملها. إنها تحت ثقل كابوس مخيف.

هاهو فيندكس أمامها، وهاهي لا ترى أحداً سواه. تنظر إليه بسرور بالغ، تنظر الوجه الجميل، الوجه الذي تخيلت البارحة أنها صممت على طرده من قلبها. لا. فهي مستعدة للتخلى عن العالم أجمع في سبيله هو.

نعم هاهو فيندكس أمامها وهاهي تلتقيه للمرة الثانية رغم كل المخاطر المخيفة التي يمكن أن تتعرض لها. والشيء الآخر والخطير الذي لايعرفه فيندكس هو تلك العقوبة المخيفة التي يمكن أن يتعرض لها هو أيضاً: يجب أن تخبره عن هذه المخاطر وأن ترجوه أن يهرب فوراً!.

لكن أليس من الأفضل أن تهرب هي؟

يجب ألاّ تضيع الوقت، فعليها أن تجد الحجة الملائمة لكي تعود سريعاًإلى بيت راهبات فستا، قبل أن تشك ماكسيميليا التي أوكلت لها فبيديا أمر مراقبة جميع تحركات فانينا.

كانت فانينا تدرك هذه الأمور، لكن النشوة التي ملأت رأسها لم تترك لها مجالاً للحيطة والحذر، أو أن تسمع نداء همونيا التي راحت تسحبها من يدها وترجوها لكي تغادر المكان. وبقيت متسمرة في مكانها.

بدأت تنظر إليه وكأنه غريب، وكانت تستغرب، كيف أنها تمكنت من أن تضبط أعصابها فلم يظهر على وجهها أو تصرفاتها أي أثر للانفعال، تصرفت تماماً وفق ما هو مطلوبٌ منها. بعد ذلك تخلت بعض الشيء عن أطوار راهبات فستا وقبلت والدها بحنان، وبعد أن سألته عن صحته التفتت إلى الرجل الذي كان يقف خلف فيندكس، حتى كادت أن تلامس ماكسيميليا، وأومأت له برأسها قليلاً وحيته!.

في هذه اللحظة تقدمت أمها لتعرفها على هذا الضيف الصديق:

- السناتور لوسيوس جوليوس فيندكس.

حتى هذه اللحظة لم تكن فانينا قد دققت بعد في وجه هذا الرجل المتوسط العمر والذي انحنى لها باحترام علماً أنها تعرف جيداً كيف تميز الفرق بين الرجال كبيرهم أو صغيرهم.

فالسيناتور فيندكس هو أكبر بثلاثين سنة من فيندكس الذي يشغل تفكيرها، وهو أخشن وأقوى وأكثر جدية، وكان من الواضح أنه متعود على الإطاعة وعدم النقاش.

استمرت تِرِنْتا في كلامها:

- وهذا ابنه كايوس جوليوس فيندكس.

انحنى هذا الشاب أمام فانينا، ولفت نظرها مدى الاضطراب الذي بدا عليه، وتساءلت لماذا هو في هذه الحال، فقبل يوم كان عندها في بيت راهبات فستا وقام بحركات بهلوانية وجنونية من أجل الوصول إليها، ثم بدأت تحدث نفسها وتقول:

- لماذا وجهه باهتٌ ياترى؟

لم تستطع الفتاة الشابة أن تجد أي تفسير لهذا الاضطراب، ولنظرات التوسل التي كانت تبدو عليه وكأنه يود نقل رسالة لها!.

ظنت الفتاة الشابة أنها تعيش وسط مسرحية اجتماعية كوميدية، وأنها تقف على خشبة المسرح وتشارك الممثلين الآخرين، بصورة لا شعورية. كان كل شخص يلتفت نحو الآخر ويتحدث عن أشياء لا أهمية لها، ويعيد ذكرى بعض الخواطر القديمة، وكان كل شخص يتكلم وكأن على وجهه قناع. فيندكس يقف إلى الوراء قليلاً من والده، وكان السيناتور فانينوس يمسك ضيفه السيناتور فيندكس من ذراعه ويضغط عليها بمحبة، وبعدها بدأ يقوم بحركاته المعتادة لكي يتم مراسم التعارف فقال:

- إن السيناتور فيندكس وابنه هما من سلالة الملك أكيتان، وهم يأتون في صدارة الطبقات التي تمثل الديمقراطية في غالة .

فردت فانينا بصورة لا شعورية:

- هذا يعني أنهم من سلالة ملكية مثلي!.

أحست فانينا بفرح غامر لهذا القاسم المشترك بينها وبين فيندكس وارتسمت على وجهها ابتسامة رقيقة بصورة لا شعورية.

استمر فانينوس في كلامه:

- صداقتنا قديمة. وقد كان لي الشرف أنني زرتهم عدة مرات في مقرهم الصيفي في ليون، أو بالقرب من بوردو!.

كان من شأن تلك الزيارات التي حلَّ فيها فانينوس ضيفاً على هذه العائلة الأصيلة تقوية أواصر الصداقة بين العائلتين، لتصبح بدرجة القرابة تقريباً. كما أنها تخلق روابط تنتقل بموجب العادات والأعراف من جيل إلى آخر.

هذه الروابط يجب أن تستمر إلى الأبد!.

لقد بدا هذا القانون مضحكاً جداً بالنسبة لفانينا. ورسم في خيالها صورة لا تُمحى وهو أنه سيكون سبباً في عذابها. ثم بدأت تستعيد في ذهنها تلك الصورة التي حدثتها عنها فيبديا، وكيف أنهم سوف يضعون الأغلال في عنقه كالعبيد ويجلدونه حتى الموت بسوط مطعم بحبات الرصاص!.

- فانينا.

- يكاد يغمى عليها!.

- إنها تنهار!.

- همونيا امسكيها.

- إجلبي الماء بسرعة.

- أحضرِ الخل. الخل.

كانت مثل هذه الصرخات والاستغاثات تتلاحق في رأس فانينا التي بدأت تعود إلى وعيها بالتدريج، وقد شعرت أن ركبتها التي كانت تجثو عليها قد آلمتها كثيراً. حاولوا مساعدتها لكي تنهض، ثم طوَّقت يدان خصرها، نظرت فانينا إلى الوجوه التي انكبت فوقها، فبدا لها أن وجه فيندكس كان بين هذه الوجوه، وسمعته يصرخ في وجه همونيا بعد أن أبعدها بشدة وهو يقول:

- ابتعدي. إنكم تقتلونها!.

ثم ابتعد فيندكس إلى الخلف بسرعة وكاد يرتمي على الأرض، وعندما دنت ماكسيميليا من فانينا وهي تمسك بمنديل بللته من النافورة، كان الشاب قد اختفى ولم يعد له من أثر. سألتها والدتها تِرِنْتا :

- كيف أصبحت الآن؟

- أفضل. لا أعرف ماذا حدث لي؟

تدخلت همونيا قائلة :

- السبب معروف. أنت منهكة من التعب!. فبالإضافة إلى اليوم الشاق قمت بالمناوبة في الليلة الفائتة!.

فقالت ترنتا وهي تتأسف :

- كم أنا غبية!. فرغم أنني فكرت كثيراً ، لكن لم يكن ليخطر ببالي أبداً أنك كنت مناوبة في المعبد، ونحن نيام. آه ياابنتي المسكينة. هيا تمددي في السرير لكي تستعيدي نشاطك بعض الشيء!

بدأ الدوار الذي أصابها يخف بالتدريج. فكّرت فانينا أن ما حصل لها، هو وسيلة أو جدتها الآلهة لكي يبتعد فيندكس عن هذا المكان. وعندما التفتت إلى الضيوف لكي تعتذر منهم لم تجد أمامها سوى السيناتور الغالي الذي خاطبها قائلاً :

- أنت متعبة ولا داعي لأن تضغطي على نفسك لكي تبقي معنا أيتها العذراء المقدسة. نحن نعرف أننا مدينون جداً لكن لأنكن تقمن بالدعاء من أجلنا في الليل والنهار لترضى علينا الآلهة. لذلك فإن صحتك ياابنتي هي مهمة لنا كصحتنا تماماً. وإذا كنت ترغبين فلابأس من أن تتركينا بمفردنا، ثم إنني متأكد من أن ابني يشاطرني نفس الرأي!.

ثم نظر حوله، وعندما لم ير ابنه كايوس فيندكس، قطب حاجبيه ثم قال :

- أين ذهب ابني؟

أجابه فانينوس.

- رأيته يجري بسرعة، ويبتعد من هنا. ربما ذهب ليحضر الخل!.

وبينما كانت فانينا وأمها تِرنْتا وماكسيميليا والمربية همونيا يصعدن الدرج إلى غرفة فانينا الكائنة فوق صالة اللوحات، سمعن السيناتور الغالي يقول:

- أنا أشعر منذ هذا الصباح أن إبني كايوس فيندكس يقوم بتصرفات غريبة لا أفهمها، وكأنني أمام إنسان آخر، فهذا الشاب المرح ذو الوجه البشوش الضاحك، قد تغيَّر كثيراً وأصبح وجهه متجهماً وكأن هموم الدنيا كلها قد نزلت على رأسه.

عقب فانينوس على ذلك:

- لعله يعيش قصة حب صغيرة. وهذا شيء طبيعي لمن هم في مثل عمره. ثم علت ضحكات الرجلين، وطاردت فانينا حتى غرفتها.



تمددت فانينا في سريرها بعد أن خلعت معطفها وشالها، وحلت شعرها، ولم تكن ترتدي سوى قميص من الكتان الرقيق. ثم بدأت همونيا تمسح جسمها بإسفنجة سبق أن غُطّست بالخل. ارتاحت فانينا بعض الشيء وبدأت تشعر بالانتعاش، وأنها أصبحت أفضل.

فقالت لها أمها:

- حاولي أن تنامي ياابنتي.

- سأحاول إذا تركتموني لوحدي.

نظرت تِرنْتا بوجه ماكسيميليا. فقالت همونيا:

- إذهبا أنتما ولا تتركا سيدي وضيفه السيناتور فيندكس لوحدهما أما أنا فسأبقى هنا.



بعد قليل سُمِع صوت أقدام السيدتين وهما تبتعدان عن الغرفة.

بقيت فانينا ممددة في السرير يعتريها ضيقٌ شديد، وأحست كأنها تسبح في الفراغ وهي واقفة في مكانها. إنها منهكة ولا تستطيع أن تفكر. تصارعت الأفكار في رأسها، وراحت تلف وتدور وتعود إلى النقطة نفسها. لذلك سيطر عليها الشرود بعد أن تمددت في السرير، وهي لا تعرف ماذا ينتظرها!.

لكنها كانت تستطيع أن تميز خيال همونيا رغم أن جفنيها كانا شبه مطبقين. كانت المربية تقف إلى جانب النافذة المغلقة، وكأنها تترقب شيئاً ما سوف يتسرب من خلال زجاج النافذة، الكبير.

فكرت الفتاة الشابة في أن تسألها:

- لِمَ كل هذا الغضب وهذا الغليان الذي سيطر على لحمك وعظامك وكأنك تتوثبين لمقارعة عدو ما؟

كان على الفتاة الشابة أن تقوم بمحاسبة مربيتها عاجلاً أم آجلاً ، ولكنها آثرت أن تؤجل ذلك لأنها منهكة، ولقناعتها أن هذا الموضوع ليس له أهمية قصوى سواء أحدث الآن، أم فيما بعد. ثم فكرت من جديد أن التعجل في هذا الموضوع قد يكون أفضل لوضعها، فقد تستطيع الضجة التي سوف تحدثها هذه العاصفة أن تخلصها من الضيق الذي تشعر به فقالت:

- هيا ياهمونيا ما الذي ترغبين قوله لكي نغلق الموضوع، ولكن أرجو أن تتكلمي بهدوء.

استدارت همونيا فجأة وسارت ثلاث خطوات ووقفت بالقرب من رأس فانينا ثم قربت وجهها من وجه الفتاة. وكانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها الفتاة مربيتها على هذه الصورة، وجهٌ متجهم، وعينان تسمرتا في محجريهما، وشفتان ترتجفان. لا لا،. هذا الوجه المليء بالحقد والغضب لايمكن أن يكون وجه همونيا. وشعرت فانينا أنه وجهٌ غريب عليها.، يوحي أن وراءه أمراً مخيفاً جداً.

انتفضت فانينا لأنها لم تكن تتوقع أن ترى همونيا على هذه الحال فهمست قائلة:

- همونيا. همونيا ما بك؟

حبست همونيا تنهيدة كانت على وشك أن تخرج من صدرها، ثم مالت على الفتاة الشابة وحضنتها بانفعال حتى كادت عظام صدرها تتهشم، ثم قالت وهي حزينة:

- آه من ذلك الوحش. يريد أن يقضي عليك. لقد جاء إليك حتى بيت والدك. لكنني أقسم لك أنني سأقتله. سأسحقه. وسوف أقطعه إرباً. سأمطره بلعنتي حتى آخر رمق من حياتي!.

دفعت فانينا عنها همونيا بقسوة وسألتها:

- عمّن تتحدثين ياعزيزتي؟

- عمّن تريدينني أن أتحدث؟ أتحدث عنه طبعاً، لأنه يريد قتلك بسرعة. لقد تبعك حتى هنا، كايوس فيندكس!.

فصرخت فيها غاضبة بصورة لا شعورية وقالت لها:

- اخرسي.

- هل تريدينني أن أخرس وأنا أراه يسعى للقضاء عليك!. أهذا ما ترغبينه؟

قالت همونيا هذا، وجثت على ركبتيها وحضنت الفتاة بحنان وبدأت تهذي.

- الذنب ذنبي. لم أكن أعرف كيف يجب أن أحبك!. لم أكن أعرف كيف يجب أن أقوم بتربيتك. ولم أعلمكِ كيف تحمين نفسك من الوقوع في الفخ، ولم أستطع أن أحميكِ من الوقوع فيه. كان يجب عليَّ أن لا أسمح لك أبداً بارتداء هذا الزي المنحوس دائماً. أنا لم أدافع عنك بما فيه الكفاية. لقد كنتُ حمقاء غافلة، وتصرفت بأنانية ولم أفكر سوى بالسعادة التي كنت أستمتع بها وأنا في كنفك!.

ثم مدت يديها إلى وجه الراهبة فجأة وبدأت تداعبها، وبعد أن تأمّلت وجهها ملياً ضغطت بيديها على كتفها ثم عادت للهذيان.

- إذا كانت الآلهة تحتاج إلى روح، فلتأخذ روحي أنا!. فأنا لم أعد أفيد بأي شيء. حتى أنني عشت أكثر من اللازم، لتأخذني عوضاً عنك وليدفنوني حيّةً في التراب، وإذا أرادوا فليقطعوا لحمي بملاقط حامية. ليميتوني وليطبقوا علي جميع أنواع التعذيب، حتى ألفظ أنفاسي الأخيرة، وإذا كانت هنالك من عقوبة يجب أن تطبق عليك لأنك ارتكبت ذنباً، فأنا مستعدة لتحمل عقوبة الآلهة.

ردت فانينا بهدوء:

- إذا كان ثمة ذنب، فأنا الذي اقترفته وليس غيري.

فهبت همونيا واقفة وقالت والشرر يتطاير من عينيها:

- أي ذنب يمكن أن ترتكبيه أنت ياملاكي المسكينة؟ وإذا كان الواجب قد فرض عليك أن تكوني إحدى راهبات فستا، فالذنب يقع على عاتق كلٍّ من أمك وأبيك وفبيديا، وأنا، والأمبراطور. نحن المسؤولون، لأننا لم نعلمك الاعتماد على نفسك وكيف تحمينها حين تتعرضين لتصرف إنساني يخالف التعليمات المعطاة لك.

ومرة ثانية ضمَّت همونيا المسكينة فانينا بين ذراعيها وبدأت تدلعها كما لو كانت طفلة صغيرة ثم قالت لها بصوت يكاد يختنق:

- ولكن ماالفائدة فأنت التي ستواجهين بمفردك مخاطر هذه العقوبة. فباسم الحفاظ على الأخلاق المقدسة في هذه المدينة، التي أصبحت الأكثر فساداً في العالم سيدفنونك حية، ويلقون فوقك التراب بعناية كي يمحوا آثار جريمتهم.

إنتفضت فانينا وقالت هامسة:

- اسكتي من فضلك.

دنت همونيا من وجه فانينا وقالت لها:

- إنك تخافين الآن، أليس كذلك؟ لابد أنك أصبحت تدركين المخاطر المخيفة التي جعلك فيندكس عرضة لها!.

هدأت فانينا من روعها بعد أن سمعت كلمة فيندكس وقالت :

- صحيح أنه جعل حياتي محفوفة بالمخاطر، ولكنني أقسم أنه لم يكن يود ذلك.

- إذن هو شاب مجنون!.

- كلا إنه ليس مجنوناً.

- مادام ليس مجنوناً، فهذا يعني أنه يريد قتلك!.

- كيف تتجرؤين على قول كلام كهذا؟

كانت الشابة والمربية قد دخلتا في سجال وكانتا تتحديان بعضهما ثم تتنهدان. لم يعد بإمكان فانينا أن تتراجع، وعلى همونيا الانصياع للأمر الواقع.

- إنه عديم الأخلاق، يريد موتك!. يجب أن تضعي ذلك في الحسبان، حريٌّ به لو أنه شهمٌ ألاّ يعرِّض إحدى راهبات فستا لهذه المخاطر. إنه بتصرفاته الخبيثة هذه كأنه قد غرز في قلبك خنجراً ليقتلك!.

- اسكتي لكي لا أكرهك.

- حاولي إذا كان هذا بإمكانك، إن كُرهك لي لا يمكن أن يُنسيني أصدقاء هذا الشاب الذين لم يكونوا جيدين أبداً كصداقة السيناتور فيندكس مع والدك. وأنت إذا فكرت قليلاً فسوف تعرفين من كان إلى جانب فيندكس عندما وقف أمام عربتك، وبدأ يتأملك. لقد كان إلى جانبه ابن فيتالوس ، فيتالوس الصديق الحميم لصاحب اللحية البرونزية أليس كذلك؟ والآن حاولي ربط الأمور ببعضها، فصاحب اللحية البرونزية هو عدو والدك ياابنتي، وهو يريد أن يجعل منك مطية لكي يشوِّه سمعة والدك ويقضي عليه، وقد أقسم بذلك. نصبوا الفخ، ولم يبق أمام كلافينوس وصاحب اللحية البرونزية سوى انتظار الفريسة التي ستقع فيه، وأنا أقسم أنك تدركين كما أدرك أنا أن فيندكس ذا الحظ السيء هو الذي سوف يقع في هذا الفخ!.

في هذه الأثناء سُمِعَ أحدهم يصرخ قائلاً :

- أنت تكذبين. إنني أحبها.

بعد ذلك فُتح الباب وكان فيندكس واقفاً عند العتبة والشرر يتطاير من عينيه.



هبت همونيا واقفة وقد فغرت فاها، أما فانينا فقد اعتدلت في سريرها، وتبعثر شعرها الذهبي، وراحت عروق عنقها تنبض، وعجزت عن النهوض.

كرر فيندكس كلامه: ـليس صحيحاً ما تقولينه، إنني أحبها.

ثم وقف صامتاً وهو ينظر في وجه همونيا دون أن يرف له جفن. كان كلامه الصادق هذا قد دخل إلى أذن فانينا كأعذب لحن موسيقي.

صرخت المربية صرخة مخنوقة وارتعشت جميع أوصالها ثم قالت له غاضبة:

- اخرج من هنا.

- لا يمكن أن أخرج من هنا قبل أن أقول ما أريد!.

أنشبت همونيا أظافرها وكأنها تريد أن تفقأ عينيه، ثم سارت باتجاهه وكررت كلامها:

- قلت لك اخرج من هنا!.

استغربت فانينا تصرف همونيا وقالت لها متوسلة:

- أرجوك لا تفعلي ذلك!.

أصبح وجه همونيا كالشمع الأصفر ثم قالت:

- هذا يعني أنك تبغين الموت، وتريدين أن يقبضوا عليه وهو داخل غرفة نومك لكي تكتمل فصول المسرحية!.

ثم سارت نحو الباب وقالت:

- ما دمت لا ترغبين في خروجه من الغرفة، في هذه الحالة فأنا مضطرة لطلب النجدة!.

أراد فيندكس أن يوقف هذه السيدة فمسكها بيده وقال:

- أقسم لك باسم عبيد والدتي أنني سأتحمل الذنب كله على عاتقي.

هذه الجدية في الكلام وهذا القسم غير المنتظر جعل همونيا تقف مشدوهة وهي تنظر إلى فانينا التي لم تتحرك من مكانها.

ثم استمر الشاب في حديثه وهو متردد:

- أود أن أؤكد لكما أنني لم أكن أعلم حتى مساء أمس أنهم يريدون أن يطبقوا على فانينا المحترمة الأساليب البربرية نفسها التي يطبقونها عادة على راهبات فستا.

وبعد أن احمر وجهه استدار نحو الفتاة الشابة وقال لها:

- هل تعذرينني؟

فهمست فانينا:

- إنك لم تكن تعرف. وأنا لم أخبرك لأنني كنت أفكر بما سيحل بي.

كانت همونيا تنظر إلى هذين الشابين وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما فقالت:

- إنكما تتحدثان مع بعضكما وكأنكما تعرفان بعضكما البعض.

فاعترفت فانينا بهدوء:

- البارحة مساءً كان فيندكس في غرفتي.

فسألتها همونيا باستغراب:

- ماذا تقولين؟ هل تجرأت على فعل ذلك؟ لعلك أنت الذي ساعدته في الدخول إلى غرفتك؟

- إنه أيضاً سيتعرض لعقاب مخيف ولو كنت أعرف ذلك لما ساعدته.

هجمت همونيا على فيندكس وبدأت تجره من حزامه وتصرخ به قائلة :

- بعد أن لمست هذا الشعور الطيب وهذا الكلام الجميل الذي امتدح به السيناتور فانينوس صديقهِ، والدك، استغربتُ كيف اصطحبك والدك معه إلى هنا؟

قطب فيندكس حاجبيه وأبعد يد همونيا عن حزامه بقسوة ثم قال :

- عندما قال والدي إنه ذاهب إلى منزل فانينوس، اختلط الأمر في ذهني فهناك صديقان لوالدي بالاسم نفسه، ولم أستطع أن أقوم بمقاربة بين هذين الاسمين وهو ما أثار دهشتي عندما شاهدت فانينا!.

تدخلت فانينا وقالت :

- أنا أصدقك. ثم استندت إلى الجدار وسألت فيندكس باستغراب :

- هل تريد أن تقول إنك قد أتيت إلى هنا بدون علم!.

- ليقضِ عليَّ مارس المنتقم إذا كنت أكذب!.

فقالت همونيا والخوف يعتريها :

- هذا غير ممكن. غير ممكن. لا يمكن أن تكون هذه إرادة الآلهة، لأن هذا العمل غادر، ثم صرخت مرة ثانية وهجمت على فيندكس وقالت له :

- من الأفضل لك أن تعترف أن هذه الأمور مدبرة ومرتبة، وأنك متعاون مع دوميتيوس ذي اللحية البرونزية، ثم إنني أريد أن تفسر لنا سبب وجودك مع ذي اللحية البرونزية، وفيتالوس ابن صديقه الثعلب!.

نفض فيندكس كتفيه وقال لها :

- كنت أنتظر سؤالك هذا بعد الكلام الذي سمعته منكِ قبل قليل. أما صاحب اللحية البرونزية دوميتيوس، فأريدك أن تتأكدي أنه لا تجمعني معه أية رابطة، وأحب أن أضيف أن والدي قد جاء إلى روما لكي يشرح أمام مجلس الشيوخ جميع

الفضائح التي ارتكبها هذا الرجل في غالة ، بالإضافة إلى الأموال العامة التي اختلسها، وقد كلف فانينوس والدي أن يقوم بعرض هذه الأضابير التي ساعدتُ والدي بتنظيمها على لجنة المتابعه. أما الشاب فيتالوس فلم أكن على معرفة به قبل مجيئنا إلى روما، لكنه أصبح أفضل أصدقائي ولم يعد يفارقني أبداً وكان يدور حولي كالمروحة:

ثم تابع هذا الشاب الغالي حديثه بعد أن توقف لبرهة قصيرة. ـاستمرت علاقتنا على هذا المنوال إلى أن عرفت أن أباه هو صديق ذي اللحية البرونزية.

- وماذا حدث بعد ذلك:

تجهم وجه فيندكس وأجابها:

- لو لم يخلصوه من يدي، كنت قد قطعته إرباً، إرباً.

بعد أن سمعت همونيا هذه الأجوبة، غطت وجهها براحتيها وبدأت تهز رأسها وتلطم وجهها وتقول:

- الآلهة. هذه هي مشيئة الآلهة!.

بعد ذلك نظر فيندكس إلى المربية ثم إلى فانينا وسأل:

- هل صحيح أن فانينا معرَّضة لخطر الموت؟

أومأت همونيا برأسها وكأنها تقول نعم.

فتابع فيندكس سؤاله:

- وهل هذا بسببي أنا؟

وقبل أن تترك فانينا مجالاً لمربيتها لكي ترد عليه انتصبت جالسة على السرير وقالت لفيندكس:

- لا ذنب لك أبداً. لكنني أرجوك أن تذهب، فذهابكَ أفضل ألف مرة من بقائك هنا!.

توجه فندكس نحو الفتاة الشابة وقال لها والشرر يتطاير من عينيه:

- كيف تريدينني أن أتركك وأنت في خطر؟ لن يكون هذا أبداً.

تعلقت همونيا بحزام الشاب مرة ثانية وبدأت تجره إلى الخلف. لكن فيندكس كان يتابع حديثه دون الاهتمام بما تفعله همونيا.

- سأقوم بتجريم نفسي، وسوف أسلم نفسي إلى مجلس الشيوخ، ومجلس الرهبان، والإمبراطور وأقول لهم إنني المذنب الحقيقي، وإنني أنا الذي يستحق الموت.

فاعترضت فانينا قائلة:

- أبداً إن من يستحق الموت في الأصل هو أنا.

لم يعد يفصل بين الاثنين سوى خطوتين، وقد وقفا أمام بعضهما البعض وبدا كأن كلاً منهما يتحدى الآخر.

أصرت الراهبة الشابة:

- أنا التي يجب أن تموت. اهربْ أنت.

- كلا، بل أنا من ينبغي أن يموت.

بعد ذلك وقفت همونيا بين الاثنين وقالت: ـ كلاكما مجنونان.

ثم حاولت أن تبذل أقصى ما في وسعها، لكي تسحب فيندكس حتى الباب فقال فيندكس وهو يلهث:

- لن أعيش بعدها إذا ماتت. سوف أموت معها!.

اقتنعت فانينا بما قاله فيندكس، فلقد اكتشف الطريقة الوحيدة للحل:

نعم سوف يتحدان إذا ماتا مع بعضهما البعض. وسوف يمسكان بأيدي بعضهما ويغادران هذه الدنيا التي تريد أن تفرقهما عن بعضهما البعض. استعدت الفتاة الشابة لكي تعبِّر لهذا الشاب عن هذه الرغبة التي تولَّدت لديها الآن، وفي الوقت الذي كان فيه هذان العاشقان يرغبان في أن يرتمي كل منهما بين ذراعي الآخر، وجدا همونيا أيضاً بينهما وقالت لهما وكأنها تتحكم بهما:

- أبداً. هذا غير ممكن ياولديّ. أنا أعرف ما تريدان، ولكن يجب أن لا تنسيا أنني إلى جانبكما. وقبل أن تقتلا نفسيكما أمام مرأى أبويكما، يجب أن تقتلاني أنا.

بعد ذلك دفعت همونيا فانينا على سريرها والتفتت نحو فيندكس، وبدأت تتكلم بصوت هادئ ملؤه الشفقة والحنان وهي تحاول تخفيف مشاعر الحزن التي سيطرت على الجميع فقالت:

- ما دام فيندكس لا علاقة له بأولئك الأشرار فإن الأمور سوف تسير على مايرام، خاصة وأنه لا توجد جريمة علنية، يكفي أن تقطعا وعداً على نفسيكما أن لا تلتقيا مرة أخرى. وإلا فسوف تكونان أنتما الاثنان أمام مأزق خطير. لذا يجب عليك يابني أن تبتعد عن روما، وأنت ياابنتي عليك أن لا تغادري الدير لفترة طويلة من الزمن، وأعتقد أن رئيسة الراهبات التي تحبك كثيراً سوف تكون سعيدة بهذا الوضع.

كانت فانينا تحاول أن تهدئ من روعها شيئاً فشيئاً بينما كانت المربية مستمرة في حديثها:

- سوف تعانيان كثيراً في بداية الأمر، ولكنكما سوف تتعودان بعد ذلك. وإذا كنتما تثقان بقوة الحب الذي يربطكما فإنكما سوف تلتقيان مرة أخرى عندما تصبح فانينا حرة!. ولن تكونا أنتما أول حبيبين ينتظران كل هذه المدَّة الطويلة لكي يتذوقا طعم السعادة!. وهناك أمثلة كثيرة مشابهة أستطيع أن أرويها لكما إذا كنتما ترغبان!. فيندكس، يابني، أنت رجل وتعرف أن هناك كثيراً من الجنود ينتظرون عشر سنوات أو حتى عشرين سنة ليتمكنوا من الزواج ممن يحبون، وإن العشرين سنة تمر بسرعة أكثر مما تتصوران!.

كانت همونيا تقول ذلك وهي تدفع فيندكس بلطف نحو الباب، وعندما وصلا إلى عتبة الباب التفت الشاب نحو فانينا، الراهبة الشابة وتخيل حبيبته وقد أصبحت عجوزاً.

لاحظت فانينا فجأة أن هذا القميص الهفهاف الذي ترتديه والمصنوع من قماش رقيق جداً قد كشف كل خفايا جسمها بدلاً من أن يسترها وقد ظهرت يداها المعقودتان على صدرها. وظهر كتفها وعنقها وحتى بعض الأطراف الوردية من صدرها.

لذلك قفزت من سريرها بدون أن ترى ضرورة لكي تستر ساقيها بهذا القميص ثم دنت من الشاب لكي يراها بشكل أفضل فأسبلت ذراعيها جيداً ووقفت أمامه وبدأت تتكلم بصوت هامس والدموع تنهمر من عينيها:

- حتى ولو كنت مثل باقي الشابات، وحتى إذا شعرت أنني أستطيع أن أبوح لك بشعوري نحوك، فإنني لن أجرؤ على البوح به الآن، ياكايوس جوليوس فيندكس. لكن أريدك أن تعلم أنني أحبك أكثر مما تتصور، ولن أحب أحداً سواك.

شعر فيندكس برغبة عارمة في أن يأخذ حبيبته بين ذراعيه فتقدم نحوها ولكن همونيا كانت له بالمرصاد فسحبته من حزامه وقالت وهي تبكي:

- يجب عليك أن تفرِمَني قبل أن تصل إليها.

ثم تابعت بلطف زائد:

- انظر إلى فانينا!. كم هي عاقلة. عليك أن تحاكيها تعقُّلاً أيضاً لكي تكون جديراً بها.

ثم قالت له فانينا:

- أرجو أن تسمعني جيداً يا فيندكس: لا تحاول أن تثيرني، ولا تُصعب أمور الفراق كثيراً. اذهب ولا تحاول أن تراني بعد الآن. كما لا تحاول أن تنتظرني فأنا أخشى من أن تُحبط عندما تراني بعد عشرين سنة، وقد تجدني غير لائقة بك.

بعد ذلك قامت الفتاة الشابة بعدة حركات ، لبست معطفها ووضعت الطرحة وغطت بها رأسها، ولم يعد يظهر منها سوى وجهها البيضاوي ثم سارت نحو النافذة وفتحتها على مصراعيها.

أرادت أن تتنفس بعد أن اتخذت هذا القرار الصعب وأبلغت فيندكس أن قصة الحب المؤلمة التي ارتبطا بها قد وصلت إلى نهايتها. وعزمت أن تظهر أمام الآخرين أنها قوية وتستطيع التغلب على القوى التي تشدها نحو هذا الشاب والتخلص من نظراته النارية. إلا أنها وبشكل مفاجئ تسمَّرت في مكانها. لقد شاهدت عند معبد سيريس الذي يبعد مئة خطوة عن بيتها، شخصاً يقف وسط الجماهير التي جاءت من كل حدب وصوب، وهو يراقبها. كان ذاك هو نفسه الذي كان يلبس قفطاناً بلون الصدأ ويضع على رأسه طاقية لا تكاد تظهر من تحتها حتى عيناه، ذاك القصير القامة والعريض بشكل مذهل، ذو اليدين الضخمتين المتدليتين نحو الأرض.

أطلقت فانينا صرخة خوف :

همونيا. انظري هناك. أمام معبد سيريس. القزم هناك!.

فسألتها همونيا ماذا تقولين؟ القزم الذي كان يرتدي قفطاناً جلدياً هو هناك؟ أنا متأكدة أنه أحد جواسيس كلافينوس، أو ذي اللحية البرونزية.

ثم اختنق الكلام في حنجرة المربية، عندما أبعدها فيندكس بيده حتى كادت أن تسقط فوق فانينا. دُهشت فانينا لمنظر الشاب فيندكس الذي أصبح وضعه سيئاً للغاية، وأصبح وجهه شاحباً لا أثر للحياة فيه، وانتصب شعر رأسه واحمرت عيناه وكادتا تخرجان من محجريهما، كما صارت شفتاه كالخيط الرفيع وهيأ قبضته وكأنه مارِسْ إله الانتقام ثم هتف قائلاً :

- أقسم باسم هرقل أنني سأخنق هذا المخلوق بيداي سواء أكان قزماً أم عملاقاً. لكي لا ينقل ما يراه إلى ذي اللحية البرونزية.

وما أن انتهى من كلامه هذا حتى هبط الدرج بسرعة، فهرعت المرأتان خلفه، ولكنهما لم تتمكنا من اللحاق به. شاهدتاه وهو يخرج من باب صالة العرض ذات الأعمدة، وعندما رجعتا إلى غرفة فانينا ونظرتا من النافذة كان قد دلف إلى المنزل الخارجي.

وصفقت همونيا يدها على صدرها وكأنها تشعر أنها ستختنق، وتصببت حبات العرق على جبينها وبدأت بالنواح.

- آه. إنه مجنون. آه. من المؤكد أنه سيكون هذه المرة السبب في القضاء على فانينا!. ماذا أفعل ياإلهي؟

كانت هذه المرأة المسكينة الحزينة تتابع حديثها بنفس الطريقة وقد استندت على إطار النافذة. وقالت:

- سوف يقتله هذا القزم حتماً!. لأن فيندكس ليس لديه قوة هذا الوحش.

التفتت فانينا بعصبية ونظرت إلى المعبد، فشاهدت القزم وهو يهز ذراعيه الطويلتين، والناس يبتعدون من حوله وكأنهم يفتحون له الطريق، كان يمر بلا مبالاة وهو يترنح على رجليه العرجاوين، ويسير باتجاه ساحة بالاتين.



في هذه الأثناء كان كلٌّ من والدة الفتاة الشابة ووالدها والسيناتور فيندكس والراهبة ماكسيميليا يخرج بسرعة من صالة اللوحات:

فقالت تِرنْتا:

- لقد سمعت صوت ضجة عند الدرج!.

فسأل فانينوس باستغراب:

- ما سبب هذه الضجة ياترى؟

فأجاب السيناتور الغالي:

- أراهن على أن لولدي إصبعا في هذه الضجة. فما دام كايوس فيندكس موجود هنا، فاحتمال أن يكون هو سبب المشكلة لا يقل عن تسعة من عشرة.

فقال له فانينوس ممازحاً:

- إذن ابنك له قلب من ذهب، ولكنه مندفع أكثر من اللزوم، وأرجو أن لا تغضب فالشاب فيندكس هو غالي حقيقي يا صديقي.

- ما تقوله صحيح ففي هذا الصباح ضرب ابن فيتالوس ضرباً مبرحاً. هل تعرف ما هو السبب، لقد ضربه لأنه علم أن عائلة ذلك الشاب المنافقة الأصدقاء المخلصين لصاحب اللحية البرونزية.

عندما وصلا في حديثهما إلى هنا، ظهر كلافيتور الأيبيري رئيس العبيد في صالة العرض بعد أن رجع من المهمة التي أرسله سيده فانينوس من أجلها. فسأله فانينوس:

- هل التقيت بابن السيناتور فيندكس؟

تبسم الأيبيري وقال:

- كاد أن يوقعني أرضاً أيها السادة. ورأيته قد خرج من الباب وهو يركض باتجاه ساحة بالاتين بدون أن أفهم منه ماذا حدث!.



كانت فانينا وهمونيا قد خرجتا إلى الصالة ذات الأعمدة وهما مطأطئتين رأسيهما فرأتا ماكسيميليا في انتظارهما، ولكنها لم تستطع أن تقرأ شيئاً في وجهيهما عندما شاهدتهما، فقد كانت كعادتها دائماً تراقب كل ما يحدث بصمت لكنها سألت فانينا عندما لاحظت آثار الحزن بادية عليها:

- أرجو أن تكوني أفضل حالاً!.

- مع الأسف أنا لست بحال أفضل يا عزيزتي ماكسيميليا!.

- هل سمعت الضجة التي حدثت عند الدرج؟

كانت ماكسيميليا تنتظر بفارغ الصبر الجواب الذي ستقوله الفتاة الشابه فحاولت فانينا أن تبتسم وقالت:

- وهل من الممكن أن لا أسمعها؟ حتى أنني شاهدت ابن السيناتور فيندكس وهو ينزل كل أربع درجات مع بعض!

نظرت ماكسيميليا إلى فانينا بجفاء وكأنها تضع قناعاً على وجهها، كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها فانينا إحدى راهبات فستا على هذه الصورة.

ثم سألت ماكسيميليا بقسوة:

- هل كان الشاب معك في غرفتك كل هذه المدة؟

شعرت همونيا بقرب وقوع الكارثة فتدخلت في الحديث وهي تريد أن تصحح كلامها.

- نعم لقد كان هذا الشاب معنا أيتها العذراء المحترمة، لقد كنت أنا مع فانينا وكانت النافذة مفتوحة على مصراعيها، وكنا نقف قرب النافذة ونتحدث بأحاديث مختلفة، ولا أعرف ماذا شاهد الشاب. فقد ترك الغرفة بسرعة وانطلق كالسهم!.

ارتاحت ماكسيميليا لهذا الجواب:

لكن المربية تابعت كلامها بسخرية:

- ولكن لماذا كل هذا الاهتمام بهذا الغالي أيتها العذراء المحترمة؟

احمر وجه الراهبة المتوسطة العمر حتى وصل الاحمرار إلى جذور شعرها، وهمهمت قائلة:

- لأن كلاً منا يريد أن يعرف سبب هذه الضجة المرعبة.

ثم أضافت وهي تريد أن تغير مجرى الحديث:

- يجب أن نعود إلى بيتنا بسرعة ياعزيزتي فانينا، فقد حان موعد انتهاء مناوبة آنيا.
كانت فانينا تنتظر على أحر من الجمر أن يعود كايوس فيندكس بسلام وتطمئن عليه قبل أن تغادر. لكنها لم تكن ترغب في الاعتراض على كلام ماكسيميليا. لذلك خرجت الراهبتان تصحبهما المربية وركبتا مركبتهما، وسارت المركبة نحو ساحة بالاتين.

كان الزحام على أشده في الساحة، إلى حد لو رُميت إبرة لما لامست الأرض. كان ثمانية من الحمالين النوبيين الأشداء يحملون المركبة وقائد القافلة يطلق الأوامر يميناً وشمالاً، وبشق النفس وجد طريق قافلته.

اضطربت فانينا إذ داهمها ضيقٌ شديد، فراحت تنقل النظر بلهفة من خلال ستائر المركبة، وقلبها يكاد يتمزق. تبحث عن فيندكس. أين هو ياترى؟ وأين ذلك القزم ذو القفطان الجلدي؟ وهل قابله فيندكس أم لا؟ وإذا كانا تقابلا فما الذي حدث؟

بلغ الازدحام اشده عند معبد باخوس، الأمر الذي اضطر الحمالون للتوقف. تعالت أصوات الناس من حول المركبة، وراحوا - وقاماتهم تنتصب على رؤوس أصابع أقدامهم - يشيرون إلى شيء ما كان تحت أحد أعمدة بناء فخم، يقف أمامه عشرة جنود مكلفين بحفظ الأمن.

ولكي تشاهد فانينا ما يحدث بشكل أفضل، فتحت الستارة أكثر، فشاهدت رجلاً يبيع موادَ كبريتية وقد تجمع بعض الناس من حوله وهم يمطرونه بأسئلتهم وكان يجيبهم وهو مضطرب.

سألته إحدى السيدات البدينات وقد بدت عيناها زائغتين:

- متى حدث ذلك؟

- قبل قليل. لقد كنت جالساً مع بلوتيوس مربي الحمام على درج المعبد، وكان خلفنا اثنان يتجادلان، وفجأة بدأت الشتائم، وبدأ العراك، كان العراك مخيفاً، ولن أنسى ما سمعته ورأيته طول عمري.

ـ هذا يعني أنك شاهدت كل ما جرى؟

- لم يكن بوسع أحد أن يرى شيئاً، إذ لم يكن من الممكن المرور من هنالك بسبب الزحام الشديد.

- أكان الموضوع مجرد عراك؟

- إذا كان ما جرى مجرد عراك فمعنى ذلك أنه انتهى بسرعة. لكن الغريب، كيف استطاع الثاني أن يهرب، ويدلف من زاوية المعبد دون أن يراه أي من الجنود!.

- حسناً أين الرجل الشاب؟

- في المكان الذي يقف فيه الآن. انظروا. أسفل ذلك العمود!.

نظرت فانينا إلى المكان الذي أشار إليه الرجل فشاهدت بقعاً وردية اللون بطول إنسان كامل قد انتشرت على أحد الأعمدة، ورأت ذبابات زرقاء تتطاير فوق هذه البقع، ورأت عند أسفل هذا العمود شاباً يافعاً قد تكوَّم ورأسه إلى الخلف، وفمه مفتوح، ولم يعد بالإمكان التعرف عليه، فقد كانت الدماء تنفر من رأسه وتتدفق ببطء فوق الأحجار.

صرخت الراهبة الشابة:

- فيندكس: ثم سقطت، مغمى عليها.



القسم التاسع

نزلت على خدها صفعة قوية لسعتها كالسوط، ثم أعقبتها، اثنتان، خمس، عشر صفعات أخرى. كانت فانينا مستلقية على الأرض في قسم حرس فستا، وكان خداها كالجمر، بعد ذلك فتحت طرفي عينيها، وبينما كانت فبيديا تهيء نفسها لكي تنزل عليها صفعة أخرى، لمعت عينا رئيسة الراهبات كالزجاج، وعضت على أسنانها بغضب والتفتت إلى همونيا الواقفة إلى جانبها وقد اصفرّ وجهها وأمرتها قائلة:

- ها قد بدأت تصحو. ساعديني لكي نجعلها تقف على قدميها!.

أمسكت السيدتان فانينا من أسفل إبطيها، وأوقفتاها، وهي لا تدري فيما إذا كانت قد استطاعت الوقوف بمفردها جيداً أم أن رجليها كانتا غير منتصبتين. لكن رأسها كاد ينفجر من الصداع، ثم بدأت تنوح وتبكي وهي تقول:

- لقد مات، أليس كذلك؟

- ليته مات!

- ليته مات!

نظرت فانينا إلى فبيديا أولاً، ثم همو نيا وسألتهما باستغراب!.

- وإلا ماذا. وإلا ماذا؟

فقالت فبيديا لفانينا وهي تزجرها:

- اسكتي الآن، وتابعي طريقك، أنا لا أريد منك شيئاً غير ذلك!.

سحبت السيدتان فانينا حتى باب الباحة المحيطة بالمعبد، وهنا زجرت فبيديا فانينا مرة أخرى وقالت لها:

- قلت لك قفي على قدميك، واحترمي الزي الذي ترتدينه على أقل تقدير!.

وصلت الفتاة إلى الباحة وهي لا تعرف ماذا جرى لها، ثم مررن الثلاث من جانب المعبد ودخلن بيت فستا وصعدن الدرج، ووجدت فانينا نفسها أخيراً في غرفتها فأخذتاها، فبيديا وهمونيا، إلى سريرها فوراً، فاستلقت وأسندت رأسها على الوسائد ثم أغمضت عينيها.

وقفت رئيسة الراهبات وهمونيا إلى جانب السرير وبدأتا تنظران إليها. فقالت المربية:

- أقسم لك أيتها الراهبة أن كل شيء قد جرى كما قلت لك تماماً، ولم يكن هناك أي تخطيط مسبق!.

قطعت فيبيديا كلام همونيا بقسوة وقالت لها:

- لا أريد أن تلقي عليَّ خطباً ياهمونيا. فأنا أعلم أن فانينا لا ذنب لها فيما حصل!. ولكن الذنب يقع عليه هو. آه لو وقع بين يداي!.

- حتى هو لا ذنب له، أيتها العذراء المقدسة، ولم يكن وجوده سوى محض صدفة، لقد ساقته الآلهة إلى ذلك المنزل.

التفتت فانينا وقالت وهي تهذي.

- لقد مات أليس كذلك؟

فزجرتها رئيسة الراهبات:

- كيف تجرؤين على سؤالي مثل هذا السؤال؟

كاد قلب فانينا يتوقف، وشعرت أن صدرها قد انقبض فجلست في سريرها بعد أن استندت على مرفقيها، ثم استدارت وأنزلت قدميها إلى الأرض، ونهضت من

السرير، وخطت خطوة واحدة نحو فيبديا، كان وجهها شاحباً كالأموات وتكلمت ببطء شديد وهي تضغط على أسنانها وقالت:

- حافظي على توازنك أيتها العذراء المقدسة لكي لا تنهاري!. فأنا سأقتل نفسي إذا كان قد مات!.

عندما سمعت همونيا ما قالته فانينا تحركت نحو فانينا، وكأنها تريد أن تمنعها.

لكن الفتاة الشابة أمرتها قائلة:

- لا تتحركي من مكانك.

ثم التفتت إلى رئيسة الراهبات وقالت لها ثانية:

- سأقتل نفسي أمام ناظريكِ، ولن تستطيعي منعي.

وبينما كانت الراهبة الشابة تتكلم، دست يدها بهدوء داخل قميصها وأخرجت جسماً أسود اللون ذا رأس مدبب كرأس الحربة، وكررت ما قالته:

- نعم سأقتل نفسي هذه الليلة، وبهذا الطلسم القيِّم الذي قدمه لي الإمبراطور، بهذا المبضع المصنوع من البرونز!.

بقيت الراهبتان لفترة تنظران في وجهي بعضهما البعض وهما صامتتان، فقطعت فيبديا هذا الصمت وتكلّمت وهي تكاد تختنق:

- لايذهبن الظن بك بعيداً، ، نعم كانت هناك جثة ميت أمام معبد باخوس، ولكن ليس كما ظننت.

شعرت فانينا ببعض الفرح ثم التفتت وهمست:

- إذن هو حي. أليس كذلك؟

- نعم إنه على قيد الحياة !.

- إذن من هو ذلك الشخص الميت الذي شاهدته أنا؟

رفعت فبيديا كتفيها وقالت: يبدو أن ما شاهدتِهِ هي جثة شخص آخر غير معروف.

ولكن إذا كان ما قالته همونيا صحيحاً، فإن سبب ظهور هذه الجثة أمامك هذا اليوم وعلى قارعة الطريق، هو بفعل قوى خارقة خارجة عن قوة الشاب فيندكس، وهذا لغز له معنى كبير. إنه علامة. بل هو رسالة لك يا فانينا. إنها رسالة الآلهة !.

قطعت الراهبة الشابة كلام فبيديا وسألتها:

- وماذا عن القزم، ذي القفطان الجلدي. هل نال منه فيندكس؟

- لا أعلم. ولكن كل ما استطيع قوله هو أن هذا الغالي قد ذهب إلى بيت والدك قبل فترة وجيزة من وصولك إلى هنا!.

لم تعد فانينا تقوى على الوقوف فتمددت فوق سريرها، ثم أخرجت المبضع البرونزي من صدرها وألقت به على الأرض ثم قالت وهي تتنفس الصعداء:

- أشكرك يا فبيديا. والآن يمكنك القيام بالأدعية اللازمة وتقديم النذور للألهة كما تشائين.

نظرت رئيسة الراهبات باستغراب وقالت لها:

- يجب أن أجلدك حتى تنفر الدماء من جسدك!.

فقالت لها الراهبة الشابة وقد أحنت رقبتها:

- يمكنك القيام بذلك إذا كنت ترينه ضرورياً؟

ثم أمسكت كفيّ فبيديا ودفنت وجهها بينهما، وقالت بصوت مخنوق:

- كنت سأقتل نفسي، لو مات فيندكس، ولكن يكفيني الآن أنه على قيد الحياة وأن أعرف أنه يتذكرني دائماً، وأنا أقسم لك أنني لن أحاول أن أراه ثانية إذا تأكدت أن حياته غير مهددة، ولن أدعه يراني بعد الآن وسأنفذ كل ما طلبته مني.

بدرت ابتسامة خفيفة من زاويتي شفتي رئيسة الراهبات وقالت بهدوء:

- وأنا بالمقابل لن أتصرف معك بقسوة. مع أنني أعتقد أن تسامحي معك سوف يشكل خطراً عليك. أكثر من خطر أعدائك!.

كانت رئيسة الراهبات تتكلم وقد أطبقت كفها وهي تسير نحو النافذة، ثم فتحتها بحركة عصبية وأغلقتها بسرعة وقالت:

- ها قد جاء كلافينوس!.

أطبقت هومنيا قبضتها وقالت:

- الكلب القذر.

ثم قلبت فبيديا شفتيها وقالت:

- وهل كنتما تظنان أنه يمكن أن يتركنا نرتاح؟ كلافينوس لا يغفل عن شيء، وإذا لم يفاجئه الموت فإنه سيظل يلاحقنا حتى آخر رمق في حياته.

- ألا تستطيعين أيتها الراهبة المقدسة أن تكتبي بضع كلمات للإمبراطور وتطلبي منه حماية فانينا؟

ضحكت رئيسة الراهبات بمرارة وقالت:

- وهل تظنين أن تيبر بحاجة إلى تقاريري أنا، لكي يعرف ما يجري هنا؟ صحيح أنه بعيد من هنا ولكنه يطلع على جميع الأمور ويتصرف وفق رغباته، ثم إنني لا أرغب في طلب مساعدته، لأن ذلك سيعتبر خطأً فادحاً، خاصة وأننا لم نحترم إرادته بما ارتكبناه من أخطاء!.

بعد ذلك أمسكت فبيديا فانينا من يدها وسحبتها حتى الباب، وبينما كانت الفتاة الشابة تسير إلى جانب السرير ارتطمت قدمها بجسم معدني فأحدث ذلك صوتاً. لقد كان صوت المبضع البرونزي، فلمعت عينا فانينا بشكل غريب وانحنت على الأرض وأخذت المبضع ودسته في صدرها من فتحة قميصها، وارتعشت بصورة لا شعورية لأن المبضع كان بارداً، وقاسياً، وحاداً!.



كانت فانينا ورئيسة الراهبات تقفان في الصالة الكبيرة خارج شقق راهبات فستا، وسمعتا الضجة التي أحدثها الخادمان اللذان يحملان المقعد، ويصعدان الدرج. راحت فانينا القلقة تحاول أن تهدِّئ من روعها ومن تسارع ضربات قلبها، فوضعت يدها على صدرها وضغطت قليلاً ثم التفتت إلى فبيديا وهمست:

- ما رأيك هل عرف بما جرى؟

فأشارت رئيسة الراهبات بيدها وكأنها ارتدت قناعاً!.

ثم استمرت الفتاة بحديثها:

- أعتقد أنه لا يأتي لزيارتنا بلا سبب. لابد وأنه سمع شيئاً. ولكن كيف علمت أنت بما جرى؟

وبعد أن توقفت الفتاة الشابة قليلاً. عاودت السؤال :

- كيف علمت أنت؟ لقد أخبرتك همونيا أليس كذلك؟

هزت رئيسة الراهبات رأسها وقالت:

- أنت تعلمين جيداً أنها لم تخبرني بشيء!.

- إذن ماكسيميليا هي التي أخبرتك؟

- أبداً. إسكتي الآن، لقد وصل:

وفي هذه اللحظة بالذات دخل الصالة إثنان من الخدم الأقوياء وهما يحملان كلافينوس. كانت بعض الأغطية قد وضعت فوق الرجل العجوز حتى كاد وجهه يختفي. وعندما مر من أمام الراهبتين، ألقى عليهما التحية بدون أن يتكلم. وضع الخادمان مقعد كلافينوس إلى جانب إحدى النوافذ لكي يصل إليه النور بشكل مباشر.

بعد ذلك قالت فبيديا:

- السلام عليك ياكلافينوس المحترم.

لم يحر الراهب العجوز جواباً:

ثم سألته فبيديا:

- هل أنت بصحة جيدة ياكلافينوس المحترم؟

لم يجب الراهب الذي بدا عظماً وجلداً، وكان يهز رأسه باستمرار. نظرت الراهبتان إلى بعضهما باستغراب:

كلافينوس يبكي!. أنفه يسيل، وأسنانه تصطك، وقد تدلت شفتاه، وبدأ فكه يرتجف. فتقدمت منه رئيسة الراهبات خطوة أخرى وسألته ثانية:

- ما الأمر، ياكلافينوس المحترم، هل أصابك مكروه؟

اعتدل العجوز في جلسته، وقد أصبحت عيناه كقدحين ملئا بالدم والشرر يتطاير منهما، ثم بدأ صوته يعلو من حنجرته وهو أشبه ما يكون بصوت الماء المنبجس بسرعة من أحد الثقوب، وبعد أن توقف لكي يلتقط أنفاسه قال لها:

- إخرسي!.

انتفضت رئيسة الراهبات وكأنها تلقت صفعة قوية ثم قالت له وهي تقف عند كل كلمة:

- لعلك نسيت ياكلافينوس مع من تتحدث؟

بدأ كلافينوس يطلق سيلاً من الكلام وكان نصفه غير مفهوم.

- أنا أتحدث عن الفتيات اللواتي يفترض أن يكن رمزاً للعفة والطهارة، ولكنهنَّ شققن عصا الطاعة وتصرفن كأنثى الكلاب، وخرقن قواعد الطريقة.

دنت فانينا خطوتين من فبيديا وهي تشعر أن الصراع قد بدأ، وأن هذا الصراع لن ينتهي قبل القضاء عليها. إنها ستموت لا محالة. وسوف يقوم كلافينوس بإجراء محاكمة صورية لها ثم يدسها في أحد القبور، ومن يدري فربما قد جهز القبر سلفاً. لكن فانينا لم تعد تخشى هذا الراهب العجوز، ليفعل ما يشاء. فقد أضحت أعصابها باردة، ولم تعد تخافه أبداً. تركز خوفها كله على فيندكس، وهي ترغب في إنقاذه أولاً، وبعدها سوف تستسلم لمشيئة الأقدار، وسوف تكون أكثر طاعة من جميع

راهبات فستا اللواتي دُفنَّ أحياء، منذ إنشاء روما وحتى الآن!. ولكن قبل ذلك عليها إنقاذ فتاها الذي صار كل شيء في حياتها. ولكي تفلح في إنقاذه يجب أن تبدأ بالهجوم قبل كل شيء على هذا العجوز لكي تكسر شوكته!. فقالت له: غاضبة:

- إنك تحقرنا ياكلافينوس!. نحن نريد أن توضح لنا مقصدك!.

اشتعل كلافينوس غيظاً عندما رأى فانينا تقف أمامه وبدأ يغلي ويفور حقداً وقال لها وكأنه يعوي:

- أنت التي تمردت، وشققت عصا الطاعة، وأنت التي لوثت سمعة راهبات فستا، ولطخت سمعة هذا البيت، وكنت السبب في سواد وجهه!.

نظرت الراهبة الشابة إليه باشمئزاز وقالت له متحدِّية:

- أهذا هو كل شيء؟

أخذ العجوز يرتجف من الغضب، ثم قام بحركة وكأنه يريد الانقضاض عليها ولكنه لم يتمكن، فتهالك على مقعده. التفتت فانينا نحو فبيديا وهي تريد أن تعرف موقفها من الهجوم الذي قامت به، وهل هي موافقة على هذا الهجوم أم لا؟ لكنها لاحظت أن فبيديا تراقب ما يجري دون أن يظهر عليها أي ذرة من الانفعال. لذا استمرت الفتاة الشابة في حديثها مع العجوز:

- بما أنك وجدت المذنب الوحيد وتراني أني أنا هو، لذا أطلب إليك أن تتكلم الآن عن كل شيء وكلي آذان صاغية.

عندها، تكلم العجوز بطريقة أسرع وصرخ في وجهها قائلاً:

- إنك متوحشة، أنت إنسانة قاتلة، سأجعلك تدفعين ثمناً باهظاً لقاء فعلتك هذه!.

نظرت الراهبتان في وجهي بعضهما البعض باستغراب ثم تكلمت فبيديا بهدوء وقالت له:

- لقد ذهبت بعيداً ياكلافينوس. لماذا تتهجم على فانينا بهذا الشكل؟

- لأنها هي المسؤولة عما جرى أمام معبد باخوس !.

بعد ذلك لم يستطع العجوز أن يتمالك نفسه فوضع رأسه بين يديه الضعيفتين وقال وهو ينوح ويبكي :

- دايلوكوس. دايلوكوس !.

فتحت فيبديا فمها وسألته وهي مستغربة :

- هل قلت دايلوكوس؟ هل كان دايلوكوس، هو الشاب الذي قتل أمام معبد باخوس؟

كانت فانينا قد علتها الدهشة وهي تنظر مرة إلى رئيسة الراهبات ومرة إلى العجوز. بعد ذلك قامت فبيديا بسحب فانينا إلى جانبها وهمست في أذنها وكان وجهها صار أصفر كالشمع وقالت :

- دايلوكوس، هو ابن كلافينوس الذي ليس له أحد في الدنيا سواه، وقد أهداه له الإمبراطور، وهو ابن عبد يوناني. وهكذا أصبح كلافينوس أباً مرة أخرى بعد أن بلغ الثمانين من عمره !.

ركز الراهب العجوز نظره على فانينا وقال لها وهو يبكي :

- ابني. ابني. أنتِ التي قتلته. كنت تخافين منه. كنت تخافين أن ينقل لي أخبار فضائحك !. فضائحك الأخلاقية !.

امتلأ قلب فانينا بالأمل لأن كلافينوس كان يتألم كثيراً، ولأن فبيديا كانت تهدر بكلامها وهي تحاول الدفاع عنها وإنكار كل التهم الموجهة إليها.

وفي معرض دفاعها عن الاتهامات التي وجهها العجوز، قالت رئيسة الراهبات :

-إن حزنك على ابنك قد جعلك لا ترى الأمور جيداً يا كلافينوس، لأن راهبات فستا لا يمكن أن يستأجرن أحداً لقتله لكي يتخلصن من مخبر كان يتعقبهن. لقد تحملن

مراقبتك لهن بامتعاض شديد، ورغم ذلك فإنهن لا يرين أي ضرورة للاهتمام بمعرفة هؤلاء الجواسيس، لأنهن واثقات من أنفسهن، ومن قلوبهن ونظافة شرفهن.

سواء أكان دايلوكوس ابن كلافينوس أو لم يكن ابنه، فإن هذا الراهب العجوز قد أرسله بوصفه أحد الجواسيس الذين كُلفوا بمراقبة فانينا، أو ربما كان الجاسوس الوحيد الذي أُوكِلت إليه هذه المهمة المقرفة. أرادت الفتاة الشابة أن تتأكد من هذا الموضوع فأخفت مظاهر الفرح التي ملأت قلبها وسألت الراهب العجوز:

- ما الجرم الأخلاقي الذي تتهمني به ياكلافينوس؟

فأجابها العجوز بصوت قوي:

- إنني أتهمك بالجرم اللاأخلاقي الذي ارتكبته بعد ظهر هذا اليوم. لقد قتلت ابني المسكين لكي لا ينقل لي فضائحك.

لم يكن كلافينوس على علم بأي شيء. وهذا يعني أن فيندكس قد نجا. كادت راهبة فستا الشابة تطير من الفرح.

أشاحت الفتاة الشابة بنظرها عن عيني الراهب اللتين أصبحتا مثل قدحين مُلئا دما وهما يشعان حقداً وضغينة، ولم تعد تستطع أن تواجه هذه النظرات.

بعد ذلك تكلم كلافينوس بضغينة وحقد غير منتظرين وبدأ ينوح قائلاً:

ـ آه يابني. هل كان يخطر في بال أحد أن تقتلك هذه الفاحشة؟ لم يكن ابني يريد الذهاب!. ياإلهي. كيف جاؤوا به إليَّ؟ لقد هشموا رأسه الجميل الذي يشبه رأس الآلهة. نعم لقد تهشم أيتها الكلبة. ياإلهي كم هو شيء مفجع. لقد مات دايلوكوس في الوقت الذي كنت أرغب فيه أن أسجله على قيد نفوسي، وأعطيه اسمي ونسبي، ونعيش سوية!. آه يابني، لن أستطيع أن أحضنك بين ذراعي مرة أخرى آه يابني. آه. آه.

أرادت رئيسة الراهبات أن تنتهي من هذه المسرحية، فانسحبت من أمام العجوز ووقفت عند بداية الدرج وراحت تنادي بصوت عالٍ:

- غناتينا!. أوركا.

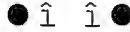
وعندما لمحت العبدين اللذين كانا يحملان كلافينوس أمرتهما قائلة:

- خذا الراهب المحترم إلى بيته.

كان العجوز منهكاً فوضع رأسه على الوسادة ورفع الخدم المقعد من ذراعيه وذهبا.

وعند نهاية الصالة تكلم العجوز بصوت ضعيف كلاماً يكاد لايفهم. وكأنه قد تذكر شيئاً. لقد قال:

- إن من تجرأ وقضى على أملي الوحيد في هذه الحياة سوف ينال جزاءه ولا أدري إذا كنت سأكتفي بإزهاق روح واحدة لكي آخذ بثأر ابني دايلوكوس سواء أكانت هذه الروح روحها أو روح من تحب؟





القسم العاشر

منذ خمسة أيام والسماء تمطر بلا توقف ، وقد لفَّ المدينة جو بارد صاحبَ هذا المطر الخفيف. يحث المارة خطاهم، ووجوههم متجهمة، وهم يسيرون في الأزقة الخالية غير عابئين بهذا الجو. خيّمت فوق المدينة ستارةٌ فضية اللون فحجبت الرؤيا لأبعد من خطوتين، حجبت الأبنية والمعابد، وحجبت الأفق أيضاً. أما المطر فقد ظل ينهمر بلا توقف. كانت حباته تتساقط على سطح القبة البرونزية التي أضحى لونها أخضرَ، فتحدث إيقاعاً منتظماً يحطم أعصاب فانينا والراهبات الأخريات اللواتي كن يناوين في المعبد.

لم تحظ فستا بمثل هذه العناية منذ إنشائها وحتى الآن، كما لم يحظ هذا المعبد بمثل هذه النظافة الفائقة قبل ذلك، ومنذ ذلك اليوم المشؤوم الذي هددها فيه كلافينوس لم تغادر فانينا بيت راهبات فستا، ولكي تملأ فراغها اهتمت كثيراً بنظافة المعبد، وكانت تتمنى لو تستطيع أن تجعله أكثر نظافة.

أرادت نسيان الماضي . رغبت في ألاّ تتذكره أبداً، وأما الشاب الذي أحبها وأحبته حسبما فقد اصطحب والده وهما في طريقهما الآن إلى غالة حسبما أخبرتها همونيا. وبما أنه قد احترم إرادة الفتاة التي أحبها وابتعد عنها فإنه سوف ينجو بلا شك من جميع المخاطر. وهذا ما يدعو فانينا أيضاً لأن تُخلق من جديد وأن تُوقف نفسها لما

خطَّه لها القدر، وأن تتسلح بعملها، لكي تتمكن من الوقوف في وجه المستقبل العاصف الذي تنبأ به الكهنة!.

وعلى الرغم من أن هذا الطريق الذي خطته لنفسها طريق صعب، وصعب جداً لكنها قررت أن تتحمل، وأن لا تحني هامتها، حتى لو تعرضت للوحدة والحرمان. ضعف جسمها وأصابها الهزال. قست خطوط وجهها، ورقّت بشرتها وبدأت تستغرب من نفسها كيف أنها تحملت كل هذا؟ ولكن الراهبة الشابة بدأت تشعر أن شخصيتها أضحت أقوى من ذي قبل، وبدلاً من أن تنهار أصبحت أشد مراساً!.

لقد حبست نفسها في بيت فستا بين أربعة جدران، وبدأت تنفيذ تعليمات فبيديا حرفياً، فلم تعد تخرج من بيتها إلا إلى المعبد، كما كانت تأخذ مناوبات زميلاتها وتقوم بها برضاء تام.

أما رئيسة الراهبات فكانت تؤيِّد الفتاة الشابة، ما دامت هذه رغبتها، وتترك لها الحرية لكي تقوم بكل ما تريد، ولكنها كانت متأكدة أنها بلا شك، ستشعر بالتعب، وسوف تضطر عندئذ إلى العودة إلى وقع حياتها الاعتيادية.

كل طلبات فانينا كانت تجاب ، فجميع صديقاتها ومربيتها كنَّ ينفذن كل رغباتها حتى بدون أن تقول أي كلمة، كن يعرفن ما تريد من نظراتها، وينفذن رغبتها العارمة بالبقاء بمفردها، لكنهن لم يكن يبتعدن عنها كثيراً كي يكن على أهبة الاستعداد لنجدتها فور سماع أي ضجة أو حركة مشبوهة!.

تصرفن معها وكأنها مريض مدلل!. ألم تكن هي تعتني أيضاً بباقي الراهبات، الواحدة تلو الأخرى واللواتي ترعرعن على يديها؟

تضايقت فانينا بادئ الأمر من هذه العلاقة، لكنها ما لبست أن خففت من ضيقها وأَلِفَت التعاون مع محيطها وبدأت تنظر إلى وظيفتها هذه على أنها تسلية.



فُتح باب المعبد البرونزي الثقيل، وسُمع صرير المفصلات ثم ظهرت كورنيليا عند عتبة الباب.

كانت فانينا منشغلة بترتيب العيدان ذات الرائحة الذكية فوق المحراب. تقدمت الراهبة كورنيليا نحو فانينا وقالت لها:

- لقد جاء والداك لزيارتك، وقد رغبت العذراء المقدسة أن أناوب عنك!. هيا اذهبي أنت الآن!.

كانت همونيا تنتظر فانينا في الباحة تحت المطر فمشت الإمرأتان حتى وصلتا إلى بناء صغير بالقرب من مبنى البوابين، دون أن تتكلما بكلمة واحدة. لقد كان فانينوس وتِرِنْتا ينتظران ابنتهما في هذا المكان وفي إحدى الغرف الست المخصصة لاستقبال ضيوف الراهبات!.

وكانت فبيديا رئيسة الراهبات هناك أيضاً. وما إن دخلت فانينا حتى قالت:

- أرجو أن تعذروني يافانينوس المحترم لأنني لم أسمح لفانينا بزيارتكم الاسبوع الفائت، فأنتم تعرفون كم كنّا مشغولين في نهاية العام، وبما أننا قد استنفرنا راهبتين من أجل تحضير بيت الآلهة، لذا لم يعد لدى الراهبات من وقت لكي يَحَكُنَّ رؤوسهن.

ثم التفتت رئيسة الراهبات نحو تِرِنْتا وقالت:

- تفضلوا استريحوا، أما أنا فاعذروني لأنني يجب أن أتابع التحضيرات في بيت الآلهة، وأنا أعتقد أنكم سوف تحضرون!.

فأجابتها تِرِنْتا وهي تبتسم:

طبعاً سوف نحضر، وهل من المعقول أن نُفوت علينا أول احتفال سيقام من أجل تكريم ابنتنا التي أصبحت راهبة كفؤاً ومؤهلةً!.

خيم الصمت المطبق على الغرفة بعد خروج فبيديا، ولم تكن فانينا تعرف ماذا يجب أن تقول!. فكرت في أن تفتح قلبها لوالديها، لكنها خشيت أن يُساء فهمها، وأن لا يكون للكلام أية فائدة، أضف، إلى أنه قد يخيف السيناتور وزوجته، ولن يفيدهما بشيء أبداً وقد يعقد الأمور أكثر، ويصبحان أمام موقف غامض!.

نظرت فانينا إلى والديها بلهفة، مع أنها كانت تشعر أنهما أصبحا غريبين وبعيدين عنها جداً، ورغم أنها من دمهما ولحمهما وأنها تربت على أيديهما، إلا أن القواسم المشتركة التي كانت تربطها معهما، لم تعد موجودة، ويعود ذلك إلى أنها انتزعت باكراً من حضنيهما، ولم تعد تشعر أن أباها وأمها هما اللذان ربياها وشكلاها، بل إن من قام بذلك هو همونيا، ورئيسة الراهبات فبيديا. هما اللتان كانتا تغطيانها مساء كل يوم وليس أمها، وإن من يقف الآن في هذه اللحظة ويستند على جدار الغرفة ويداعبها بنظراته هي المربية همونيا.

لقد طال الصمت أكثر. وكان من عادة فانينوس وتِرِنْتا الظهور بمظهر المبتهج والخليّ البال عندما يزوران ابنتهما، لكنهما في هذه المرة اعتراهما الإرباك في الكلام وغابت البهجة عن محياهما. وأخيراً سألا فانينا:

- ما بك ياعزيزتي؟ هل أنت مريضة؟

وفجأة شرع والدها بالكلام ولم يعد يتوقف. وراح يحمل كلامه المعاني القوية وهو يحرك يديه. لم تفهم فانينا بادئ ذي بدء ما وراء كلامه، لكنها بعد ذلك أصغت بدقة. فعرفت أنه يتحدث عن الوضع السياسي وقد رسم لها صورة دموية عن روما، كما يتخيلها هو عندما يخرج من بيت فستا، تلك الصورة التي لم تخطر ببالها أبداً، ثم قال لها:

- نحن على أبواب حرب أهلية يا ابنتي، وهناك أعمال مخيفة سوف تُتَّخذ ضد الإمبراطور.

راحت فانينا تنظر إلى والدها وجفناها نصف مغمضين، وقد فهمت على الرغم من حداثة سنها، أن الخصوم السياسيين للنظام، يسعون إلى تحميله مسؤولية ما آل إليه الوضع في البلاد!.

- أنا أعلم أن الأخبار الدنيويه لا تصل إلى هنا. ولكن هل سمعتم يا ترى عن المحاكم التي تجري الآن في المدينة؟

أحنت فانينا رأسها وكأنها تقول نعم. لقد سمِعَتْ عن بعض الدعاوي التي تُبحث الآن في المحاكم، لكنها لم تكن ترغب في أن تتعب تفكيرها بذلك لاعتقادها أن هذه الأمور هي أمور عادية في روما!.

استمر فانينوس في حديثه فقال:

- إن الغرض الرئيسي من هذه الدعاوي، هو السيطرة على السلطة، وأن من يوجه هذه الدعاوي هو نفسه من يريد السلطة!. وهو يحاول أن يُصفي جميع خصومه السياسيين الواحد تلو الآخر، لكي يضع عوضاً عنهم أشخاصاً من أقربائه وأصدقائه، كي يتسنى له الاستيلاء على المواقع الحساسة، في الإمبراطورية، والحكومة، في مختلف المواقع والإدارات والجيش بالدرجة الأولى.

سألت فانينا وقد شغل بالها:

- حسناً. وهل تيبر غافلٌ عن هذه الأمور؟

- تيبر يعيش في جزيرة كابري، وكأنه قد انسلخ عن هذا العالم، وهناك بعض الأمور قد اطلعت عليها رغم عدم وجود اتصالات بيني وبينه، وهي أن جميع الرسائل التي ترسل إلى الإمبراطور إما أنها تخضع للمراقبة، أو تُسرق، فلا تصل.

- ومن يقف وراء هذا كله؟

وقبل أن يجيب والد فانينا على مثل هذا السؤال تلفت حوله جيداً ثم قال بهدوء وبصوت يكاد لا يسمع:

- من سيكون؟ طبعاً إنه ساجان. ساجان يريد أن يستولي على الإمبراطورية!

ساجان: هذا الرجل الذي يصفق له عامة الناس والمنافقون والمارقون والذي ملأت تماثيله أرجاء المدينة، وهو الرجل الثاني بعد الإمبراطور، هذا المحتال الذي خرج من طبقات الشعب والذي يتحكم الآن بعشرة آلاف من الجنود المميزين والمنتشرين تحت أسوار روما وهم ينتظرون أوامره.

تذكرت الراهبة الشابة منظر قائد أفواج البريتوريين القوي، في اليوم الذي قابلت فيه فيندكس، وكيف احمر وجهها واضطربت وارتعشت وغضبت كثيراً. ظل السيناتور فانينوس يتكلم بصوت منخفض:

- ساجان مستعد لفعل كل شيء من أجل الوصول إلى غايته، إنه قوي لدرجة أنه تمكن من السيطرة على ثعالب تيبر، وقد أصدر قوانينَ تحميه من خصومه في روما، وقد وُفق في تطبيق هذه القوانين، كما زرع آلاف الجواسيس لكي يخبروه عن أي حركة يمكن أن تسبب له إزعاجاً وبدأ يُغدق عليهم الأموال الطائلة.

- حسناً ولكن ما هي التهم التي توجه لهؤلاء الأشخاص؟

ابتسم السيناتور وأردف:

- يكفي لكي يُحكم على شخص بالموت، أن يكون قد خلع ملابسه بالقرب من تمثال أوغست المقدَّس. أو إذا عرفوا أن احدهم قد دخل الخلاء وفي جيبه نقوداً معدنية نقشت عليها صورة الإمبراطور. عندها يحال فوراً إلى جلاد الإمبراطورية الأعظم. ولا يحق لأحد أن يتدخل بعد ذلك. وأعتقد أن هذا لا يخفي عليك يا ابنتي.

بعد ذلك غطى الرجل وجهه براحتي كفه وأضاف:

- لقد قتلوا عشرة من أصدقائنا خنقاً. وزادت حوادث الانتحار في روما بشكل لم أعهده أبداً فيما مضى!.

سيطر الصمت على الفتاة الشابة وعلى والدها، وفكرت فانينا، هل تحققت النبوءة المقدسة لماسترنا والكهنة، وهل أن الكارثة قد وقعت؟

سبق أن توقع الكهنة أن "فانينا سوف تمسك بأقدار الإمبراطورية بين راحتي كفيها".

أم أن المآسي التي تعيشها الراهبة الشابة سوف تضاف وتمتزج مع الحرب الداخلية التي تعيشها الإمبراطورية، وتختلط الأمور، ويتعرض الناس لأحداث رهيبة. ثم قالت فجأة:

- لكن رئيسة الراهبات تقول لي دوماً أن تيبر يعرف كل ما يدور في روما، لذا فلا بد من أن يكون على اطلاع على هذه الدعاوى لأنهم لا يستطيعون إخفاءها عنه!.

فرد السيناتور:

- وهذا ما جعلني أستغرب الأمور، فبالإضافة إلى اطلاعه على هذه الدعاوى، كان هو وراء فتح مثل هذه الدعاوي، وهو الذي طلب إنزال عقوبة الإعدام على بعض من أقيمت ضدهم ثم تنهد المسكين وأضاف قائلاً:

- هذا يعني أحد أمرين، إما أن يكون الإمبراطور قد فقد عقله، أو أنه يلعب لعبة ذكية لا نستطيع نحن فهمها.

فجأة قامت فانينا ببعض حركات الطفولة فدنت منه واحتضنته وهو يكمل حديثه:

- بما أن الإمبراطور سوف يختارني العام المقبل لكي أكون في السلك القنصلي، فسوف تكون الظروف مؤاتية لك، إذ ستكونين بأمان إذا خطر لك أن تقومي بزيارتي في كابري، وعندها ستجدين الفرصة لسؤاله!.

هزت ترِنْتا رأسها بيأس وقالت لابنتها وهي حزينة:

- إن والدك لن يكون قنصلاً في العام المقبل يا ابنتي!.

- ماذا تقولين؟ ماذا تقولين يا أمي؟

- لقد استلمت رسالة من تيبر منذ أربعة أيام، وقد رجاني فيها أن أنسى الوعد الذي قطعه لي. وأعلمني في الوقت نفسه أن ساجان هو الذي سوف يُعيّن مكاني في القنصلية.

هنا تكلمت فانينا بصوت مرتفع:

- هذا يعني أن الإمبراطور قد تخلّى عنك، وأنك تتوقع أن تتعرض لبعض المخاطر من قبل ساجان وحتى من قبل الإمبراطور نفسه؟!.

تنهد السيناتور وقال:

- إنهم يكتفون الآن بإهمالنا.

- من هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟

- إنهم رجال دوميتيوس ذي اللحية البرونزية، قريب الراهب كلافينوس!.

ارتعدت فانينا وهمونيا بصورة لا شعورية عندما سمعتا هذه الأسماء وامتقع لونهما فقالت المربية:

- لقد أتيت على ذكر ذي اللحية البرونزية، إذا لم أكن مخطئة!. هل هو في روما الآن؟

فهزّ فانينوس رأسه بالإيجاب ثم قال:

- إنه هنا منذ أسبوع، وهو الآن في وضع جيد، فقد أعيد إلى وظيفته كسيناتور ولقد أمرني تيبر بإتلاف جميع الأضابير التي تحتوي على الانتهاكات التي قام بها في غالة !.

لكن كلافينوس كان أكثر أهمية عند فانينا، فسألت والدها وهي مضطربة:

- هل قلت أن كلافينوس يؤيد ساجان؟

فأجاب السيناتور باشمئزاز بعد أن قلب شفتيه:

- إن كلافينوس، وذا اللحية البرونزية يقفان دائماً مع القوي وأنا لاأخشاهما أبداً.

قطعت همونيا كلام فانينوس بعد أن سارت خطوتين إلى الأمام وقالت:

- أنت مخطئ يا سيدي، فأنت تعلم أن ذا اللحية البرونزية قد أقسم يميناً على أن يتخذ من فانينا وسيلة لإيذائك وأنت تعرف ذلك. وإذا كان الوضع سيئاً كما وصفته أنت، فلن يعدم هذا السافل من إيجاد فرص كثيرة لكي يحقق انتقامه!.

أبعدت فانينا مربيتها همونيا بحركة من يدها، بعد أن نفد صبرها ثم تقدمت إلى والدها وسألته:

- كيف عرفت يا أبي أن رجال كلافينوس وذي اللحية البرونزية قد وضعونا تحت المراقبة؟

- لقد استدعوا بوابنا زوتوس واستجوبوه.

- وما الذي أرادوا معرفته؟

أجابت تِرِنْتا على السؤال:

- سألوا عن أسماء الضيوف الذين استقبلناهم في بيتنا أثناء زيارتك الأخيرة.

كان كلافينوس قد قال "لا أدري إذا كنت سأكتفي بإزهاق روح واحدة، انتقاماً لابني ديالوكوس وعلى ما يبدو فإن هذا الراهب العجوز يريد أن يُنفذ كلامه الآن، ولا يريد إضاعة الوقت لذلك فهو يتابع الآن تحركات فيندكس. لم تفاجأ فانينا بمثل هذا الخبر لكن قلبها بدأ يخفق بشدة فسألت:

- حسناً وماذا قال زوتوس لهؤلاء الرجال؟

وأخذت ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها بانتظار جواب أمها. فردّ الأب: لقد قال لهم زوتوس: أنا لست مخولاً بإعطاء مثل هذه المعلومات!. مثل هذه المعلومات لا تعطى إلا من قبل سيدي السيناتور بالذات!.

نظرت فانينا و همونيا في وجهي بعضهما وفهمتا أن كلافينوس لم يكن على علم أنهما قد التقيتا بكايوس فيندكس في منزل والدها، في ذلك اليوم!. هذا يعني أن الزمن يعمل لصالح هذه الشابة وهذا الشاب. فرحت فانينا وتنفست الصعداء وقالت:

ـ إذن، ليس الوضع سيئاً إلى هذه الدرجة!.

إلا أن أمها لم تشاركها هذا الرأي فقالت:

- حقيقة هناك ما يبعث على الاستغراب، ويتملكني شعور أننا دائماً مُراقبون، فهناك رجل يمر كل يوم أمام بيتنا بصورة منتظمة ومنذ أسبوع، يقف أمام المنزل ويتفقد جميع النوافذ. كما يحاول معرفة كل من يدخل إلى البيت أو يخرج منه!.

تكلم السيناتور باشمئزاز:

- من العبث أن يقال عنه رجل!. فهو قصير القامة، لكنه عريض جداً ويداه تكادان تمسان الأرض. إنه أشبه ما يكون بالأقزام.

ثم أضافت تِرِنتا:

- يضع على ظهره قفطاناً من الجلد، وعلى رأسه طاقية ضخمة لكي يخفي ملامحه!.

هذا يعني أن هذا القزم لم يَمَلّ حتى الآن من التجوال حول بيت عائلة فانينا!.

لقد كانت المصائب تقع دوماً بعد أن يُشاهد هذا القزم فانينا. وكانت الفتاة تحتار دوماً في أمره وتريد أن تعرف من هو؟ ولحساب من يعمل؟ وهل يعمل لحساب كلافينوس أم لحساب ذي اللحية البرونزية، أم لحساب ساجان؟

استأنف السيناتور حديثه فقال:

- في هذا الصباح كان يقف هذا القزم أمام باب المحرس، فأرسلت له أقوى عبيدنا ورئيسهم الأيبيري كلافيتور، وطلبت إليه أن يأمره بعدم الوقوف أمام بيتنا. فهل تعرفون ماذا كانت النتيجة؟!.

هزت فانينا رأسها وكأنها تقول لا وقد شعرت أن حلقها قد جف:

- على الرغم من أن كلافيتور قد أمره بعدم الوقوف أمام بيتنا، إلاّ أنه لم يتحرك من مكانه، ومع أن كلافيتور قوي جداً، وكان يمكن أن يصبح مصارعاً لو لم يكن عبداً، إلاّ أنه مع ذلك عندما أمسك القزم من كتفه محاولاً إبعاده عن المكان لم ندر كيف رفعه القزم عن الأرض ورماه على بعد عشرة أقدام، وقد أصبح كلافيتور على أثرها في حالة يرثى لها، فقد انكسرت إحدى ذراعيه وخُلع مفصل كتفه، وخسفت بعض أضلاعه.

تدخلت فانينا وهي خائفة:

- كيف لم يتمكن الخدم من طرد هذا الوحش؟

- لم يتجرأوا. فقد كان القزم واثقاً من نفسه جداً. لذلك لم يتمكنوا من إجباره على الذهاب.

ثم اعترف السيناتور قائلاً وقد احمرّ وجهه:

- أما أنا فلم أقم بمعاقبة الخدم من شدة خوفي!.

لم تكن فانينا قد رأت والدها قبل ذلك وهو مطأطئ الرأس ووضعه سيء كما هو عليه الحال الآن. فصرخت بغضب:

- هل كنت خائفاً يا أبي؟

لم يُحر السيناتور فانينوس جواباً، لكن زوجته اعترفت، قائلة:

- ومن منا لا يخاف؟ لقد أصبح الإنسان يخشى حتى من المارة في الشوارع، ويخاف حتى من أصدقائه وجيرانه، ومن يدري فربما كان هذا الوحش المخيف أحد جواسيس ساجان!. ونحن لا ندري ماذا يمكن أن يحل على رؤوسنا إذا أصبناه بسوء. لذلك فقد فضل أبوك عدم القيام بأي شيء وقد خفنا أيضاً من أن يَمَسَّكِ أي

مكروه، فهذه الحرب الدائرة في الخفاء لا تعدم الوسيلة لإيجاد بعض الذرائع حتى لضرب طوقٍ أمنيٍّ على إحدى راهبات فستا!.

انتفضت فانينا، ثم طوقت والدها من عنقه وأجبرته على أن ينظر إليها ثم قالت:

- أرجوك. لا تخف من أجلي يا أبي، وأرجو أن تضع حداً لهذا العذاب وهذا الاضطراب الكبير الذي تعاني منه، أما أنا فسأقوم بالقضاء على هؤلاء الجواسيس وسأقوم بعمل لم تستطع أن تقوم به أنت!.

راح الدم يغلي في عروق فانينا بعد أن شاهدت الحزن والخوف الذين يلفان والديها العجوزين. وراحت تفكر في عمل ما من أجل روما. فروما عائدة لها وهي مسؤولة عنها. وبما أن فيندكس ليس في روما الآن وهو في مكان آمن، لذلك فإنها على استعداد لأن تضحي بكل شيء. وباتت على استعداد أيضاً للتضحية في سبيل أن لا يتعرض هذا الشاب لتلك اللكمة التي سددها له ذلك الجبان الرعديد. سوف تتحرك بطاقة لا تقاوم، ولن تحزن على ضياع أي شيء. تابعت كلامها وهي مضطربة والشرر يكاد يتطاير من عينيها وقالت:

- سأذهب إلى الساحة وسأفضح كل شيء أمام الشعب، سأجعل شعب روما يثور، كما سأذهب إلى سجن "تولليانوم" لكي أشل ذراع الجلاد!

حلَّ الغضب المقدس في الراهبة وتملك الاستغراب أباها وأمها، وقد حاولا ثنيها عن عزمها وتهدئة أعصابها إلا أن فانينا لم تستجب لهما واستمرت في كلامها:

- ألم تكن أنت الذي كررت علي القول إن مهمة عائلتنا هي المحافظة على أمن روما وسعادة شعبها؟ والآن ها هي الأمة تتعرض للأذى، ها هي تئن وتتألم، لذا فإن معاقبة هؤلاء الناس الذين يتسببون في هذا الأذى هي من مسؤوليتنا نحن.

أضحت وجوه كل من أمها وأبيها والمربية كالرماد، وهم يحدّقون النظر بها وكأنهم يرونها للمرة الأولى.

تابعت فانينا كلامها بصوت مخنوق:

- أنا أعرف بماذا تفكرون، تفكرون، أن هذا الكلام الذي قلته ما كان يمكن أن يخطر في بالي لو لم أرتد هذا الزي.

بعد ذلك اتجهت نحو النافذة، وأسندت رأسها وبدأت تفكر. نعم لو لم تكن ترتدي هذا الزي، لكانت الآن من نصيب فيندكس، ولو كانت الآن زوجة لفيندكس، فهل كان حبها له سيمنعها من أن تحني هامتها أمام هذا الإحساس بالغليان الذي تشعر به الآن؟ ثم التفتت فجأة إلى الموجودين في الغرفة وقالت لهم بعفوية:

- حتى لو كنت متزوجة فلن يعيقني الأمر في شيء بل كنت سأصطحب معي زوجي إلى الساحة أيضاً!.

في هذه الأثناء فُتح باب الغرفة الصغيرة، ودخلت رئيسة الراهبات، فتجمد كل من السيناتور، وترنتا، وهمونيا وكأنهم أصنام، وتوقفت فانينا عن الكلام بعد أن أصبح وجهها كالجمر. وبعد أن جالت فبيديا بنظرها على الجميع، قالت بدون أن يبدو عليها أي ذرة من الاستغراب:

- استميحكم العذر يا فانينوس المحترم أنت وزوجتك ترنتا، فقد جئت لآخذ ابنتكم الآن. فهناك بعض المهام في انتظارها!.



سارت الراهبتان في الباحة تحت المطر، وقد اضطرتا للقفز بضع مرّات لتتمكنا من عبور برك الماء الصغيرة التي تجمعت في الساحة. كانت فانينا تسير وهي ممسكة بذراع فبيديا فقالت لها:

- لماذا لم تحدثيني عما يجري في روما أيتها العذراء المقدسة؟

فالتفتت رئيسة الراهبات وسألتها بهدوء وقد بدت على وجهها الجميل آثار الهموم والتعب الذي تعانيه:

- ماذا تقصدين؟

- التجسس، القضايا السياسية، الإعدامات. هذا ما أقصده.

- ماذا يهمك أنت من هذه الأمور؟

فأجابت فانينا بغضب وكأنها ترفض ما قالته رئيسة الراهبات:

- لقد أعطيتني الشكل الذي ترغبينه، وعملت كل جهدك لكي تهدمي علاقة الحب التي تربطني بفيندكس، وقد بذلت كل ما في وسعك، لكي أكون راهبة فستا بكل جوارحي وأحاسيسي، وبصفتي راهبة فستا، فأنا أرغب في أن أعبر عن ردة فعلي تجاه ما يجري اليوم من أحداث، بدلاً من قيامي بوظيفة راهبة فستا التي تقتصر على معرفة أنواع السمك الذي يجب أن يُقدم للمدعوين على مائدة الإلهة، أو على حديث مع زوجة القنصل. لقد قررت أن أضع حداً لهذه الجرائم التي ترتكب ولهذا الصراع الدائر!.

سألتها فبيديا والشرر يتطاير من عينيها:

- وماذا بعد. وماذا بعد؟

- واجبنا أن نحرك الشعب ضد هؤلاء المفسدين، وأن نجعل روما تثور.

- وهل تبحثين عن أعداء جدد، وكأن أعداءك لا يكفونك يا ابنتي؟

بلغ الغضب أوجه عند الراهبتين وراحتا ترتجفان، وقد وقفت الواحدة أمام الأخرى وكأنها تتحداها.

وفي هذه الأثناء سمعتا صوت همونيا، من خلفهما، وهي تقول لهما:

- وهل هذا وقت الشجار؟

كانت فبيديا هي التي هدأت أولاً فهمست وهي حزينة:

- لقد أثرت فينا هذه الأحداث كثيراً لدرجة أننا أزعجنا بعضنا البعض. هيا، خففي من غضبك وأفرغي ما في جعبتك فأنا أسمعك.

وبعد أن ترددت فانينا بعض الشيء، قررت أن تعرب عن رأيها بإيجاز لأنها رأت أن جميع ما سبق أن حضرته في ذهنها كان بلا جدوى وليس له أي معنى، فاكتفت بالقول:

- لقد عرفت أن هناك جواً غريباً يسيطر على المدينة، وفهمت أن هناك عملاً ما يتم ترتيبه ضد الإمبراطور!.

ظنت فانينا أن فبيديا سوف تسألها عن بعض التفاصيل، لكن رئيسة الراهبات كانت تنظر إليها وهي شاردة. كانت فبيديا قد استحوذت على ثقة الإمبراطور وكانت على اطلاع على جميع وثائق الإمبراطور المهمة من كبيرها إلى صغيرها، كما أنها قد اطلعت على كل الأوراق والوصايا السرية التي أودعها الرومانيون في فستا. وهي الحارسة الأمينة على هذه الأسرار. فماذا تعرف يا ترى عن هذه المؤامرات وهل هناك أمور خافية عنها؟ وأخيراً سألت فانينا:

- ماذا تنتظرين مني؟

استغربت فانينا هذا الهدوء، فتمتمت قائلة:

- يجب أن يعرف تيبر ماذا يدور هنا. لذا كنت أريد أن أطلب إليك السماح لي بالذهاب إلى الساحة لتحريض الشعب على المطالبة بعودة الإمبراطور إلى هنا؟ وإذا كنت ترغبين فيمكنك الذهاب معي. مهما كانت المشاكل التي ستحل على رؤوسنا كبيرة فهذا لا يهم لأننا نقوم بواجبنا.

وبابتسامة عذبة أمسكت فبيديا فانينا من ذقنها وداعبتها ثم التفتت إلى المربية وهمست:

- كلانا، أنا وأنت، نستطيع أن نفتخر بابنتنا أليس كذلك يا همونيا؟

انحدرت الدموع على خدي المسكينة همونيا، التي مسحت أنفها ثم تكلمت بصوت منخفض:

- إننا نفتخر بها كثيراً أيتها العذراء المقدسة ولكننا قلقتان عليها، ثم إن ابنتنا تستمع إلى كلام قلبها الآن، وقد أدارت ظهرها لصوت العقل والمنطق منذ زمن بعيد، ولا أحد سوى الآلهة يستطيع أن يعرف إلى أي المهالك سوف يجرها قلبها!.

بدأ صبر فانينا بالنفاد فكلمت نفسها:

- حسناً. وماذا بعد؟

أمعنت فبيديا النظر إلى وجهها وقالت:

- يجب أن تفعلي ما أقوله لك يا ابنتي. وأود أن أذكرك أنه لم يعد هناك وقت للتصدي لهؤلاء الأشخاص الذين دوخوا روما، فهم يعرفون طريقهم جيداً!.

فسألت فانينا باضطراب:

- أتعتقدين أن تيبر على علم بكل ما يحدث؟

ترددت رئيسة الراهبات لفترة بسيطة ثم قالت بسرعة:

- على الرغم من أنه أصبح عجوزاً، وعلى الرغم من أنه بعيد عن النّاس، فإنه لا زال أقوى من أي شخص آخر، وهذا التضاد في شخصيته أمر مؤسف جداً.

أرادت فبيديا من خلال كلماتها هذه أن ترفع بعض المعنويات، لكن هذه الكلمات أعطت تأثيراً عكسياً، لذلك لم تُكمل كلامها ونسيت ما كانت تريد أن تقول، وتعكّر مزاجها.

كانت هذه الكلمات على عكس ما قاله السيناتور فانينوس لابنته، لذلك شعرت الفتاة الشابة أن فبيديا تخدع نفسها بما تقول، وهي تريد أن تقنع غيرها به. لقد قلبت صورة اللوحة السياسية التي رسمها والدها رأساً على عقب. وشعرت فانينا أن الدماء سوف تسيل أكثر ولمدة أطول. لقد شبّت راهبة فستا عن الطوق وتجاوزت سن الطفولة، لقد ضحّت بعشقها من أجل إنقاذ حياة فيندكس، وشعرت أنها قامت

بمقامرة كبيرة، ولم تحسب المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها. لقد ضحت بنفسها ولم تبال بما يمكن أن تتعرض له في سبيل هذا الربح البسيط !.

تقدمت الفتاة بتردد خطوة أو خطوتين ثم قالت:

- هذه الدعاوى، وهذه القوانين.. ما إن قالت هذه الكلمات، حتى فتحت عينيها جيداً وسيطرت عليها الدهشة، وبدأت تحدِّق بنظرها بعيداً. هرعت كل من فبيديا وهمونيا إليها وهما مضطربتان وقد لاحظتا أنها أصبحت شاحبة الوجه وراحت تهذي وتقول:

- فوق. فوق.

كانت تنظر إلى أعلى الدرج الصاعد إلى ساحة بالاتين، إذ لمحت على آخر الدرج شبحاً أسمر يلمع تحت المطر. كان شبح القزم ذي القفطان الجلدي.

قامت فبيديا وهمونيا بسحب الفتاة من هناك إلى المعبد، وفي هذه الأثناء سُمع صوت باب محرس البوابين وهو يُفتح ثم ظهرت ماكسيميليا، ووجهها شاحبٌ، فهرعت باتجاه فانينا.

جمدت فانينا في مكانها وهي مضطربة فقد أدركت أن ماكسيميليا سوف تنقل إليها خبراً سيئاً !.

تكلمت ماكسيميليا وهي تتلعثم:

- لقد استدعاني كلافينوس إلى ريغيا. لقد اعترضوا طريقي عندما كنت راجعة إلى هنا ثم أوقفوا المركبة. وطلب مني معاونه أن أتبعه !.

- وماذا جرى بعد ذلك؟

- لقد رجاني كلافينوس أن أنقل تحياته للسيناتور فيندكس وابنه اللذين تشرفت بمعرفتهما في بيت والد فانينا !.

إذن، كلافينوس يعرف اسم الرجل الذي أحبته فانينا!. لقد أصبح كايوس فيندكس وجهاً لوجه أمام خطر الموت.

●î î●

القسم الحادي عشر

مضت خمسة أيام أخرى، وفانينا تقوم بأداء مهامها على أكمل وجه، رغم الهُزال والشحوب اللذين أصاباها، وكانت لا ترى سوى هذه المهمة التي استحوذت على كل وقتها، حتى لم تكن تجد فرصة كافية للنوم!. لقد كان لديها دائماً ما يجب أن تقوم به.

كانت تبدو شاردة ولا مبالية، والصمت يخيم على أي مكان تمر منه. لم يبق أمام هذه الفتاة الشابة سوى الغضب القدسي كلما سمعت قصص المؤامرات التي تحاك ضد روما!. وكأن فانينا قد نسيت المخطط الذي كانت تنوي تنفيذه من أجل تحريض الشعب على الثورة ضد الفساد والمخبرين. ولم يبق أمامها من الأخطار التي تنوي اقتحامها سوى الانتحار. لكن الفتاة الشابة كانت تقاوم هذه الفكرة بكل قوة. ولو كانت تخضع لنداء قلبها، لما توانت لحظة عن الذهاب فوراً إلى الساحة العامة لكي تنتحر!.

إنها يجب أن تعيش. يجب أن تعيش من أجل كايوس فيندكس. كانت تعيش بجسمها فقط، أما تفكيرها فكان مليئاً بالعذاب والاضطراب، ولم يعد فيه مكان للتفكير به. خاصة بعد أن تأكدت أن كلافينوس قد عرف هوية الرجل الذي تحبه!.

وبعد المقابلة الأخيرة التي تمت بين الراهب العجوز وماكسيميليا، بدأت كل من فبيديا وهمونيا تشددان الحماية على الفتاة الشابة واحتضانها وكأنهما نمرتين. كانت فانينا تقول لهما:

- إن كايوس فيندكس هو أنا. وأنا كايوس فيندكس، فإذا مات هو فإنني سأموت فوراً وإذا عاش بدون أن يُصاب بأذى، فأنا على استعداد لأن أفعل كل ما تأمرانني به!.

كانت فانينا قد علمت من مربيتها همونيا أن فبيديا لم تُضِعْ الوقت وقد طلبت من أحد أقربائها الأغنياء المقتدرين واسمه "تورانيوس" أن يرسل أحد عبيده ليؤمن سلامة الطريق الذي سوف يسلكه فيندكس وليدله على الطرق الآمنة!.

تُرى هل اطّلعت باقي راهبات فستا على العذاب الذي كانت تعاني منه فانينا؟ لم تفكر فانينا بهذا الأمر ولكنها كانت واثقة بأنهن لا يمكن أن يغدرن بها، و هذه الثقة تكفيها.

جاؤوا إليها جميعهن وكأنهن قد اتفقن على المجيء، وبدت عيونهن متورمة من البكاء، فقالت كورنيليا وهي تبكي:

- أنا معك. اطلبي مني كل ما تريدينه ؟

أما آنيا فقد ارتمت بين ذراعي الفتاة الشابة وبقيت هكذا بدون أن تتكلم وهي لا تتوقف عن البكاء.

وجثت ماكسيميليا المسكينة على قدمي فانينا وتوسلت لها لكي تسامحها وقالت وهي تبكي:

- لقد أخطأت كثيراً. كان علي أن لا أذهب إلى كلافينوس!.

وبدا على هذه الراهبة أنها قد ندمت كثيراً، لدرجة أن همونيا ذات القلب القاسي أشفقت عليها وبدأت تخفف عنها.

وأما بوبيليا الصغيرة فلم تكن تفهم ماذا يجري، وكانت لا تفارق فانينا أبداً خاصة عندما لا يكون لديها درس مع أحد الأساتذة. كانت تلاحقها كظلها وعلامات الحزن والاستغراب على وجهها، وكانت الراهبة الشابة تُجلس هذه الصغيرة في حجرها، تحتضنها وتهزهزها، وكأنها تحتل مكان ابنها الذي لن تراه أبداً.

وكانت راهبات فستا يجرين دائماً أمام الفتاة برفقة خدمهن وعبيدهن النشيطين. وكان هؤلاء الخدم والعبيد يرمقون فانينا بطرف أعينهم دون أن يلفتوا انتباهها. وإذا لم تكن موجودة في المحراب، أو المعبد الصغير، أو خلف الباب البرونزي الثقيل فهي ليست في مأمن من نظراتهم، فهم يرصدون جميع تحركاتها، وينصتون إلى كل ما تتكلم به، وكانت تقرأ في أعينهم الغدر والخسة.

هؤلاء هم الجواسيس الذين زرعهم كلافينوس هنا!.

كان جميع الأساتذة قد بدؤوا يتوافدون من جديد ومن جميع الاختصاصات على بيت فستا، بناء على طلب فانينا، وكأنهم يقومون باستعراض رسمي، فالراهب "فارناياز" الذي يتبع إيزيس، إلهة مصر أخذ يعلم الفتاة الشابة أسرار الديانة المصرية، والكالياني "تاجت" يعلمها شفهياً الأدب الكلتي وظل يترنم ببعض القطع الفريدة منه التي تخطر على باله حتى بعد أن أصبح رومانياً. أما "كافيديا" العظيم. فسعى أن يؤثر على تفكيرها لكي يشد انتباهها وهو يعرفها على الأعشاب السحرية المعجزة التي يتحتم جمعها في أوقات معينة.

تُرى، ما الذي بقي في ذاكرة الفتاة الشابة بعد أن تم حشوها بكل هذه المعلومات الكثيفة والمتشعبة؟ ربما بقي القليل. ولكن التعليم لم يكن الهدف الأساسي لفانينا. لقد كان هدفها الأول هو ملء الفراغ.



هذا هو اليوم السادس لاعتكاف فانينا في بيت فستا. وكانت قد أمضت معظم وقت الصباح في ترجمة ركيكة لنص أترسكي نقلته إلى اللغة اللاتينية بمساعدة كاهن من بيزا، بعد ذلك ذهبت إلى غرفتها، فوجدت همونيا في انتظارها ومعها فتاتان شابتان

إحداهن طويلة القامة شعرها مثل لون ثمرة الذره، ولون عينيها فاتح، وبشرتها وردية اللون، أما الثانية فكانت قصيرة القامة، ممتلئة وشعرها أسود ذو لمعة كحلية، وعيناها خضراوان كالزمرد، تلفت النظر.

تقدمت المربية مع الفتاتين وسألت فانينا:

- هل عرفتهما؟

فصاحت فانينا بفرح وبلا تردد وقد تذكرت هاتين الشابتين اللتين كانتا من العبيد، وكانتا تشاركانها اللعب أيام الطفولة السعيدة، في بيت أبويها.

- كاتيا. مليكسو!.

انحنت مليكسو السمراء القصيرة الأفريقية على قدمي الراهبة الشابة وقبلت يديها. أما الألمانية كاتيا فقد تقدمت خطوتين ونظرت إلى سيدتها بعينيها البراقتين وحاولت أن تنحني أيضاً، ولكن فانينا أمسكتها من كتفهيا وقبلتها بمحبة ثم أوقفت مليكسو على قدميها.

تابعت همونيا كلامها:

- كان والدك قد أرسلهما إلى بيتكم الصيفي في "كوزا" في اليومِ الذي تم فيه اختيارك إلى رهبنة فستا. وقد كنت متأكدة من أنك سوف تكونين مسرورةً لرؤيتهما!.

فردت فانينا:

- ليس هناك من شيء يمكن أن يدخل على قلبي السرور كرؤية هاتين الشابتين، ولكن ما رأي فبيديا؟

- لم تعترض العذراء المقدسة على وجودهما، بل قالت إنهماسيكونان إلى جانبك صديقتين تستطيعين الاعتماد عليهما على أقل تقدير!.

أجلست فانينا الفتاتين على سريرها. جلسن فترة طويلة، استعادت خلالها فانينا ذكريات الطفولة السعيدة.

كانت مليكسو فتاة قليلة الكلام ومنغلقة على نفسها، أما كاتيا فلم تكن تتوقف عن الكلام، كانت كلما تكلمت أكثر ازدادت إشراقاً. لقد تعلمت الفتاتان بشكل جيد، لأن والد فانينا لم يبخل على تعليمهما أبداً.

قالت الفتاة الألمانية:

- لقد أحسن سيدنا في تعليمنا. علّمنا كل شيء. وأضافت وهي تبحث عن المفردات المناسبة لكي تبدي امتنانها:

- لقد صرنا نشعر بوجودنا بشراً لا حيوانات، وأننا كباقي الفتيات.

فردَّت عليها فانينا وهي مسرورة لرؤيتهما بعد كل هذه المدة الطويلة:

- سوف تصبحان بعد فترة وجيزة مثل باقي الفتيات الشابات تماماً وأنا أعدكما أن أبي سوف يحرركما.

نظرت الفتاتان إلى بعضهما باستغراب.

فأعادت فانينا:

- نعم أعدكما بهذا.

وبعد قليل صعدت همونيا مع مليكسو إلى الغرفة التي في الطابق العلوي، والتي ستتقاسمها مع كاتيا، وبقيت فانينا مع الفتاة الألمانية، وبعد فترة من الصمت سارت كاتيا نحو الباب وفتحته ثم نظرت خارج الباب وتأكدت من عدم وجود أحد، ثم عادت ووقفت إلى جانب فانينا التي استغربت تصرفها هذا وسألتها:

- هل تعلمين أن هناك أناساً يترصدونك ويريدون إيذاءك أيتها السيدة.

فردت فانينا وهي غاضبة:

- ماذا تقصدين؟

فدنت منها كاتيا أكثر وقالت:

- لقد أرسلنا سيدي أنا ومليكسو هذا الصباح، قبل أن نأتي إلى هنا، إلى ساحة سبتا جوليا لكي نشتري بعض الثياب وبينما كنا في الدكان دخل أحدهم وسألني فيما إذا كنت أحد عبيد والدك أم لا. وكانت مليكسو في الغرفة المجاورة مع المرأة البائعة، وما إن قلت له نعم حتى سألني إن كان حقاً أني أتية إلى هنا، لأكون معك ؟

- وكيف عرف أنك سوف تأتين إلى هنا؟

هزت كاتيا رأسها وقالت:

- لا أدري يا سيدتي ولكنني قلت له إنني لا أعرف أي شيء عن نوايا سيدي. فقال لي: إنه يعرف سبب مجيئي إلى روما وهو على استعداد لأن يحررني ويدفع لي مبلغاً من المال!.

عضت فانيناعلى شفتها وسألتها:

- بكم وعدك؟

- بخمسين ألف قطعة فضية أيتها السيدة.

- إنه مبلغ ضخم. وماذا قلت له أنت؟

طأطأت كاتيا رأسها وقالت:

- لقد سألته عما هو مطلوب مني، فقال أريدك أن تخبريني عن جميع تحركات سيدتك، وليس هناك أية مخاطر تتهددك من جراء ذلك، لأن من يطلبون هذه المعلومات هم أناس أقوياء جداً.

بلعت فانينا ريقها وسألتها:

- ماذا جرى بعد ذلك؟

احمرَّ وجه كاتيا وصار كحبة شمندر، وبدأت تتكلم ودموعها تنهمر على خديها وهي ترتجف:

- لا يستطيع العبد أن يرد على الحر بالرفض أيتها السيدة الشابة، وقد قلت لهذا الرجل سأفكر بالأمر.

عندها أمسكت فانينا كتف الفتاة الألمانية وبدأت تداعبها وهمست قائلة:

- أشكرك يا كاتيا.

فتمتمت كاتيا قائلة:

- أنا لم أقم بشيء أستحق عليه الشكر يا سيدتي.

بعد ذلك غرقت فانينا بأفكار عدَّة، ولم تحِرْ جواباً، ثم رفعت رأسها وسألتها

وهل تكلم ذلك الرجل مع مليكسو أيضاً؟

- لا أدري يا سيدتي الصغيرة، إلا أن الرجل كان مايزال في الدكان عندما عادت مليكسو، أما أنا فقد ذهبت إلى الغرفة المجاورة لكي أجرب الثياب.

في هذه الأثناء دخلت همونيا ومليكسو، فقالت المربية مخاطبة كاتيا:

- تعالي معي إذا كنت ترغبين في ترتيب أغراضك؟

وخرجت همونيا هذه المرة بصحبة كاتيا وبقيت فانينا مع مليكسو، وبعد أن ابتعدت أصوات وقع أقدام همونيا وكاتيا سألت فانينا:

- هل لديك ما تقولين يا مليكسو؟

فأشاحت هذه السمراء الأفريقية بنظراتها عن السيدة وقالت:

- أبداً يا سيدتي الصغيرة!.



انتهى اليوم السابع، وبدأت فانينا تفكر بأبيها وأمها، فالحب الذي يكنه السيناتور فانينوس وزوجته لابنتهما، لم يبوحا به أثناء زيارتهما الأخيرة إلى بيت فستا ولكنهما جعلاه يملأ الرسائل القصيرة التي تلت فيما بعد.

فهمت من همونيا التي أرسلتها إلى أهلها لتقصي بعض الأخبار، أنهما لم يحضرا لزيارة ابنتهما بناء على توصية رئيسة الراهبات!.

وفي الوقت نفسه علمت أيضاً أن والدها استلم رسالة من السيناتور فيندكس في الليلة الماضية يعلمه فيها أن ابنه فيندكس قد خرج من الكلوسيوم واستلم طريق سيانا، وبعد استراحة قصيرة عند بحيرة تراسيمان، تابع طريقه إلى غالة. لقد استغرق وصول الرسالة التي كتبها له أحد أصدقائه وسلمها لأحد القادة الذي أوصلها له في روما خمسة أيام بالتمام. عندها قامت همونيا وفانينا بإجراء حساب بسيط، فوجدتا أن المخبرين اللذين أرسلتهما فبيديا لكي يتقصيا آثار ابن السيناتور لا بد أن يكونا قد لحقا به.

أمضت فانينا قسماً من صباح هذا اليوم في بيت الآلهة وأجرت تجربة على المظاهر المطلوبة منها، بتوجيه من ماكسيميليا، ولم تستطع أن تمنع نفسها من إلقاء نظرة على الدرج الذي شاهدت عليه القزم ذا القفطان الجلدي، إلا أنها لم تشاهد أحداً على الدرج في هذا الصباح، إذ كانت الأمطار تتساقط عليه وكأنها شلال!.

بعد الظهر، ذهبت الراهبة الشابة إلى غرفة الضيوف المخصصة لها إلى جانب محرس البوابين بعد أن أنهت دورها في المناوبة عند محراب فستا. وهنا وجدت السيدة لوكست. وقدسبق أن علمت من فبيديا أن الأمبراطور كان قد ألقى بهذه السيدة في السجن لكي لاتؤذي أحداً وقد أفرج عنها الآن واستُدعيت اليوم لكي تعلم فانينا تصنيع الأدوية المضادة للسموم حسبما قالت لها فبيديا!.

قد تكون لوكست هذه هي القاتل المخيف في هذه الأيام العصيبة، وهي وحدها التي تعرف عدد الأشخاص الذين قتلوا بسمومها، مع أن أحداً لا يمكنه الشك في أن هذه السيدة الممتلئة، ذات الوجه البشوش يمكن أن تكون شعاراً للموت وعنواناً له!.

وعلى خلاف عادتها فقد بدا على لوكست الجدّية في هذا اليوم فما أن دخلت فانينا حتى بادرتها بالكلام فوراً:

- لقد جاءني البارحة أحد المرموقين، وطلب إليّ أن أصنع له خلطة تستطيع إيقاعك في أحضان أول رجل تقابلينه، وتجعل تصرفاتك مستهجنة معه، وبذلك يكون القتلة قد اختصروا الطريق لقتلك ودفنك وأنت حية في لحدٍ محفور في مغارة القتلة والمجرمين أيتها العذراء المقدسة.

لم تستغرب فانينا ما قالته لوكست فهي تتوقع كل شيء من أعدائها، لكن مزاجها قد تعكر، لأن ذلك الكابوس المخيف سوف يستمر لوقت طويل.

استمرت لوكست في حديثها ونظراتها لا تفارق راهبة فستا وهي تحاول أن تقرأ أفكارها. وقالت:

- لقد أجبته أنك محصنة ضد جميع أنواع السموم، وإن أي خلطة سأحضرها من أجلك لن تؤثر فيك مطلقاً.

من كان هذا الشخص الذي يحتل مركزا مرموقاً يا ترى؟ هل هو كلافينوس، أم ذو اللحية البرونزية؟ ولماذا خدعت لوكست "زبونها" وكذبت عليه؟

شعرت أن المخاطر تحيط بها من كل جانب، لكن فانينا لم تتح للمرأة أن تعرف أي شيء عن أفكارها، لقد كانت تكتفي بسؤال نفسها فقط، بعد ذلك بلعت ريقها وهي تتابع كلام لوكست.

أخذت لوكست تتردد بعض الشيء، وقد بدا عليها بوضوح الاستغراب من اللامبالاة التي أظهرتها فانينا. وأخيراً مدَّت يدها إلى صدرها وهي لا تزال مترددة وأخرجت سلسالاً طويلاً في نهايته علبة صغيرة مذهَّبة ومرصعة بالأحجار الكريمة ثم فتحتها وقالت:

- انظري.

كانت العلبة مملوءة بحبوب صغيرة بلون الفضة. ثم بدأت بتوضيح الأمور، فقالت: سبق أن أخبرتك عدة مرات أيتها العذراء المقدسة عن السموم المضادة، التي كان يستعملها ملك "بونتس" "متيريدات أو باتور"، وكانت غايتي من وراء ذلك هو أن

أخرج من سجني وأستنشق بعض الهواء، لم أكن أعلم أنه كان معرضاً للخطر في ذلك الحين!.

كانت فانينا تستمع لهذه المرأة دون أي انفعال، ولكنها كانت تسجل في ذاكرتها كل ما تقوله. ناولت لوكست العلبة لفانينا وقالت:

- هذا أفضل علاج مضاد للسموم كان يستعمله ميتريدات. إن تركيبه يحتوي على سائل لونه وردي تفرزه أرانب البحر. ممزوج بدم البط الذي تربى وسط الحيوانات التي تعيش على السموم فقط في منطقة "بونتس". لقد كانت جدتي هي التي ساعدت ميتريدات في صنع هذا الخليط، وهي التي علمتني هذا السر. فإذا أخذت حبة واحدة كل صباح ولمدة أسبوع فإنك سوف تكونين محصنة ضد جميع السموم القاتلة بما فيها ذلك السم القاتل الذي تحضره راهبات الإله المصري توت من نواة الدراق، أما إذا استعملت هذه الحبوب لمدة سبعين أسبوعاً فسوف تصبحين مثلي محصنة ضد السموم حتى آخر العمر!.

بعد ذلك مسكت لوكست العلبة في يدها وتقدمت نحو الراهبة الشابة خطوة واحدة ثم تابعت كلامها:

- قد تستغربين، كيف يمكن لمخلوقة مثلي أن تنتزع هذه الهدية الغالية من روحها وتهبها لك؟

لقد أصبحت العلبة الآن تلامس صدر فانينا، وكانت الامرأتان مازالتا تنظران في وجهي بعضهما البعض، فلمحت فانينا بريقاً غريباً في عيني لوكست وكأنها تريد أن تبكي.

استمرت لوكست في حديثها:

- دعيني أجيبك على هذا السؤال أيتها العذراء المقدسة. أنت جميلة جداً وأجمل مما قد يتخيل أي إنسان، ولا بد لمن يراك وأنت في هذا الجمال الذي حُبيتِ به إلا أن

يحبك، لذلك فإن كل من يحاول إيذاءك هو إنسان سافل أكثر مني وهو يستحق كراهيتي.

على الرغم من كل ما قالته لوكست، فقد ظلت فانينا محتفظة بصمتها. كانت مثل تائهة في نفق مظلم تبحث عن مخرج منه إلى النور، ولكن ما أن تخرج حتى تدخل في نفق آخر أشد ظلاماً.

بعد ذلك أطلقت لوكست صرخة مخنوقة وقالت لها وهي تتوسل:

- خذي هذا الدواء، فأنت بحاجة إليه أكثر مني، فأنا لم أعد راغبة في التمسك بحياتي التي لم يعد لها أي فائدة. استحلفك باسم طائر (مينرفا) المقدس أن تأخذيه.

مدت فانينا يدها، فقالت لها لوكست:

- يجب أن تبلعي حبة صباح كل يوم أيتها العذراء المقدسة ولكي لا تنسي ذلك علّقي هذه العلبة في عنقك.

كان وجه هذه المرأة يشع سروراً، وبدت نظراتها إلى فانينا مفعمة بمشاعرالمحبة، فتحت راهبة فستا الباب المؤدي إلى الباحة بهدوء ولكن لوكست أمسكتها من يدها وقالت لها:

- أيتها العزراء المقدسة إن الشخص الذي طلب مني تلك الخلطة التي حدثتك عنها كلفني بنقل رسالة لك!.

فردت فانينا بسرعة:

- قولي، أي رسالة؟

- قال لي: "أبلغي فانينا، راهبة فستا أن هياراكس لم يعد على قيد الحياة".

- ماذا؟ هل قلت هياراكس؟ نعم لقد سمعت بهذا الاسم من قبل!.



في القاعة الكبيرة الكائنة في الطابق الأول من بيت فستا، تقابلت فانينا مع كل من همونيا وفبيديا وحرصت على إظهار ردة فعلها فصرخت قائلة:

- لم يعد هياراكس على قيد الحياة!.

- سألت رئيسة الراهبات التي لم يظهر على وجهها أي تعبير:

- وما يعني هذا؟

- إن أحد المرموقين الذين يضمرون لي الشر قد أمر لوكست أن تنقل هذه الرسالة لي!.

بعد ذلك أدارت الفتاة الشابة ظهرها، وذهبت إلى شقتها، لأنها لم تر أي فائدة من الكلام!. كان هياراكس شخصاً مجهولاً عندها، وقد تصورت أن هناك مؤامرة جديدة وراء هذه الاسم، للنيل منها. راحت الراهبة الشابة تلتفت حولها وتراقب أقل حركة، يملؤها شعور أن نظراتها تلتقي دائماً بإحدى العيون المتوحشة التي تراقبها. تمنت الموت لكي تتخلص من هذه القيود التي يريد أعداؤها وضعها في عنقها، ليشلوا حركتها.



ما إن دخلت فانينا غرفتها حتى شاهدت كاتيا الفتاة الألمانية التي تجلس على سريرها قد دست الرسالة التي كانت تقرؤها في صدرها!.

مالذي بداخل الرسالة يا ترى، ولماذا أخفتها كاتيا؟

وبعد أن دخلت فانينا الغرفة جاءت همونيا مسرعة وسألتها:

- لقد قلت هياراكس، أليس كذلك يا عزيزتي؟

فصرخت كاتيا:

- هياراكس أليس كذلك؟

فوجئت فانينا والمربية فسألت همونيا:

- هذا يعني أنك تعرفين هذا الاسم!.

فأجابت كاتيا ضاحكة:

- إنه اسم عبد إيراني عجوز تعرفت عليه عندما كنا في "كوزا". إنه عبد حاكم البلقان. لقد أخذه معه سيده منذ سبع أو ثماني سنوات عندما استلم مهام وظيفته.

هزت فانينا كتفها وقالت:

- في هذه الحالة لا يمكن أن يكون هو نفس الشخص!.

سحبت همونيا الفتاة الألمانية وبدأت بالتحقيق معها:

- لقد قلت أن هياراكس هو إيراني أليس كذلك؟

- نعم. لقد قلت ذلك.

تضايقت فانينا وقالت:

- بما أنه ليس هو الرجل الذي تسألين عنه، ماذا يهمك إن كان إيرانياً أم غير إيراني؟

- معنى ذلك أن هناك إيرانياً اسمه هياراكس وهو..

ثم توقفت همونيا عن الكلام وقد شحب لونها فسألتها كاتيا مستغربة:

- ماذا جرى لك؟

أسرعت همونيا نحو الباب دون أن تعطي جواباً وسارت باتجاه شقة الراهبات. بعد ذلك التفتت فانينا إلى الفتاة الألمانية، وهي لا تريد أن تشغل تفكيرها بهذا الموضوع أكثر من ذلك وقالت لها بلهجة الأمر:

- هيا. انزعي ملابسي، ودلكينني، فأنا أشعر بالبرد.

نظرت كاتيا بأسى إلى وجه سيدتها التي كانت تتكلم معها وكأنها تؤنبها، وأطاعت الأوامر، وقامت بخلع ملابس راهبة فستا في لمح البصر، ثم بدأت بمسح صدرها وبطنها وذراعيها وساقيها بزيت أخرجته من قرن الكركدن.

كانت فانينا تراقب حركات الفتاة الألمانية وهي تنتظر أن تنحني فوقها عندما تبدأ بتدليك كاعبيها لكي تمد يدها إلى صدر هذه الأمة، وتختطف الرسالة من صدرها بسرعة.

خطفت فانينا الرسالة، فهبت كاتيا ووقفت على قدميها وقد احمر وجهها، وبصورة لا شعورية رجعت إلى الوراء وهي غاضبة جداً. بدأت الفتاتان الشابتان تنظران في وجهي بعضهما البعض، ثم فتحت راهبة فستا الرسالة ببطء، وألقت نظرة سريعة عليها واكتسى وجهها بلون وردي، ثم أعادت الرسالة إلى كاتيا وقالت لها:

- اعذريني. لم أكن اعلم. لم أكن أستطيع أن أعلم!.

مسحت الأمة يديها التي تلوثت بالزيوت بثيابها بصورة لا شعورية وأخذت الرسالة التي أعادتها فانينا التي راحت تكرر الاعتذار وهي تخجل من النظر في وجه خادمتها:

- لم أكن أستطيع أن أعلم. سامحيني يا كاتيا!.

فأجابتها الأمة بكل هدوء:

- لا لزوم للاعتذار يا سيدتي الشابة فأنت تملكين مثل هذا الحق.

فأجابت فانينا والشرر يتطاير من عينيها:

- أبداً. ليس لي الحق. ولو كنت أعرف ما بداخل الرسالة. لما مددت يدي إليها مهما كلف الأمر.

ثم تابعت كلامها بعد أن توقفت قليلاً:

- إذن، أنت عاشقة يا كاتيا!.

كادت كاتيا تقول لها: "وأنت أيضاً"، لكن الفتاة الألمانية طأطأت رأسها وكأنها تقول لها نعم. استمرت فانينا بسؤالها:

- إنه يحبك أيضاً أليس كذلك؟

هذا ما يقوله دوماً في رسائله.

- إذن أنتما سعيدان؟

وإجابة على هذا السؤال غطت كاتيا وجهها بيديها وجلست على حافة السرير.

فقالت لها فانينا باستغراب:

- هذا أمر بديهي، إذا كان هو يحبك أيضاً.

بدأت كاتيا تبكي وتقول:

- أنا أريد أن أكون له، ولكنني لست حرة!.

حضنتها الراهبة الشابة، وجلست إلى جانبها وقالت لها وهي تحاول تهدئتها.

- لقد وعدتك أن تكوني حرة، وسوف أنهي هذا الموضوع مع أبي في أثناء زيارتي القادمة!.

كانت فانينا تعتقد أن ذلك سيخفف من همومها ويدخل السعادة إلى قلبها، لذا انتظرت من هذه الأمة أن تكون ممتنة جداً، وأن تعبر عن هذا الامتنان بفرحة عارمة، غير أن كاتيا اكتفت بهذه الكلمة:

- أشكرك ياسيدتي.

لكن خطوط التعاسة التي كانت قد ارتسمت على جبينها ظلت موجودة. لاحظت فانينا ذلك فسألتها:

- ألازلت تعيسة ياكاتيا؟

همست الفتاة الألمانية بكلام، لا يمكن سماعه إلا بصعوبة بالغة.

- أنا لا أصدق ياسيدتي أنني سأصبح حرَّة وسعيدة، فأنا مهما رجعت إلى الوراء لا أجد فرداً واحداً من عائلتي قد نال حريته!. فجد جدي وُلد عبداً. ومنذ أن سحقت بلادك بلادنا في حرب فرسي أصبحنا جميعنا عبيداً. نحن هكذا منذ مئة وثلاثين عاماً ياسيدتي .

جاء دور فانينا لكي تُطأطئ رأسها:

حضنت الفتاتان الشابتان بعضهما البعض، وظلتا لفترة قصيرة هكذا صامتتين بلا كلام. بعدها قطعت راهبة فستا هذا الصمت فقالت:

- من هو الذي أحببته يا كاتيا؟

وكأن الفتاة كانت تنتظر مثل هذا السوءال فأجابت بتردد:

- إنه شاب جميل واسمه فيدريكس يا سيدتي، وهو ألماني مثلي ولكنه ولد حراً. ولقد تعرف على غابات بلادنا الهادئة والرائعة. آه يا سيدتي لو تعلمين كم هي جميلة غاباتنا. لقد روى لي فيدريكس الكثير عن هذه الغابات الجميلة وقال لي إننا سنختار فيها مكاناً لكي نمضي باقي العمر.

شعرت فانينا بالحسرة فالرجل الذي تحبه، قد حدثها أيضاً عن غابات غالة وكيف أنه سيختار ركناً في هذه الغابات. ليمضيا حياتهما بسعادة وهناء. وها هو يعود الآن إلى غالة ، بعد أن عرف كلافينوس بأمره، وهو يسلك الطرق السرية التي استدل عليها بواسطة المخبرين اللذين أرسلتهما فبيديا.

كانت الفتاة الألمانية قد تخلت عن الصمت ولم تعد تتوقف عن الكلام، فاستحضار الحبيب يبعث النشوة، وكان شعرها الذي يشبه لونه لون شعر الذرة، يتطاير كلما تكلمت، ويلامس في بعض الأحيان خصلات شعر فانينا الذهبية. لم تكن كاتيا لتمل من النظر إلى راهبة فستا وهي مأخوذة بجمالها، واستنتجت مما روته لها فانينا، أنها لن تتمكن من أن تعيش مع فيندكس في أحد الأيام. ثم قالت وهي تفتخر:

- إن فيدريكس طويل القامة، وهو بطول، أطول حراس الإمبراطورية الألمان ياسيدتي. إنه طويل جداً، وأشقر جداً، وزرقة عينيه كزرقة البحر.

فكلمت فانينا نفسها" وحبيبي عيناه زرقاوان أيضاً. "

- لقد كان يصطحبني معه كل يوم إلى المزرعة،قرب قصر والده في كوزا، وقد قبلني في أول لقاء لنا ثم طوقني من خصري، ومر بشفتيه فوق شفتي، واختلطت أنفاسنا مع بعض. ثم شعرت في حلقي وفي ساقيّ أيضاً أن هناك شيئاً ما قد حدث!.

ثم تقابلت نظرات الفتاتان الشابتان واحمر وجه كاتيا. أما فانينا فقد أحست بالحرارة تصل حتى جذور شعرها، فوضعت يديها على صدرها بشكل متصالب وابتعدت قليلاً عن هذه الفتاة الأمة.

فسألتها كاتيا وهي مضطربة:

- هل أغضبتك يا سيدتي؟

- ها.. أبداً!.

تنفست كاتيا الصعداء وأردفت قائلة:

- كم أنت جميلة، و رائعة يا سيدتي. فأنا لن أسامح نفسي أبداً إن ضايقتك.

انتصبت الفتاة الشابة بعد ذلك ومالت على فانينا التي لم تتحرك من مكانها وقبلت يديها التين كانت قد وضعتهما على صدرها بشكل متصالب، وحلتهما. وبدأت تلبسها ثيابها بلطف.

بعد ذلك بدأت تمشط لها خصلات شعرها الذهبية بالفرشاة المعطرة، وعندما بدأت تضفر شعرها سمعت وقع أقدام مسرعة على الدرج، ثم فتح باب الطابق السفلي وأغلق بضجة. وبعد أن ارتدت فانينا ثيابها، فتحت النافذة قليلاً، فشاهدت كلاّ من رئيسة الراهبات وهمونيا في الطابق السفلي وهما تركضان، وعندما وصلتا إلى محرس البوابين تصدى لهما أحد البوابين فصرخت فبيديا:

- هيا أحضر لنا عربة بسرعة.

اختلط صوت عجلات العربة التي كانت تسير فوق بلاط الساحة، مع الضجة التي كانت تنبعث من الشارع الجانبي، فأغلقت فانينا النافذة وهي منزعجة. كانت كاتيا تنظر إليها باستغراب، فضحكت الراهبة الشابة في وجه صديقتها ثم دنت من الصندوق الذي تكدست فوقه ثيابها ، وأمسكت في يدها العلبة الذهبية التي أعطتها إياها لوكست.

هل هو سم؟ أم مضاد للسم؟ وهل وثقت فانينا بنوايا هذه المرأة القاتلة؟ لم تتجاوز ثقتها بها العشرة بالمئة. ولكن ما قيمة هذه الثقة التي تعادل عشرة بالمئة، إلى جانب العهد التي قطعته هذه الفتاة الشابة على نفسها أمام فبيديا، والإمبراطور، والآلهة، والذي تعهدت فيه بحماية المدينة؟ لقد غامرت من أجل ذلك بمستقبلها مع كايوس فيندكس، الذي لم يبق له سوى خطوات قليلة حتى تصل الخيل التي يركبها إلى غالة. لم يعد هناك أي أهمية لأي شيء بعد ذلك!.

تناولت فانينا قليلاً من العسل من الإناء الفضي، إلا أنه لم يقض على الطعم المر الذي شعرت به وهي تمضغ الحبة بأسنانها، ثم قالت لكاتيا:

- جمّليني. أريد أن أكون جميلة جداً. فأنا ذاهبة إلى المعبد لكي أستلم المناوبة من آنيا. لأن دور مناوبتي قد حان.



حلَّ المساء وتوقف هطول المطر، وأنهت فانينا مناوبتها وخرجت من المعبد وبرفقتها اثنتان من العبيد تحمل كل منهما مشعلاً، ذا شعلة صفراء ينعكس ضوؤها على البلاط الحجري، فيرسم ظلالاً راقصة على الأعمدة المحيطة بالمعبد. توقفت فانينا فجأة، وكأنها قد لمحت ظلاً فوق الجدار الذي يستند عليه المعبد. وما إن التفتت الراهبة إلى ذلك المكان حتى سمعت صوت حذاء ضخم ذي نعل حديدي يهبط فوق أحجار الحديقة. ثم سمعت بعد ذلك وقع أقدام مضطربة تبتعد، إلى أن تلاشت.

كان وقع الأقدام يشبه وقع أقدام رجل عاجز، ساقاه مجبرتان بمساند حديدية. تذكرت فانينا أن هذه الأصوات تشبه تلك التي كانت تصدر عن القزم ذي القفطان الجلدي، عندما كان يحاول أن يركض وهو يسير كالبطة!.

لكنها لم تصرخ، ولم تنادِ على أحد، ولم يُغمَ عليها، إلاّ أنها تأكدت أن هناك من يريد أن يضيق عليها الخناق أكثر فأكثر؛ وأنها يجب أن تستعد للتصدي للضربة الجديدة التي قد توجه إليها.. مضت في طريقها إلى بيت فستا بمنتهى الجدية دون أن تلتفت حتى بطرف عينها إلى الفتاتين اللتين كانتا تسيران إلى جانبها، وهما تنتظران أي ردة فعل منها.

في وقت متأخر من الليل عادت فبيديا وهمونيا، وكانت الراهبة الشابة قد أسندت رأسها على خلفية السرير، دون أن تنام. وقد سمعت السيدتان تتكلمان وهما تصعدان الدرج. وقفتا طويلاً في ردهة الطابق الأول، بعد ذلك تركت رئيسة الراهبات همونيا لأنها كانت ترغب في القيام بزيارة سرية قصيرة إلى المدينة، وسلكت طريق القاعة الكبيرة المملوءة بالملفات.

وبينما كانت همونيا تجهز نفسها لكي تنام في ردهة شقة فانينا، تعثرت قدمها بمليكسو التي كانت تنام على الأرض، ثم ارتمت على سريرها منهكة.

في تلك الليلة لم تُقبّل همونيا فانينا، ولم تستطع أن تذهب إلى سريرها لكي تغطيها كعادتها كل يوم.

القسم الثاني عشر

كانت الكوابيس المبهمة، والمتعاقبة تقض مضجع فانينا وقد أيقظتها ليلاً عدة مرات، ولم تستطيع أن تخلد إلى النوم قبل الشفق.

لم تعرف حتى الآن كيف وجدت نفسها في الطابق الأرضي للبناء، ممسكة بطرف معطفها الذي كانت قد التفت به. كانت تتخيل، كأنها اصطدمت بكل من همونيا ومليكسو النائمتين حول سريرها أثناء خروجها من الغرفة، وأنها نزلت على الدرج وكأنها تتدحرج وهي مسرعة، كما كان حالها في تلك الليلة التي قامت فيها رئيسة الراهبات بجلد نموشيا. إنها تسير الآن في الممرات الطويلة الفارغة الممتدة في قلب مبنى الخدم ورجلاها ترتجفان!.

وأخيراً وصلت إلى الباحة المرصوفة بالحجر، وتوقفت عند الباب المنخفض الذي لم تجتز عتبته منذ عشر سنوات. كان يقف عند الباب عبدان حبشيان يحملان المشاعل وهما خائفان، فأبعدتهما عن طريقها وبدأت تنزل الدرج الذي كانت درجاته رطبة تسبب الانزلاق.

هنا بدأت تسمع بجلاء، صيحات الأنين والاستغاثة التي تقشعر لها الأبدان. اختلط الأمر، أهو كابوس أم حقيقة. تقدمت والخوف والاستغراب يسيطران عليها.

بعد قليل وجدت نفسها تقف أمام الصالة ذي القبة، ولمحت في نهايته امرأة عجوزاً من العبيد معلقة على أوتاد مثبتة فوق عمودين، عارية كما ولدتها أمها، شعرها

أبيض متسخ، وبشرتها صفراء موشاة بعروق زرقاء. وكان يسهل معرفة عدد أضلاعها من ظهرها العاري الذي أصبح مطرزاً بآثار السياط. لم تعد تستطيع البكاء، وكانت عظامها وعروقها وجلدها قد انشدت على عنقها كالحبل فلم تعد تستطع أن تحمل رأسها الذي كان يتأرجح على الطرفين!. شعرت فانينا بالدوار ولكي لا تسقط على الأرض استندت إلى الجدار وشعرت بسائل مرّ بدأ يقذف في فمها على دفعات، ثم راحت ترتجف من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، وأحست بالاختناق، ثم قفزت إلى الأمام وهي تريد أن تتقيأ!.

في هذا الوقت بالذات امتدت إلى خصرها يدٌ قوية وطوقتها. ثم انحنت فوقها فبيديا وقالت لها بقسوة وكأنها قد وضعت قناعاً على وجهها، أو كأنها تعرفت على فانينا من خلال حاجز سميك من الضباب:

- لماذا جئت إلى هنا؟

كان الشعور بالاقياء ما يزال ينتاب فانينا فهزت رأسها يميناً وشمالاً، ثم ألقت برأسها على صدر فبيديا، وأطلقت صرخة قوية وهي تقول لرئيسة الراهبات:

- كفى. كفى. لماذا تقتلين هذه المرأة. لماذا؟

أشاحت فبيديا بوجهها وهي لا تريد أن تجيب على سؤال فانينا وبدأت تنظر إلى نهاية الممر. عندها أدركت فانينا أن صوت الجلد قد توقف وأن جسم العجوز قد توقف عن الحركة، ثم ما لبثت أن سمعت صوت وقع أقدام مثير، ليظهر بعد ذلك خيال امرأة ممتلئة تمسك بيدها سوطاً كبيراً مصنوعاً من جلد فرس النهر ومطعماً بحبات الرصاص.

كانت المرأة سوداء وملامحها غليظة، وذات شعر أسود مدهون بالزيت، ووجه عادي، وعيناها متورمتان جداً.

ارتعدت فانينا بصورة لا شعورية. إنها تعرف هذه المرأة ولكنها لا تتذكر أين شاهدتها.

سألت فبيديا هذه المرأة:

- ماذا جرى؟

أشارت المرأة الممتلئة بيدها إشارة تفيد أن كل شيء انتهى، وقالت:

- علينا أن ننتهي من هذا الموضوع بأسرع ما يمكن يا سيدتي. فهذا أفضل.

وبصوت ناعم يدعو للاستغراب، وكأنه صوت فتاة صغيرة، صوتٌ كانت فانينا قد سمعته من قبل، أمرتها رئيسة الراهبات قائلة:

- تعالي إذن!.

وبينما كانت تسحب فانينا إلى الباب استدارت ونادت:

- اريكسيا!.

فأجابت السيدة الممتلئة:

- حاضر يا سيدتي.

- أريد أن أرى المرأة جاهزة قبل كل شيء، ومن ثم تستطيعين أخذها إلى باحة الطاحونة لكي يشهر بها لمدة ساعتين، وبعد ذلك عليك أن تلقي بها فوق إحدى المزابل القريبة من أبواب المدينة!.

سحبت فانينا معصمها بقوة من يدي فبيديا وصرخت في وجهها وعيناها تكادان تخرجان من محجريها:

- اشكر الله أنني قد عرفتك أخيراً! يالك من غادرة، تتلذذين بتعذيب الناس، ولكن لماذا أوكلت مهمة قتل هذه المرأة المسكينة إلى أحدٍ غيرك، مع أنك أنت التي قمت بجلد نموشيا؟ أنت متوحشة!.

لم تكترث رئيسة الراهبات بما قالته فانينا، بل. نادت:

- اريكسيا!.

دنت المرأة الممتلئة من باب المستودع وهي تلهو بشريط رفيع من الجلد.

سألتها فبيديا:

- من تكون هذه الأمة؟

- إنها مربية دوميتوس ذى اللحية البرونزية يا سيدتي!.

- ومن أتى بها إلى هنا؟

إنه رئيس الرهبان كلافينوس المحترم يا سيدتي!.

- وماذا وجدت بين أغراضها؟

- وجدت رسالة من ذي اللحية البرونزية يا سيدتي.

- ما الذي تحتويه الرسالة؟

- ذو اللحية البرونزية يشكر فيها مربيته على المعلومات القيمة التي زودته بها عن الراهبة المحترمة فانينا يا سيدتي. و يقول فيها أيضاً إنه في حالة فشل خطة رئيس الرهبان كلافينوس، فإن لديه خطة فعالة وعظيمة جداً!.

- وماذا أيضاً؟

- يسأل مربيته أيضاً عما إذا كان باستطاعتها أن خداعه راهبة فستا فانينا، وأخذها هذه الليلة وبعد حلول الظلام إلى زقاق الحلاقين في سبور؟

- وما هي خصوصية زقاق الحلاقين هذا؟

- إن ذا اللحية البرونزية يسكن في بيت يتوسط حديقة كبيرة في هذا الحي، كما يوجد في ذلك الزقاق محلات كثيرة، فيها مصارعون، وعبيد ليبيون، وبعض الحمالين الأوسيتيين، وهو يقوم بترتيب كل عالم الرذيلة مع هؤلاء.

- أكان ثمة أشياء أخرى بين أغراض هذه المرأة يا أريكسيا.

- لقد وجدت ذباباً يمتص الدماء، وأعشاباً تشجع على الحب الجنسي، ونباتاً منوِّماً!.

- هل ثمة شيء آخر؟

- لقد وجدت كوباً يشبه تماماً الكوب الذي تستعمله الراهبة فانينا مع فارق بسيط وهو أن في قعره ثقباً يحتوي على مسحوق ناعم، فإذا ما امتلأ هذا الكوب بالماء، وشربه أحدهم، فإنه سوف ينام بعد ساعة، حتى لو كان يقف على قدميه وعيناه مفتوحتان، وسوف يطيع جميع الأوامر، حتى لو طلب منه أن يضع يده في النار!.

أجابت أريكسيا على جميع الأسئلة بمنتهى الهدوء، وهي تلهو بذلك الشريط الجلدي الرفيع. انتظرت أسئلة أخرى إذ لا يزال هناك أشياء أخرى، يمكن الحديث عنها.

كان لا يزال يُسمع صوت أنين خفيف يصدر من المستودع، فذهبت أريكسيا فوراً بعد أن أشارت لها رئيسة الراهبات برأسها.

فانينا، التي كانت تتحامل على نفسها وهي تسحب رجليها، لم تتكلم بأي شيء عندما كانت تجرها فبيديا. لأنها لم تحب ولم تتعود على هذه التدابير القاسية التي اتخذتها رئيسة الراهبات من أجل حمايتها. لقد انزعجت جداً من هذه المرأة الغادرة فبيديا التي تقتل بدم بارد!. امتعضت منها كما لو أنها إحدى عدواتها وفكرت أن ترجع لكي تمنع أريكسيا من تنفيذ ما أوكلت لها فبيديا.

ولكن ما أن وصلت المرأتان إلى رأس الممر حتى انقطع فجأة صوت الأنين. عندها ضمت فبيديا الفتاة الشابة بحنان كما لو أنها أمها ومسحت جبينها وفمها وأصلحت لها هندامها، وقالت لها وهي تسير باتجاه الدرج الذي كان يقف عند بدايته أحد العبيد يحمل مشعلاً:

- دعينا نذهب.

القسم الثالث عشر

في غرفة فبيديا جلست فبيديا وفانينا قبالة بعضهما البعض، وكل منهما تنظر في وجه الأخرى. لقد سبق أن أمضيتا لحظاتٍ سعيدة في هذه الغرفة، ولقد مضى وقت طويل لم تجتمعا فيها.

راحت فانينا تنظر إلى رئيسة الراهبات لترى ما هي المتغيرات التي طرأت عليها خلال الأربع والعشرين ساعة، وما هي الأخبار الخطيرة التي عرفتها والتي جعلتها تتخذ قراراً بإعدام هذه المخلوقة بهذا الشكل المريع، والتي دسَّها ذو اللحية البرونزية بواسطة كلافينوس في بيت فستا.

استمرت فانينا بالنظر إلى وجه فبيديا الجميل الجامد الذي لم يكن فيه أي أثرٍ للحياة، سوى ذلك البريق الغريب الذي يصدر من عينيها والذي لم تكن قد شاهدته من قبل. إنه بريق جنون. بريق لا تراه إلا في عيون المجانين. وفجأة سألتها فانينا:

- هل تعرفين من هو هياراكس؟

تصرفت فبيديا وكأنها لم تسمع سؤال فانينا.

فتابعت فانينا:

- لقد كان القزم الذي يرتدي قفطاناً جلدياً هذه الليلة فوق أحد جدران الباحة.

خاب ظن الفتاة الشابة فحتى معلومتها هذه لم تعقب عليها فبيديا. فسألت فانينا سؤالاً آخر:

- لماذا خرجت أنت وهمونيا أمس بعد الظهر ولم تعودا إلا عند الصباح؟

امتعضت رئيسة الراهبات بعض الشيء ثم وضعت يديها فوق ركبتيها ونهضت بصعوبة وسارت بضع خطوات في الغرفة ثم أدارت ظهرها لفانينا.

وفي هذا الوقت بالضبط كان صوت أريكسيا يرتفع في الطابق الأرضي، وقد سمع صدى هذا الصوت الذي يشبه صوت الفتيات الصغيرات في كافة أرجاء بيت فستا، كانت تقول:

- يجب أن يحضر الجميع إلى ساحة الطاحون. هيا أسرعوا. إنها أوامر العذراء المقدسة، عندها لمعت في ذهن فانينا خاطرة فقالت فوراً:

- لقد تذكرت الآن أين قابلت أريكسيا هذه. لقد تذكرت ذلك من صوتها. إنها السيدة الممتلئة، التي كانت تسأل الناس الذين شهدوا الاعتداء الذي تعرض له كايوس فيندكس في شارع النصر، وكأنها تستجوبهم، كما أنني شاهدتها فيما بعد عندما قتل ديالوكوس، فقد كانت تقف أمام معبد باخوس في ساحة بالاتين. إنها هي من كنت ترسلينها لمراقبتي أليس كذلك؟

التفتت فبيديا إلى الفتاة وقالت لها بهدوء:

- قد تفاجأين إذا قلت لك أن أريكسيا هي أختي بالرضاعة. أريكسيا صادقة ومخلصة، إلى أبعد الحدود، لذلك اخترتها لكي تكون رقيبة عليك، لأنني لم أجد افضل منها!. ولم أختر همونيا لأنها مربيتك، وهي تغض النظر كثيراً عنك. كما أنها تفرح عندما تجابهيني. وهي لا تفهم أن لا ذنب لي في ما آل إليه وضعك، كما أنها لا تدرك أن مصالحنا مشتركة وأن محبتي لك لا يمكن أن تقل عن محبتها لك!.

رأت فانينا كيف أن اللين والحنان قد بدأا يظهران على وجه الراهبة العذراء المقدسة وذكرها صوتها بذلك الجو الحميم والسعيد الذي كان يسود علاقتهما فيما مضى.

أكملت فبيديا كلامها:

- ثم لماذا تسببين لنفسك كل هذا الحزن؟ ولماذا ترهقين أعصابك بمثل هذه الأسئلة الكثيرة التي لا لزوم لها؟ لاتخشي شيئاً يافانينا فأنا أفكر بكل شيء، ولقد اتخذت

التدابير اللازمة كلها وقد أوقفت هجوم الأعداء الخطير حتى قبل أن يبدأوا به، وعزمت أن أتابع هذا الأمر حتى نهايته.

أشارت فانينا بيدها وكأنها تريد أن تقول شيئاً، لكن فبيديا لم تعطها الفرصة، وتابعت:

- لم أنس كلامك عندما قُلتِ "إن كايوس فيندكس هو أنا، وأنا كايوس فيندكس، فإذا مات هو فسأموت أنا، وإذا عاش فسأفعل كل ما تأمرينني به. ". اعتمدي علي يا فانينا ولا تخافي، ولا أريدك أن تقومي بمراقبة تصرفاتي والحكم عليها مهما جرى!.

ثم اختنق صوتها وقالت:

- أريدك أن تتأكدي من شيء. ألا وهو: كلما مضت السنون تصبحين أكثر أهمية عندي، وأغلى من روما والإمبراطورية، والآلهة وحتى أغلى من شرفي. وأنا سعيدة بهذا الاعتراف.

ثم استمرت بالحديث بعد أن ضغطت على أسنانها:

- لذلك أرجوك وأتوسل إليك أن لاتقومي بأي تصرف قبل أن تعلميني، وحاولي أن تمضي معظم أوقاتك إما في المعبد أو في غرفتك، وأن لا تتكلمي مع أحد حتى مع بوبيليا الصغيرة. وأريدك أن تعلمي أن التشهير بهذه المرأة التي قتلتها بهذا الشكل الفظيع، ما هو إلاّ درس لباقي الجواسيس الذين أرسلهم كلافينوس إلى هنا، كي يأخذوا العبرة ويقتنعوا بعدم جدوى الاقتراب من أحد عناصرنا!.

ثم تابعت حديثها وهي تقف عند كل كلمة:

- من الآن وصاعداً لن يدخل عليك من عبيدك سوى همونيا والفتاتان اللتان ترعرعتا معك واللتان اختارتهما همونيا، أما الباقون فيجب أن يكون لديهم إذن بالدخول. وما من داعٍ للخوف بعد الآن، وأنا أقسم لك أن هذا الوضع لن يدوم طويلاً وسوف يعود كل شيء إلى مجراه الطبيعي.

القسم الرابع عشر

مع نهاية هذا الأسبوع ارتسمت في مخيلة فانينا ، لوحة مشوشة جداً، فهي لم تنس أبداً ذلك المنظر المريع الذي شاهده جميع عناصر فستا، تحت المطر وفي ساحة الطاحونة الصغيرة والذي شُهِّر فيه بجثة مربية ذي اللحية البرونزية، وكيف كان وضع كل من كاتيا ومليكسو بعد أن عادتا فوراً إلى غرفتهما.

كانت مليكسو هي التي دخلت أولاً. كانت هذه الفتاة الإفريقية واجمة تضغط على أسنانها، وقد أغمضت عينيها الخضراوين، اللتين كانتا تلمعان تحت جفنيها، وما إن خرجت مليكسو من الغرفة حتى جثت كاتيا على قدمي سيدتها ووضعت رأسها على ركبتها وبدأت بالعويل والبكاء وهي تقول:

- لقد كانت المسكينة عارية تماماً كما ولدتها أمها ياسيدتي ، صار وجهها أزرقَ غامقاً، وقد حُزَّت رقبتها بشريط!. آه، منظر مريع ياسيدتي ، إنهم يستبيحون فعل كل شيء مع العبيد!.

بدأت فانينا تداعب خصلات شعر هذه الأمة الذي يشبه شعر الذرة الصدئة، فهدأت كاتيا قليلاً. بعد ذلك همست فانينا بإذنها ببعض الكلمات العذبة لكي تُنسيها همومها، تلك الكلمات الجميلة التي كانت كاتيا قد استعملتها عندما اعترفت لها بالحب! فقالت لها:

- لاتخافي ياعزيزتي كاتيا، قريباً تُصبحين حرة ويأخذك فيدريكس بين ذراعيه، وسوف يعزف لك ذلك اللحن الجميل الذي أحببتماه، وسيغمرك بالقبل، وتختلط أنفاسكما، وسوف يأخذك إلى غابات ألمانيا الجميلة، وتعيشان الحياة الرائعة التي تحلمان بها.

لقد اختلطت الأحداث الأخرى التي مرت في ذلك الأسبوع في ذهن فانينا وأضحت تعيش بمفردها، معزولة عن الناس مثل حيوان مريض، ولم يعد لها أي اتصال مع العالم الخارجي، كما أنها لم تعد تحضر الدروس.

لكن همونيا كانت دوماً حولها، كانت تراقبها دون أن تلفت نظرها، في حين كانت مليكسو، تأتي إليها وتذهب دون أن تنطق بكلمة واحدة، ولكنها كانت تراقب تصرفات راهبة فستا باستغراق كأنها حيوان مكلف بالحراسة!.

ما من أحد شارك فانينا في حياتها اليومية أكثر من كاتيا، ولأن جو بيت فستا الخانق كان يؤثر على الفتاة الألمانية هذه، فلم تعد تعترف لسيدتها بكل شيء، لكنها كانت تحضنها بقوة بين الحين والآخر ورغم مظاهر السعادة التي كانت تتظاهر بها إلا أن مسحة من حزن كانت تبدو في عينيها البراقتين خاصة وهي تطيل النظر إلى المجهول!.

أما فبيديا رئيسة الراهبات فقد أخذت أعصابها تزداد انهياراً يوماً بعد يوم، ولم تعد تظهر أبداً، ونادراً ما كانت تصادفها فانينا. لقد كانت تتهرب من لقائها حتى لا تثير انتباهها وتسبب لها قلقاً.

أما باقي موظفي فستا، فقد انغلقوا على أنفسهم وكأنهم مسجونون أو معاقبون، وراح الجميع يعيش ذكرى ذلك اليوم الحزين الذي جُلدت فيه إحدى العبدات!

لكن فانينا كانت تتساءل دوماً:

- تُرى أين كايوس فيندكس الآن ؟

لقد أسرع بالرحيل عندما علم أنه معرض للخطر، ولا بد أنه قد عبر الآن نهر "أرنو" ولكن هل تابع طريقه وعَبَرَ "أبانين" أم سار وضفة النهر.

ومهما يكن الأمر، فهو بعيد جداً الآن!. ومع ذكراه كانت فانينا تصاب بالإحباط.



القسم الخامس عشر

في المساء استلقت الراهبة الشابة فوق سريرها وراحت تعبث بسلسلة العلبة الذهبية التي أهدتها إياها لوكست.

وأعادت الفتاة الألمانية الطعام الذي لم تمسسه يد سيدتها إلى المطبخ، أما مليكسو الأفريقية فكانت تغدو وتروح جيئة وذهاباً إلى شقة فانينا. تخرج ثم تعود، ولم تكن فانينا على معرفة بما يشغل بال هذه الأمة!.

في هذه الأثناء دخلت همونيا إلى الغرفة مسرعة وكاد نفسها ينقطع، وقد قطبت حاجبيها ثم قالت:

- أمك هنا.

هبت فانينا واقفة ثم تنهدت قائلة:

- ها قد جاءت أخيراً!. كان يجب أن نرى بعضنا من زمن طويل. ولكن ماذا عن أبي، هل جاء أيضاً؟

- لم يأت لأنه في مجلس الشيوخ!.

وبدون أن تستمع الراهبة الشابة إلى تتمة حديث همونيا هبطت الدرج.



لم تكن والدة فانينا بمفردها في الصالة الصغيرة المخصصة للضيوف والكائنة إلى جانب قسم البوابين، بل كانت فبيديا هناك أيضاً، وما أن دخلت فانينا، حتى فوجئت السيدتان وخيم على الغرفة جو من عدم الارتياح، وشعرت فانينا أنها قد قطعت حديث رئيسة الراهبات، الذي لاشك أنه كان مهماً، لأن تِرِنْتا كانت قد فغرت فاهها وقطبت حاجبيها، وسيطرت عليها الدهشة!.

أما فبيديا فبعد أن ابتسمت مقدار طرفة عين، عادت وكأنها قد وضعت قناعاً على وجهها فقالت:

- عزيزتي تِرِنْتا، سأتركك لوحدك مع ابنتك، ثم أردفت قائلة، اعتني بها جيداً.

وبعد أن أنهت كلامها ازدادت الابتسامة التي أجبرت نفسها عليها بعض الشيء، وبعد هذا الوداع الغريب خرجت مسرعة، لكن فانينا لاحظت أنها رمقت تِرِنْتا بنظرة ذات مغزى كبير!.

لقد أعطت هذه الجملة الأخيرة وتلك النظرة، انطباعاً سيئاً عما سيكونه اللقاء هذا اليوم!.

كانت تِرِنْتا تنتقي كلماتها بعناية فائقة، و تجيب على أسئلة ابنتها بشكل مُطَمئِن جداً!.

- كيف حال أبي؟
- إنه في تمام الصحة والعافية.
- ماذا يعمل اليوم في مجلس الشيوخ؟
- إذا لم أكن مخطئة فإنهم يستقبلون اليوم سفير إحدى الدول الأجنبية!.
- ما هي أخبار ساجان؟
- إنه يقوم بجولة واسعة منذ بضعة أيام، ويقولون أنه سوف يعود في نهاية الشهر!.
- وماذا عن تلك المحاكم والدعاوى التي لا تنتهي أبداً؟
- أعتقد أنها قد توقفت في الآونة الأخيرة!

كانت الراهبة تتظاهر بالفرح لسماعها هذه الأخبار الكاذبة فقالت :

حسناً. هذا يعني أن الأمور جيدة.

هزت الأم كتفيها وقالت :

- ليست لدينا أية شكوى من هذه الأوضاع.

ثم سألت فانينا والدتها سؤالاً أخيراً كان يتردد على رأس لسانها منذ بداية اللقاء :

- هل من أخبار عن السيناتور فيندكس؟

- أخبرني في الأسبوع الماضي كلافيموس أحد فرسان "رونان"، أنه شاهده مع ابنه منذ ثمانية أيام في "لوك"

ابتسمت فانينا لأن ترِنْتا قد أجابت على سؤالها دون أي تردد، بعد ذلك انتهى حديث الأم مع ابنتها، وجاء وقت الفراق. وما أن اجتازت ترِنْتا محرس البوابين حتى استرجعت فانينا التي كانت تسير ببطء إلى بيت فستا، كيف أن أمها كانت تكذب!.

فانينا تتذكر وتعرف بالتفصيل الطرق التي سلكها فيندكس خلال الأسبوع الفائت لذلك لم تقتنع بكلام ترِنْتا، لأن هذا الشاب الغالي ووالده لا يمكن أن يصلا إلى "لوك" قبل ثمانية أيام مهما أسرعا!.

إذن هل يمكن أن تكون هذه الفتاة الشابة قد سمعت اسم المدينة خطأ، وهل يمكن أن تكون أمها قد ذكرت اسم مدينة أخرى؟ ثم إن الزمن ليس مهماً عند أمها كما هو مهم عندها، فبدلاً من أن تقول الأسبوع الماضي، قالت ثمانية أيام. ولكن حتى لو قالت ستة أيام، أو أربعة أيام، فكيف يمكن لهذا الفارس الروماني أن يعود بمثل هذه السرعة إلى روما؟



هرعت فانينا عائدة إلى محرس البوابين وهي تريد اللحاق بوالدتها، لكي تتوسل إليها لتقول الحقيقة، لكنها اصطدمت برجل غريب عند باب البناء، رجلٌ ضعيف البنية، قصير القامة، ذو شعر أشقر وعينين واسعتين، و ساقاه مقوستان، وكأنه قد تعود

ركوب الخيل منذ نعومة أظفاره، وثمة شخص آخر يسير خلفه، يرتدي قميصاً أحمر مطرزاً بشكل ملفت للنظر، بخيوط فضية. انه من العبيد على ما يبدو، فقد كان بعض الأغنياء الأشراف في ذلك الوقت يستخدمون أسرى الحرب الإيرانيين والبربر الذين كانوا يهاجمون مخافر الإمبراطورية الحدودية، كمخبرين.

- أريد أن أقابل العذراء العظيمة!. أنا من قبل "تورانيوس" المحترم. توقفت فانينا وهي تفكر. لا بد أن يكون تورانيوس هذا هو ابن أخ فبيديا ولا بد أنه هو الشخص الذي أرسلته فبيديا بسرعة لكي يقتفي أثر كايوس فيندكس ووالده، ويخبرهما أن يلتجئا إلى إحدى البلدات الآمنة. شعرت الفتاة فجأة بالارتياح، وحاولت أن تطرد الأوهام التي تسيطر عليها، وأن تعبر عن سرورها بهذا السؤال. وبعد أن التقطت أنفاسها سألته:

- هل أنت المحارب العائد من الكلوسيوم؟

وبصوت مخنوق وعيون تلمع بوحشية أجاب الرجل:

- لست أنا المحارب الذي أرسلته سيدتي إلى الكلوسيوم، إنه أخي هياراكس.

لكنهم ذبحوه قبل أن يصل إلى "سوتريوم".

لقد هدمت هذه الضربة القاسية كيان فانينا. إنه هياراكس الذي علمت بخبر موته من لوكست، والذي استخدمه تورانيوس كباقي حراس الحدود، ويمكن أن يكون إيرانيا. لقد فهمت الآن لماذا أسرعت فبيديا بالذهاب إلى المدينة.

لم يكن قد مر على هذه الحادثة سوى أسبوع، إذن رئيسة الراهبات ومربية فانينا، كانتا على علم ومنذ أسبوع أن هذا المخبر الذي كان مكلفاً بمراقبة فيندكس، قد قتل وهو على بعد بضعة كيلومترات.

ولكن ماالذي جرى بعد ذلك؟ وماالذي حل بكايوس فيندكس؟



في هذه الأثناء تقدمت إحدى العبدات الحارسات من الرجل، لكن فانينا منعت هذه المرأة من الاقتراب، وبدون أن تعرف فانينا سبب تصرفها هذا سألتها:

- هل خرجت رئيسة الراهبات؟

- نعم لقد خرجت. أخذت المركبة. لقد جاء "أركابسيا" لاصطحابها.

- وماذا عن مربيتي، هل رأيتها؟

لم تجب الحارسة على هذا السؤال وهربت من وجه الفتاة الشابة.

جمعت فانينا أطراف ثوبها وركضت بسرعة إلى بيتها في فستا، وصعدت درج الطابق الأول، ودخلت شقتها بسرعة وهي تنادي:

- همونيا. همونيا.

لكن همونيا لم تكن موجودة، وحتى كاتيا وبهليكسو لم تكونا موجودتين أيضاً. لفت نظر الفتاة الشابة وجود شيء أبيض فوق غطاء سريرها الأحمر، إنها رسالة مطوية ومربوطة بشريط رفيع. وقد كتب على ظهر الرسالة وبحروف كبيرة ملفتة للنظر /إلى فانينا/.

فضت الراهبة الشابة الشريط الرفيع وفتحت الرسالة وقرأت:

> نحن نحاكم أنا وأبي أمام مجلس الشيوخ، بعد أن وجهوا لنا أكبر الاتهامات. نحن متهمان بتحريض شعب غالة للوقوف في وجه الإمبراطور. وأنا لست بحاجة لأن أؤكد لك أن هذه التهمة باطلة ولا أساس لها من الصحة ومع ذلك سيقومون بإعدامنا قبل حلول الظلام. حبيبتي سوف تظلين دائماً في مخيلتي، حتى وهم يضعون ذلك الحبل المشؤوم في عنقي. أحبك ولتحمكِ الآلهة"

" كايوس فيندكس "

هذا حلم لا يمكن أن يكون حقيقة أبداً. لم تستطع فانينا أن تقرأ أو تستوعب ما في الرسالة، وكأن أمامها ستار من ضباب. أعادت القراءة كلمة كلمة ولمرات عدة.

"أكبر الاتهامات.. سيقومون بإعدامنا.. الحبل المشؤوم.. حبيبتي.. أحبك"

شعرت فانينا أنها ليست لوحدها، التفتت، فشاهدت مليكسو تلك الإفريقية السمراء تقف عند عتبة الباب وتنظر إليها بعينيها الخضراوين وهي تغمضهما نصف إغماضة وكانت نظراتها غامضة وارتسمت على شفتيها ابتسامة غريبة.

هوت فانينا بيدها عليها ثم أنشبت أظافرها في جسمها كأنها عقاب فمزقت قميصها الشفاف الذي كان يستر جسمها. فجحظت عينا مليكسو وتجهم وجهها من الألم، ثم صرخت فانينا في وجهها:

- هل أنت التي جلبت هذه الرسالة إلى هنا؟

ألقت بهذه التهمة بدون تفكير وكأنها سمعت هاتفاً داخلياً يدفعها لمثل هذا السؤال. كانت الفتاة الإفريقية تنظر إلى بقع الدماء التي انتشرت فوق قميصها الأبيض، ثم بدأت تمسح دموعها التي كانت تتساقط كحبات اللؤلؤ، وضغطت على أسنانها لكي لا يُسمع صوت بكائها، ثم أجابت:

- نعم أنا جلبت هذه الرسالة يا سيدتي.

دفعت فانينا بالفتاة من أمامها فارتطمت بالجدار المقابل الذي كان قد علق عليه مرآة. شاهدت نفسها في المرآة، فرأت وجهها الشاحب، والنظرة السوداوية التي في عينيها، والبريق الوحشي الذي كان يشع منهما أيضاً. وكان فكها متوتراً وفتحات أنفها مسدودتان، أما البياض الذي كسا شفتيها فقد بدامنظره أشبه ما يكون بالدودة، ورأت أسنانها البيضاء الملفتة للنظر. كانت مليكسو ترتجف بين يديها كورقة في مهب الريح لأن منظر راهبة فستا كان مرعباً حقاً.

لكن فانينا لم تكن قد شفت غلّها فزمجرت قائلة من جديد:

- من أعطاك هذه الرسالة؟

بلعت مليكسو ريقها، وأعادت تكرار الكلمات عدة مرات ومن أولها حتى تمكنت من الإجابة على هذا السؤال:

- لقد سلمني إياها أحد رجال السيناتور فيندكس يا سيدتي.

- وكيف عرفت أنه من رجال فيندكس؟

- هو الذي أخبرني بذلك يا سيدتي .

كانت الفتاة الإفريقية تطأطئ رأسها وهي تتكلم، ولكن فانينا أمسكتها من شعرها وجعلتها تلتفت إليها لكي تنظر في عينيها.

- هل قرأت ما بداخل هذه الرسالة؟

أجابت والدموع تنهمر على خديها:

- لم أقرأها يا سيدتي.

كانت فانينا لا تزال تمسك بشعر الفتاة عندما سألتها هذا السؤال، وكانت ركبتا مليكسو ترتجفان وتصطدمان ببعضهما فمسكت بيد سيدتها من معصمها وتوسلت إليها قائلة:

- أنت تؤلمينني. أنت تؤلمينني يا سيدتي؟

كانت فانينا تتصرف مع صديقة الطفولة تصرفاً لا يستطيع أي من العبيد أن يتحمله، فمنذ أن جاءت مليكسو إلى بيت فستا لم تعد ترى في أي من تصرفات فانينا تجاهها أي شيء من الصداقة، . لم تعد فانينا قادرة على التحكم بأعصابها والتصرف بهدوء فقد كانت تزداد حقداً عليها كلما نظرت في وجهها، إلى درجة خطيرة. إن حياة كايوس فيندكس هي موضوع البحث الآن، كانت تريد أن تفهم كل شيء، فحبيبها سوف يموت!. وعلى هذه الفتاة الإفريقية أن تتكلم عن كل شيء تعرفه ومهما كلف

الأمر. في هذه الأثناء نطحت مليكسو المرآة برأسها فحطمتها، ثم بدأت تتكلم، فقالت:

- إن ما أعرفه أنا، يعرفه الجميع هنا يا سيدتي.

ثم أمالت برأسها وأضافت قائلة:

- إن المفرزة المشكلة من حرس البروتوريين، والمكلفة بتعقب السيناتور فيندكس وابنه، ألقت القبض عليهما وهما في طريقهما من الكلوسيوم إلى سيانا ياسيدتي، وقد تم ذلك منذ ثلاثة أيام وعلى بعد بضع خطوات من هنا، وقد اقتيدوا إلى المحكمة في كوريا جوليا. لذلك فقد أمرت العذراء المقدسة جميع الخدم العاملين في هذا البيت بعدم الاقتراب منك والتحدث إليك. وكان هدفها من ذلك هو أن لا تعلمي بما جرى!. الحكم على وشك الصدور ومن المؤكد أن السيناتور وابنه سوف يحكم عليهما بالإعدام، وسوف ينفذ الحكم في أحد أقبية سجن توللياينوم!.

ارتجفت يدا فانينا اللتان كانتا تطبقان على هذه الأمة، وانهارت مليكسو على الأرض، فنظرت إليها راهبة فستا والألم يعتصر قلبها وكررت بصوت تخنقه العبرات:

- توللياينوم!.

كانت الفتاة الإفريقية تسمع أصواتاً غير واضحة ثم ما لبثت أن راحت هذه الأصوات تسمع بوضوح أكثر.

- لقد قال لي أجير السيناتور فيندكس أن الجلاد كاديميوس هو الآن في الساحة العامه ينتظر المحكومين.

كانت مليكسو قد جثت على الأرض وأسندت جبينها على ركبتها وهي تحك رقبتها بيدها، وتنظر بطرف عينيها إلى فانينا وأضافت قائلة:

- لا أحد يستطيع إنقاذهما سواك يا سيدتي!.

ارتعدت فانينا ولكن مليكسو استمرت في كلامها:

- ألا تعلمين يا سيدتي أن المحكوم الذي يؤخذ لتنفيذ الحكم فيه، يتم العفو عنه إذا قابل وهو في طريقه للإعدام إحدى راهبات فستا شرط أن تقسم هذه الراهبة أن هذه المقابلة قد تمت مصادفة!.

كانت فانينا لا تزال تفكر في كايوس فيندكس، فكيف لم تفكر بهذا. كان يجب أن يلهمها حبها له إلى هذا الطريق، بدلاً من أن تذكرها مليكسو المسكينة التي ضغطت عليها كثيراً. إن هذا لا يليق بها، ولو كان الأمر بيدها لما توانت عن جلد نفسها عقوبة على ذلك.

ما الذي يهم فانينا إن أقسمت يمينا كاذبة في سبيل إنقاذ كايوس فيندكس، وماذا يهم أيضاً إذا تعرضت لغضب الآلهة. يكفي أنها ستعاقب نفسها، وقد تعلمت أشياء كثيرة من شأنها تخفيف غضب الآلهة، وماذا ستفيد الآلهة فانينا الآن، والجلاد كاديميوس قد جهز نفسه للقيام بمهمته التي تقتضي قتل الرجل الذي تحبه. لم تكن الفتاة الشابة في وضع يمكنها من الاستغراق كثيراً بالتفكير أو سماع نداء المنطق، أو مناقشة النتائج. فالوضع لا يحتمل سوى حلٍّ واحدٍ،حل جذريٍ. لا يوجد غيره!.

أغلقت الراهبة الشابة الباب خلفها وصعدت الدرج بسرعة، وارتطمت بالمسكينة كاتيا التي كانت تهبط الدرج فوقعت وبدأت تتدحرج على الدرج وهي تتوسل قائلة:

- ابقي هنا يا سيدتي. لا تخرجي من البيت. لا تخرجي إذا كنت تحبين الآلهة.

ولكن من أين لكاتيا تلك الفتاة الرقيقة ذات الطباع اللطيفة أن تقف في وجه فانينا؟

وبينما كانت تجتاز قسم البوابين سمعت فانينا توسل كاتيا الأخير.

- أستحلفك باسم كيالا. إن حياتك في خطر؟

تصرفت فانينا بجنون، وعندما أرادت المرأة التي تقوم بالحراسة إيقافها أنشبت أظافرها في وجهها وأوقعتها أرضاً والدماء تسيل منها!

كان هناك بانتظارها وعلى بعد عشر خطوات من بيت فستا مركبة بيضاء مذهبة، وكانت هذه المركبة تشبه تماماً المركبة المخصصة لراهبات فستا، لكن فانينا لم تعرف أن هذه المركبة ليست مخصصة لها إلا بعد أن جلست فيها، ومع ذلك صرخت:

- إلى الساحة بسرعة:

ولكن ما فائدة هذه المركبة بالنسبة للكابوس المرعب الذي تعيشه؟ مع ذلك يكفيها الآن أن هؤلاء العبيد السود الذين يحملونها، سوف يأخذونها إلى المكان الذي تريده. سيأخذونها إلى الساحة، إلى كوريا جوليا وفي أقصر وقت!.

وماذا يهمها من معرفة مرافق المركبة ذي الثياب البيضاء الذي لم تر وجهه بعد. إن كل ما هو مطلوب منه هو أن يشق طريقاً وسط هذا الزحام الذي خيم عليه الصمت المطبق، ولا تريد منه شيئاً آخر.

ففي خلال بضع دقائق يجب أن تحل الأمور، وإلا فسوف ينتهي كل شيء. ففانينا اتخذت قرارها وهي ستبذل كل ما في وسعها وحتى آخر رمق في حياتها لإنقاذ كايوس فيندكس.

- فانينا. فانينا.

ما أهمية هذه النداءات. كان هناك صوت همونيا قد علا بين هذه الأصوات وهي تركض إلى جانب المركبة وشعرها منفوش، وهي تقول لها:

- انزلي من المركبة بسرعة. أتوسل إليك يا ابنتي.

ثم تشبثت أصابع همونيا النحيلة بثياب فانينا، فأشاحت الفتاة بوجهها إلى الطرف الآخر وأبعدت همونيا التي كانت تتوسل إليها.

عندها التفتت همونيا إلى الحمالين وطلبت إليهم أن يتركوا ذراعي المركبة، ثم هجمت عليهم وأنشبت أظافرها في عيونهم ووجوههم وصرخت قائلة:

- قلت لكم قفوا. دعوها تنزل.

رفس أحد الحمالين المرأة المسكينة بقدمه وقال لها:

- ابتعدي من هنا أيتها العجوز الشمطاء، سأطلب القبض عليك بتهمة اعتراض موكب إحدى راهبات فستا!.

ثم انبرى رجل عجوز نحيف هزيل كان يقف وسط الجماهير وقال وهو يتأفف:

- أين حراس الأمن، نحن لا نراهم عندما نكون بحاجة لهم. يجب أن يأتوا لكي يأخذوا هذه العجوز ويلقوا بها في زنزانة.

وقال رجل آخر وهو يصرخ غاضباً:

- ما هذه الحالة التي وصلت إليها المدينة، لقد ساءت الأمور كثيراً لدرجة أنهم بدؤوا يزعجون راهبات فستا لكي لا يخرجن إلى الشارع.

بعد ذلك تحمس أحد العبيد الذين كانوا يسيرون خلف المركبة وضرب همونيا بمرفقه بقوة وألقى بها وسط مجموعة من الرجال العمالقة ذوي الوجوه الغليظة والذين كانوا يلبسون قمصاناً بيضاء قصيرة مثل حمالي أوستا.

سمعت فانينا آخر نداء أطلقته همونيا وهي تقول:

- توقفي يا عزيزتي فانينا. توقفي. أنت تدمرين نفسك!.

جلب هذا النداء الأخير التعاسة لفانينا ولم تتمالك نفسها من الالتفات إلى الخلف، لكن الزحام الكثيف كان قد ابتلع همونيا!. وعندما استدارت إلى الأمام لمحت عيناها الدرج الكبير الذي يصعد إلى ساحة بالاتين.

ولأنها كانت تتوقع ظهور مثل هذه الأمور فلم تستغرب عندما رأت على أحد الدرجات القزم الذي يلبس قفطاناً جلدياً، ومن العجيب أن هذا القزم كان يظهر في كل مرة أقصر وأعرض من المرة السابقة، أما طاقيته الكبيرة فكانت لا تدع مجالاً لأحد لكي يرى وجهه، وأما يداه الضخمتان الطويلتان فهما عنوان الشر وما كانتا ترتفعان عن الأرض إلا قليلاً ورغم أنه كان واقفاً في مكانه ولم يتحرك إلا أنه كان يثير أعصاب فانينا ويحطمها.

في الحالة التي تمر بها فانينا الآن لم يعد لوجود مثل هذا المخلوق أية أهمية، فالشيء الوحيد المهم عندها، هو الوصول إلى الساحة في الوقت المناسب،وإنقاذ كايوس فيندكس. كان هذا كل ما تفكر به. ضربت كفيها ببعضهما البعض وأصدرت أوامرها:

- هيا أسرعوا أكثر!.

وهكذا دلفت راهبة فستا حول معبد كاستور، وبعد أن عبرت شارع توسكانا حث الحمالون الخطى باتجاه الساحة وكأنهم يركضون.

كان ما يجري في الساحة هو الفصل ما قبل الأخير من هذه المسرحية التراجيدية.

نظرت فانينا إلى الجموع التي احتشدت في الساحة الكبيرة وإلى التماثيل المنتصبة بشكل فوضوي على طول الساحة، وأقواس النصر والأعمدة. كانت تراقب هذا المنظر والألم يعتصر قلبها وعيناها تكادان تخرجان من محجريهما.

أما عيون المحتشدين فكانت شاخصة إلى أسفل هضبة الكابتول وقد حبسوا أنفاسهم وهم ينظرون إلى باب صغير ذي لون رمادي. هنا سجن الإعدام وهو يبدو الآن أكثر قسوة من أي وقت مضى، تحت قبة السماء الرمادية مما يجعل الأبدان ترتجف لرؤيته.

هنا سيعدم كايوس فيندكس ووالده السيناتور، ومن يدري ربما أُعدما!.

وقفت فانينا في مكانها كالصنم، وهي تتابع باستغراب تصرفات مرافق مركبتها عندما هرع إلى جانب بعض الأشخاص الذين لا عمل لهم وسألهم وهو يحرك يديه

وذراعيه وكأنه يستجوبهم، ثم أشار إلى المركبة، وإلى المكان الذي كانت تنظر فيه الدعوى في كوريا جوليا، ثم أشار إلى سجن توللليانيوم.

وعلى الرغم من وضعها المضطرب جداً فقد لمعت في خاطرها فكرة وهي أن هذا الرجل يحاول أن يلفت أنظار الناس إليَّ، كما يحاول استفزازي لكي أتكلم فيقوم بجمع الشهادات المزورة والأدلة الكاذبة ضدي.

التفت مرافق المركبة بعد ذلك نحو الراهبة الشابة فاستدار العبيد الزنوج الذين كانوا يحملون المركبة فوراً.

فقالت فانينا بصوت مسموع:

- إلى أين أنتم ماضون؟

لم يجب مرافق المركبة على سؤال الراهبة إلا بعد أن كال سيلاً من الشتائم لكي يفسح الناس له الطريق ويبتعدوا إلى الوراء.

- لقد ذهبوا. ونحن مضطرون لأن نلف حول الساحة لكي نقطع طريقهم!.

هل قلت أنهم ذهبوا؟

كانت فانينا تتساءل وهي ترى وجه مرافق المركبة لأول مرة. هل كان يقصد كايوس فيندكس ووالده، وكيف عرف أنها ذاهبة لإنقاذهما؟

مال الحمالون برؤوسهم إلى الأمام وبدؤوا يحثون الخطى وهم يدورون حول كوريا جوليا، ثم صعدوا هضبة الكابتول وهم يلهثون. كانوا يعرفون إلى أين هم ذاهبون. كان حمالو مركبة فستا يجرون بسرعة أكثر من باقي الحمالين مما اضطر فانينا إلى أن تستند بمرفقها على الذراع المذهّبة المخصصة للاستناد.



كان الزحام في هضبة الكابتول التي أصبحت خلف الراهبة الشابة خفيفاً نسبياً ولكنه كبير أمام معبد الإثني عشر إلهاً، وعلى أشده أمام معبد الوحدة، وقد تجمع الناس

وكأنهم كتلة متراصة يصعب اختراقها، وعلى الرغم من كل التهديدات والشتائم التي كان يُلقي بها مرافق مركبتها إلا أنه لم يجد طريقاً له.

لم تكن نظرات الحمالين القريبين من كتف فانينا لتفارقها أبداً، كما أن جميع الناس ومن جميع الأصناف رجالاً ونساء وعبيداً، وحتى الأطفال المحمولين على أكتاف آبائهم كانوا ينظرون إليها أيضاً. كانت تقرأ المحبة في وجوه البعض فيما كان البعض الآخر ينظر إليها بخوف واستغراب!.

كان اسمها يتردد على كل لسان، والجميع يحيونها ويعتذرون منها ويخاطبونها بالعبارات المليئة بالاحترام والتبجيل، ويطلبون منها الدعاء، ولكن كان هناك بعض الأصوات الناشذه التي تنتقد وجود راهبة فستا في مثل هذا المكان، وكان هؤلاء من النساء العجائز.

لكن فانينا التي بدا الاضطراب يسيطر عليها، لم تكن تسمع شيئاً، إذ سيطر عليها القلق وهي ترى أمامها هذا البحر المتلاطم الأمواج من الناس وهم يعيقون تقدمها، انشدت أنظارها إلى تلك الكتلة السوداء في زاوية السجن!.

بدأت الحشود تتدافع فشعرت فانينا أن مركبتها قد اندفعت أيضاً مع هذه الأمواج باتجاه معبد ساتورن، وأحست أن دمها قد جَمُدَ وأن ثمة هاتفاً داخلياً يقول لها ارجعي. ولكن فات الأوان.

إنها تستطيع أن ترى الآن من المكان الذي تقف فيه، مبنى التوليانيوم من الخلف وعلى الأخص المصاطب. أي الأدراج الضخمة التي تطوّق السجن ثم تمتد حتى تصل إلى قمة هضبة الكابتول.

كانت الدماء الممتزجة بمياه الأمطار تتدفق من قمة هذه المصاطب وحتى الأسفل، درجة درجة وكأنها شلال. على الدرجة الأخيرة التي اصطبغت بالدماء شاهدت فانينا أشلاءً من أربع إلى ست جثث مكدَّسة فوق بعضها البعض. لقد أعدمهم الجلاد بعد أن أذاقهم شتى أنواع العذاب، ثم علقهم بالملاقط الحديدية الضخمة لكي

يأخذهم بعد ذلك ويلقي بهم في مياه نهر تيبر الموحلة ؛ وقد وُضعوا هنا عراة ليكونوا عبرة لكل الناس!.

كانت ست جثث امرأة، وخمسة رجال، قتلوا خنقاً وفقاً للطقوس المقدسة بعد أن قطعت أطرافهم، غسلهم ماء المطر فاكتسبوا لوناً أبيضَ غريباً. وكان الدم الوردي ينزف من أجسامهم، وقد اختلط اللون الكحلي في وجوههم المتورمة بالدماء، كما اختلطت ألوان شعورهم ببعضها البعض ولم يعد من الممكن التمييز بين لون الشعر الأبيض أو البني أو الأسود وأصبح المنظر مقززاً للنفس.

اهتزت المركبة ثانية وكادت تنقلب، ولم تعد راهبة فستا تشاهد أي شيء بعينيها اللتين توسعت حدقتاهما سوى هذا المنظر!.

على بعد مئة قدم منها كان فوجان من حراس المدينة، يضعون تروسهم على أكتافهم. وقفوا متجانبين ورماحهم متصالبة، وإذ راحوا يسيرون بخطى وئيدة وثقيلة، فقد جاء وقع أحذيتهم على أحجار تيور كالمطارق. شقوا طريقهم بين الجماهير ببطء ولكن دون أن يتركوا أي ثغرة في صفوفهم.

ومع وقع أقدام هؤلاء الجنود، أحس الناس أن حلوقهم قد جفت، فخيم صمت رهيب كصمت القبور!.

أضحت فانينا على وشك الانهيار وسعت أن تهدئ من روعها، فوضعت يدها على صدرها وضغطت قليلاً والتقطت أنفاسها.

بعد ذلك ظهر فوجان آخران وانقسما إلى صفين وبدأا بإبعاد الناس إلى الجوانب لكي يفسحوا الطريق لمن سيأتي بعدهم. كان القادمون، ثمانية من المرافقين من ذوي الأجسام الضخمة يتوسطهم رجل متوحش، في وجهه أثر جرح عميق يلفت النظر.

وبعد ذلك جاء الفوج الأخير وانقسم إلى صفين أيضاً ووقف خلف هذه الأمواج المتلاطمة من البشر وطوقها.

ولكن أين كايوس فيندكس، إنها لم تره حتى الآن. هل أُخِذَ إلى التولليانيوم من طريق آخر؟ أم أعدِم؟، وهل سوف يسحبونه ليضعوه فوق الجثث الأخرى أم سوف يضعونه فوق أدراج المصاطب الممتزجة بالدماء. هذا شيء غير ممكن، ولا يجوز أبداً.

وقفت فانينا تراقب.

ها هما، ثمة رجلان، مسكينان ضُرِب حولهما سور من الجنود، وثمانية من المرافقين، وقد كُتِّفت أيديهما خلف ظهريهما وأُخفي رأساهما بأكياس الخيش ورُبطت جيداً. كما وضع على عنقيهما شريطاً رفيعاً من الجلد، وكانا يستندان على بعضهما وهما يسيران وكأنهما أعميان، وقد انحنى ظهراهما حتى بدوا وكأنهما محدودبان!. ولم تستطع فانينا أن تميزهما.

تُرى أيهما كايوس فيندكس؟ انها لا ترى بين هذين الشبحين، ذلك الشاب المقدام الذي ركب المخاطر وقام بجميع الحركات المهلكة لكي يقابلها في بيت فستا؟ لكنها كانت متأكدة أنه موجود هناك!.

لذلك يجب أن تتجه إليه وتنقذه مهما كلف الأمر. مدَّت الراهبة الشابة رأس حذائها إلى ذراعي المركبة الأماميتين اللتين التصق بهما اثنان من الحمالين الزنوج اللذان حاولا جهدهما شق طريقهما وسط هذا الزحام.

لكن المركبة لم تستطع التقدم ولو بمقدار إصبع واحدة وبقيت واقفة أمام معبد ساتورن، عندها هبت فانينا واقفة وبدأت تنظر من فوق رؤوس الناس. بعد ذلك انطلقت صرخة من إحدى الفتيات الصغيرات التي اخترقت صفوف الحرس وراحت تكرر بسرعة:

راهبة فستا. راهبة فستا.

كان صوتها أشبه ما يكون بصوتٍ محبوس ثم تحرر، بعد ذلك بدأت الأصوات تتعالى من بين صفوف المتجمهرين، وتنتقل من نصب تذكاري إلى آخر ومن معبد إلى آخر

إلى أن عمت أرجاء الساحة، وهضبة الكابيتول ثم سرت إلى هضبة بالاتين وإلى جميع الهضاب المجاورة. راحت جميع الأصوات تردد:

أعفوا عنهما باسم فستا. أعفوا عنهما.

- لقد قابلا إحدى راهبات فستا!.

- إنها معجزة. هذه معجزة. لقد تجلت إرادة الآلهة.

- لن تستطيعوا قتلهما!.

- أطلقوا سراحهما باسم جوبتر.

- فانينا راهبة فستا موجودة هنا. يجب أن تعفوا عنهما!.

- يجب أن تطلقوا فوراً سراح الموقوفَيْن وإلا سوف يبتلعكم بلوتون جميعكم!.

- سوف يسحقكم تيتانوس ذو القلب الحديدي ويجعلكم كالرماد إذا لم تفكوا وثاق الموقوفين.

بعد ذلك هجم المتجمهرون على هؤلاء الحمالين الزنوج وألقوا بهم فوق أحجار الساحة رغم المقاومة التي بذلوها، ثم داسوا فوقهم وتركوهم ينبحون كالكلاب، ثم خطفوا المركبة من بين أيديهم وحملوها على أكتافهم وطاروا بها:

- الشكر لأمنا فستا.

- الشكر لك أيتها العذراء المقدسة على شفقتك ورحمتك ووقوفك إلى جانب المظلومين. كان يمتد أمام فانينا بحر من الوجوه التي أضاءها الفرح المقدس والتي كانت تدمع فيها العيون من التأثر.

ثم علا صوت آخر:

- هيا خلصيهم من أيدي هؤلاء الزبانية الأشقياء أيتها العذراء المباركة.

ومهما تكن الأسباب والدوافع التي دعت هؤلاء الرجال والنساء لكي يتجمعوا في هذه الساحة، ومهما تكن أوضاعهم وانتماءاتهم، فثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها وهي أن الفرح العارم قد سيطر على الجميع وقد وجد كل منهم الفرصة المناسبة لكي يعبر عن نواياه الطيبة، ومن بين هذه النوايا الطيبة القضاء على مظاهر التشهير التي كانت تطبق على من يتم إعدامهم وقتلهم بعد أن يساموا أقسى أنواع العذاب.

شعرت فانينا بسعادة عارمة لاتُوصف، بعد أن كابدت الكثير من العناء والاضطراب، وهي تطير فوق رؤوس الجماهير لكي تنقذ فيندكس.

هاهي قد تمكنت من أن تحرض روما كلها لكي تهب لنجدة هذا الرجل الذي أحبته. ولكن هل ستأخذ روما فانينا إلى من تحبه. إن إشارة واحدة من يد هذه المعبودة الصغيرة التي تعذبت كثيراً، والتي كانت عيناها تلمعان كعيون المجانين، إلى الشعب كانت كافية للهجوم على الحراس الذين يمسكون بفيندكس ولكي يُداسوا بالنعال. إنها سوف تعطي هذه الإشارة حتى لو مسَّها غضب الآلهة.

ولكن الجنود كانوا قد وقفوا وكأنهم رجل واحد وقد وضعوا دروعهم على صدورهم، وقبضوا على رماحهم بأيديهم. وفي الطرف المقابل كان هناك المرافقون والجلاد، وقد ضرب الجميع طوقاً حول هذين الموقوفَيْن.

وقفت جماهير الصفوف الأمامية تتحدث مع النقيب قائد مفرزة الحرس فقال له واحد من بينها وكان جباراً:

- أنتم ملزمون بإطلاق سراحهم أيها النقيب، فهذه مسؤوليتك أنت؟

هز الضابط عصاه التي تشبه العصى التي تسند بها أشجار الكرمة بغضب في وجه الجماهير وقال:

- أنا أتلقى أوامري من رؤسائي فقط.

- إنك مجبر على إطلاق سراح الموقوفين!. حبس الناس أنفاسهم وهم ينتظرون رد النقيب.

- لن أطلق سراحهم!.

جاء وقع كلام هذا الضابط على الشعب كوقع السياط، مما جعل الجموع تندفع كالموج العارم وتهجم على الجنود التابعين له وعلى المرافقين والجلاد والموقوفين وتدفعهم جميعاً إلى المنبر الرئيس في الطرف الخلفي من منصة الخطابة المسيجة بحبال البواخر.

و هناك وقفت مجموعتان قبالة بعضهما، الجنود الذين أنزلوا رماحهم، وكايوس فيندكس ووالده اللذان ضرب حولهما طوق حديدي من الجلاد ومرافقيه الملتفين حوله، طوق من أربعة صفوف.

وقد أحاطت بهذه الصفوف جموع غفيرة من الشعب، وقفت تحت السماء الرمادية اللون تصرخ وتموج مثل بحر تتلاطم أمواجه.

بلغ الاحتقان حداً صارت فيه أي صرخة تنطلق من هنا أو هناك وتفهم بشكل خاطئ كافية لتفجر الغضب العارم الذي يعتمر نفوس الشعب فيثور بسرعة ضد هذه الإبادة وتلك الدماء التي امتلأت بها الساحة والمدينة. ويكفي أيضاً أن تطلق صرخة واحدة يصحبها تصرف خاطئ لكي يقوم كاديميوس بتنفيذ الأوامر التي أُعطيت له من قبل مجلس الشيوخ ويعدم الموقوفين اللذين بعهدته.

أما فانينا فقد هبت واقفة فوق المركبة التي تحملها الجماهير والتي راحت تهتز كقشرة البيضة، وهي تنظر من فوق الرؤوس. بعد ذلك انحنى كاديميوس ولم يعد يُرى منه سوى ظهره الضخم.

ماذا يفعل هذا المتوحش؟ لابد أنه يجهز نفسه للقيام بعمل ما؟ إنه لازال ينحني.

- بسرعة. بسرعة أكثر. إذا كنت تحبين الآلهة أسرعي أكثر. كان مثل هذا النداء اليائس يختلط باللعنات والشتائم والتهديد. لم يبق بينها وبين الجنود سوى عشرة أقدام. فتكلم أحد الواقفين أمام الراهبة الشابة:

- إنهم خدم ساجان المتعفنين!.

وقال شخص آخر يقف على مسافة أبعد:

- لنرم تيبر في نهر تيبر.

وبحركة طائشة بقر أحد الجنود بطن إحدى النساء فهوت على الأرض صريعة وهي تصرخ من الألم!. تعاظم هيجان الحشود وازداد تصميمها، ومن ثم اتخذت قرار الهجوم. فتقدم الناس كالتروس في وجه الرماح المصوبة إليهم وهم مصممون على سحق كل من يعترض سبيلهم. ولكي لا يتصرف أحد من بين هذه الحشود تصرفاً خاطئاً من شأنه أن يولد تحركاً خاطئاً، مال الجنود على المرأة محاولين إنهاضها لكنهاسقطت على الأرض وفتحت ذراعيها، فبانت على الطرف الأيسر من صدرها بقعة دم، راحت تكبر!.

صرخت إحدى العجائز:

- ماتت!.

فصرخ شخص يعمل حدّاداً وكان يقف إلى جانبها: ليأخذكم البركان جميعاً. وقال وهو يحرض الجماهير: هيا اقتلوهم ماذا تنتظرون؟

لكنه لم يلق رداً على كلامه هذا. بعد ذلك ارتطمت رقبته بذراع مركبة فانينا المكسورة وسقط على الأرض.

كان الرجال العشرة، حملة المركبة قد وصلوا إلى أمام الجنود فقفزت فانينا من المركبة، فسلّم عليها النقيب وهو باش الوجه.

فقالت له راهبة فستا وهي ترتجف:

- أما عليك أن تطلق سراحهم أيها النقيب، وقبل أن تسمع جوابه، أشارت بيدها وكأنها تريد أن تبعده فتذكر أنه مجبر على إظهار الاحترام فضرب الأرض بقدميه ووقف باستعداد ثم سار ثلاث خطوات باتجاهها وأخذ لها التحية مرة أخرى:

عندها صفقت الجماهير لراهبة فستا والضابط.

تقدمت فانينا بعد ذلك ببطء فابتعد الجنود بصورة آلية إلى الجوانب وأفسحوا الطريق أمام الراهبة، وابتعد المرافقون أيضاً مقلدين الجنود.

أصبحت فانينا الآن وجهاً لوجه أمام الجلاد، فجثا كاديميوس على ركبتيه تحية لها.

أما الموقوفان اللذان غُطّي رأساهما بأكياس الخيش فقد أُوقفا على جدار منصة الخطابة، وقُيد أحدهماإلى جانب عمود كي لا يسقط على الأرض، ولكنه كان لايزال حيّاً، أما الآخر فكان قد سقط على الأرض إذ سبق أن حُزَّ عنقه بشريط من الجلد، ويبدو أنه ميت!.

شعرت فانينا أن ساقيها قد شُلتا ولم تعودا تقويان على حملها، وأن حلقها قد جف وهي تراقب هذين الموقوفين، ولم تستطع معرفة أيهما فيندكس. هل هو الذي مايزال على قيد الحياة أم الآخر الذي مات؟

شعرت فانينا أنها تريد أن تصرخ بأعلى صوتها: كايوس فيندكس، لكن سبباً كهذا قد يكون كافياً لضياع فيندكس إلى الأبد.

وقبل أن يقوم الجنود بوضعية الدفاع اخترقت صفوفهم والتفتت إلى الجماهير وصرخت بأعلى صوتها:

- لقد أعدموا واحداً!.

حين سمع الموقوف الآخر صوت فانينا حاول أن يتجه إلى مصدر الصوت ولكنه سقط على الأرض، وسُمع صوته المخنوق بسبب كيس الخيش الذي كُمِّمَ به رأسه وهو يقول:

- أبي.. أبي.

هذا صوت كايوس فيندكس. وضعت فانينا يديها على صدرها. إذن، هو على قيد الحياة. استمر الصوت ينادي:

- بابا. أبي.

وراح هذا الموقوف المبلل جسده تماماً إلى حدٍّ صعب عليه أن يلتقط أنفاسه، راح يزحف على ركبتيه كالعميان، وهو يحاول أن يقف. ثم بدأ يهذي ويقول:

- اقتلني أيها الجلاد، مادمت قد خنقت أبي، اخنقني أنا. فأنا سألتقي معه بفضل بلوتون، في عالم الظلال!.

هز كاديميوس رأسه، ومال فوق السيناتور فيندكس وقلّبهُ، ثم تفقد رأسه بيده وقال له:

- استرح أيها الأسد. لم يتركوا لي مجالاً لكي أحز الشريط على آخره. لقد نجا السيناتور المحترم!.

فقالت فانينا بلهجة الأمر بعد أن سمعت قوله:

- إذن عليك أن تقطع هذا الشريط، وأن تفك وثاق الإثنين.

تردد الجلاد بعض الشيء وألقى نظرة ليرى رد فعل كل من النقيب والجماهير الغاضبة التي امتلأ المكان بصراخها الرهيب.

وبينما كان بعض الناس يرفعون الإمرأه التي قتلها الجنود من على الأرض لكي يسندوها على قاعدة المنبر صاح أحدهم:

- ماذا تنتظر؟ لينتقم منك بوللوكس!.

ثم شهر احدهم مديته وكان جزاراً وقال:

- إنك لا تنفع للقيام بمثل هذا العمل. دعني أقوم به أنا!.

فهتف الناس جميعهم باسم فستا!.

وفي هذه الأثناء علا صوت من فوق المنبر ولعلع وسط هتاف الجماهير وصراخهم وقال:

- انتبهوا أيها الأصدقاء لكي لا ترتكبوا إثماً عظيماً. توقفوا عن فعل ذلك!.

رفع الجميع رؤوسهم والتفتوا نحو مصدر الصوت، كما رفعت فانينا رأسها أيضاً. فرأت الرجل الذي كان يعتلي المنبر. لقد كان شعره بلون الجزر وقد دهن وجهه وأنفه بعلاج يشبه الكلس ولكن هذا العلاج لم يستطع أن يشفي ذلك المرض الجلدي، الذي ظهر على شكل طفح أحمر اللون. تسمرت عينا فانينا على هذا الرجل الذي بدا وكأنه نائم. لقد شاهدت هذا الوجه من قبل ولكن ليس كما تراه الآن. لقد كان أكثر شباباً، لكنه مازال يقوم بأقذر الأعمال كعادته دائماً، إنه هو نفسه الرجل الذي ملأ حياتها ولسنوات طويلة بالكوابيس. إنه هو بلحيته الأكثر احمراراً من شعره، عندها هتفت الفتاة الشابة:

- أوه هو ذا السيناتور دوميتوس، دوميتوس ذو اللحية البرونزية.

سمع السافل صوت الفتاة وتكلم من على المنصة بكلام يوحي بالأبهة والعظمة، ولكنه مليء بالكذب والخداع.

- نعم أنا هو ذو اللحية البرونزية أيها الأصدقاء . أنا صديقكم الذي يريد أن ينصحكم لكي لا تدسوا أنوفكم في مثل هذا الموضوع القذر!.

فردت عليه فانينا وهي تنظر في وجوه الحشود:

- إنه كاذب!.

ثم بدأت تخاطبهم:

- لقد لطخ هذا الرجل سمعة روما بجرائمه اللاأخلاقية، لم يكتف بروما وحدها بل لطخ سمعة الإمبراطورية كلها، فكيف يمكن تصديقه؟

لم تعد الراهبة تعي ما تقول، فقد راحت تهدد وتلعن ذا اللحية البرونزية وتلطخ سمعته في الوحل. أخذ الشرر يتطاير من عينيها وهي تشير إلى السناتور ذي الشعر الأحمر، ولو كان بمقدورها جذبه وإنزاله من على هذه المنصة التي يصرخ من فوقها، ومن ثمَّ رميه وسط الجموع الغاضبة لما توانت.

أما ذو اللحية البرونزية فقد ظل يتصنع الهدوء والضحك وكأنه مهرج، يبالغ في بعض الحركات، تارة يغمض عينيه وهو ينظر إلى الناس، ويمسك بأسفل بطنه ضاحكاً بلا توقف، وتارة يضرب بطنه مثل متخم ازدرد طعاماً كثيراً ومن ثم يتظاهر أنه يمسح عينيه من شدة الضحك.

وبالطبع فقد كان هناك بين الجماهير من يمالئ السيناتور طمعاً في بعض المال أو طمعاً في استجداء مساعيه. فكانوا يصفقون له بنفاق، بل ويكررون حركاته المضحكة، بينما راح غضب الآخرين يغلي. تأثر الجزار بكلام فانينا فاتجه إلى الموقوفين فقطع القيود التي أُوثقا بها ثم التفت إلى ذي اللحية البرونزية وقال له:

- إنك تحاول أن تتحدى إحدى العائلات التي تفتخر أنها أهدت المدينة عدة راهبات، فهل يليق بك أيها السناتور أن تقف ضد إحدى راهبات فستا وتتصنع حركاتك هذه التي تشبه حركات القردة الداعية إلى السخرية؟

علت في أوساط الجماهير الأصوات المؤيدة ؛ فانبرت فانينا قائلة:

- هل من حاجة لأن أضيف شيئاً على ما قاله هذا المواطن الشجاع؟

بدأت الجماهير تصفق بشدة للراهبة الشابة وراح البعض يسخرون من ذي اللحية البرونزية وهم يقولون له:

- هيا أجب على هذا الكلام.

وحين التفتت فانينا إلى الخلف أخذتها الفرحة العارمة؛ إذ رأت كايوس فيندكس وأباه وقد فُكّت قيودهما وأُلقيت الأكياس التي غطت رأسيهما والأشرطة الجلدية التي كانت تحز عنقيهما على الأرض، استند السيناتور فيندكس على ذراع الجلاد

كاديميوس ونهض من على الأرض، وبانت على رقبته آثار خط أسود عميق، وكان وجهه ما يزال أزرقَ. إنه يلتقط أنفاسه بصعوبة، ويجد صعوبة في فتح عينيه، أما كايوس فيندكس فهو تماماً كما شاهدته فانينا أول مرة، لكنها لم تلاحظ القميص الخشن الذي يلبسه ولا آثار الجَلْد الحمراء على ذراعيه العاريتين. الشيء الوحيد الذي أدهشها هو مظهر البشاشة التي بدت على وجهه رغم أنه لم يكن يضحك!.

في هذه الأثناء كان ذو اللحية البرونزية يضرب (درابزون) المنصة بقبضته بعد أن اتضح له سخف وخطأ ما قام به من تصرفات فبدأ يصرخ بأعلى صوته:

- ياشعب روما. اسمعوني. ياشعب روما.

فقال أحدهم ساخراً:

- لقد سمعناك بما فيه الكفاية يادوميتيوس ياصاحب اللحية البرونزية، كان الأجدى بك ان تذهب إلى بيتك وتراقب زوجتك أغربين، وكيف تتبادل الحب مع أخيها. !.

وقال آخر:

- يجب أن تحمد الآلهة وتشكرها دوماً لأن لدى زوجتك أخاً محبوباً مثل كالي غولا إنه ليساعدك بكل ما أوتي من قوَّة وبدون أن يكل أو يمل ولن تجد له مثيلاً في هذه الدنيا!.

في إثر ذلك علت الضحكات وقهقهات الجماهير الرنانة، فانبرى ذو اللحية البرونزية قائلاً:

- أما الآلهة فأنا أشكرهم دوماً، ولكن عليكم أن تدركوا بأنكم سوف تتعرضون لعذاب الآلهة إذا لم تستمعوا لما أقوله لكم. وإذا تابعتم التأييد لهذا الهذيان الذي تقوله هذه المرأة التي تجوب الشوارع وهي تتابع الأحداث بدلاً من أن تقوم بأداء مهمتها التي تقتضي الحفاظ على عذريتها والدعاء للآلهة من أجلنا، فإنكم سوف تكونون هدفاً لأبشع المصائب!.

أثيرت فانينا مما قاله وشعرت وكأنها تلقت صفعة على وجهها ورأت كايوس فيندكس أمامها وهو يرفع قبضته باتجاه ذي اللحية البرونزية ويصرخ غاضباً:

- أنا من سيحاسبك على هذه الكلمات أيها الكلب الأحمر النجس، ولكي لا يترك مجالاً له للرد عليه، أمسك هذا الشاب والده من ذراعه وانسحب بسرعة إلى الخلف، وسط الجماهير.

فرد ذو اللحية البرونزية وهو يزمجر غاضباً:

- إن والدك أعقل منك بكثير ياديك غالة وهو يعرف على أي أرض صلبة أقف.

امتعضت فانينا كثيراً فقد لاحظت أن هذا الرجل المقرف لازال يلوِّح ببعض الأمور السرية، مشيراً إلى قرابته بكلافينوس.

كان الراهب العصري قد ارتدى ثياب الاحتفال ووضع على رأسه القبعة التي يضعها رهبان روما وقد أمسك بيده عصاً ذهبية.

وبعد أن توقف ذو اللحية البرونزية برهة قصيرة وهو يفكر فيما يجب أن يقوله. رفع إصبعته مخاطباً الجماهير:

- يا شعب روما اسألوا هذا العجوز المحترم، كيف وجد تمثال والدة الآلهة كيبالا في سيركوس ماكسيموس، وقد غطاه العرق، واسألوه أيضاً لماذا قرضت الفئران غنائم الحرب المحفوظة في معبد جوبيتر في الكابتول، واسألوه لماذا تفيض مياه تيبر، ولماذا سوف تغمر غداً هذا الحي بمياهها. نعم اسألوه عن جميع هذه الأمور يا أهالي روما المحترمين، وسوف يجيبكم كلافينوس أن هذه العلامات هي نذير شؤم، وقد ظهرت الآن كردٍ من الآلهة لأن غضبها قد عظم من جراء هذا الهذيان المخيف الذي تتعرض له روما!.

ثم علا صوت ذي اللحية البرونزية وكأنه يقوم بأداء فصل مسرحي جديد فمد يده بشكل دراماتيكي باتجاه كلافينوس وكأنه يتوسل إلبه ثم تابع كلامه:

- ولكن شكراً للآلهة، لأن هؤلاء المجرمين سوف ينالون عقابهم، وبذلك نكون قد ساهمنا في تخفيف غضب الآلهة. ثم إن بإمكانكم أن تسألوا، ياأهل روما، هذا الشخص الذي تسلم رئاسة مجلس الرهبان والذي اختاره إمبراطورنا العظيم تيبر بمنتهى الحكمة والدراية. بإمكانكم أن تسألوه عن العقوبة التي يجب أن تنزل، تجاه الأيدي التي دنست محراب الآلهة؟

- هل يقصدك أنت، أيتها العذراء المقدسة؟

نظرت فانينا إلى الرجل الذي كان يقف إلى جانبها وفي يده مدية. إنه هو نفسه، ذلك الشاب الجزار الذي تحدَّى ذا اللحية البرونزية، وكان فتى طويل القامة، قوي البنية، وفي عينيه بريق غريب، نظر إلى فانينا وقال لها:

- مُريني لكي أذبحه فَوراً أيتها العذراء المحترمة.

ثم دنا بعض الشباب من أفراد الشعب من مختلف المشارب، من عمال صك العملة في هضبة الكابيتول، وبعض عمال الدهان التي كانت أيديهم ملوَّنة بألوان مختلفة، ومن الخبازين، والحمالين، وصانعي الجلود، والمعماريين، والباعة الجوالين.

عضَّ أحد القرويين الأقوياء على أسنانه وصرخ غاضباً:

- لماذا تسكتين حتى الآن على هذا الرجل الذي يحاول النيل منك؟

لم يكن لكلام ذي اللحية البرونزية أي تأثير على الناس. لقد كان الشعب مؤيداً لفانينا ولا يريد التخلي عنها، وهؤلاء الشباب الطيبون مستعدون لقتل هذا الرجل السافل من أجلها. وفانينا نفسها واثقة من حماسهم وشعورهم الملتهب، و إشارة منها تكفي للانقضاض.

بعد ذلك صرخ أحد النجارين ، ضخم الجثة:

- نعم ماذا تنتظرين أيتها العذراء المحترمة جداً، ألا ترين أن هؤلاء مستعدون للهجوم على هذا الرجل النجس الذي يهدد الناس بخبثه، ويقومون بتقطيعه إرباً إرباً.

لقد كان الرجل على حق. فقد وقف دوميتوس ذو اللحية البرونزية فوق منبر الخطابة، وبدا وكأنه أكثر الخطباء طيبة، بينما كان ينبح بصوته كأي مهرج من أولاد الشوارع. بدا الحقد على وجهه، واختلط المكر والخداع في كلامه.

أخذ تأييد الراهبة الشابة يكبر أكثر فأكثر وتسمّرت العيون على فمها بانتظار أن تعطي الإشارة، استعداداً للتحرك فوراً. ساد الجميع الغضب والهياج، وتهيأ البعض للتحرك، عندها امتقع لون الجنود والنقيب، ومرافقي القاضي، بما في ذلك الجلاد كاديميوس.

التف جميع الشبان، حول الراهبة الشابة، مثل فراشات تحوم حول نور المصباح، أما ذو اللحية البرونزية فقد وقف مكتوف اليدين بعد أن فشل في وضع كلافينوس شاهداً على هذيانه. لقد انتهى كل شيء بالنسبة لهذا الأحمق الذي تسبب في الإغضاب البالغ للجماهير.

توترت فانينا، فدنت من كايوس فيندكس. وأشارت عليه أن يمسك بذراع والده جيداً خوفاً من الأحداث، التي يمكن أن تنفجر ضد ذي اللحية البرونزية. لم يكن حتى ذلك الوقت قد جرى بينها وبين هذا الشاب أي تماس بالجسم. وعندما لامست ساقها الناعمة كالقطن ملابس الشاب أحست بالدفء يجري في أوصالها وشعرت أنها قد اشتعلت من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، فهذه هي المرة الأولى التي يقتربان فيها من بعضهما بهذا الشكل. نعم إنها المرة الأولى وقد تكون الأخيرة، لأن كل شيء قد انتهى. إنهما يقتربان من الموت أكثر فأكثر.

كان ظهر الراهبة قد التصق بصدر الشاب، فأحست بالرغبة في أن تلتفت إليه بسرعة لكي تصبح بين ذراعيه. فالحب الكبير الذي تكنه له وحرصها الزائد عليه، يلحان عليها أن تموت هي وهذا المسكين في آن واحد، وأن تشهد كل هذه الجماهير على

ذلك. نعم إنها ترغب في أن تفعل ذلك، لكنها سمعت فجأة صوت ذي اللحية البرونزية يجلجل من جديد.

كانت فانينا تتابع لهجته العنيفة منذ البداية، لكن ما يقوله الآن هو أعنف من كل ما سمعته سابقاً.

صمت ذو اللحية البرونزية قليلاً وظل واقفاً في مكانه فوق المنبر، والأنظار شاخصة إليه، وعندما التفتت فانينا إليه شاهدت مركبة تتقدم باتجاهها، مركبة تسير وكأنها تطير فوق رؤوس الجماهير. إنها مركبة فيبديا رئيسة الراهبات، ومثل حدأة كانت تصوّب نظرها في اتجاه بعينه، وكان في عينيها نظرات يصعب فهمها،أما ثيابها الناصعة البياض فكانت تلمع كالفضة وتخطف الأنظار وهي وسط هذه الكتلة الرمادية من الجماهير، وعلى الأخص هذا السيل الأحمر الذي يتدفق فوق هذه الدرجات الضخمة، من درجة إلى أخرى.



تمنت فانينا لو أنها ذابت، أو اختفت عن الأنظار، أو أنها لم تأت إلى هنا أصلاً. تمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها، خاصة بعد أن تذكرت كلام رئيسة الراهبات!.

فما الذي كانت رئيسة الراهبات قد قالته لها فيما مضى؟

> لماذا تسببين لنفسك كل هذا الحزن؟ ولماذا ترهقين أعصابك بمثل هذه الأسئلة الكثيرة التي لا لزوم لها. لاتخشي شيئاً يافانينا فأنا أفكر بكل شيء، ولقد اتخذت التدابير اللازمة كلها وقد أوقفت هجوم الأعداء الخطير حتى قبل أن يبدأوا به، وعزمت أن أتابع هذا الأمر حتى نهايته. ألم تقولي أنت "إن كايوس فيندكس هو أنا، وأنا كايوس فيندكس، فإذا مات هو فسأموت أنا، وإذا عاش فسأفعل كل ما تأمريني به. ". اعتمدي علي يا فانينا ولا تخافي،

> ولا أريدك أن تقومي بمراقبة تصرفاتي والحكم عليها مهما جرى!.

ولم تكتف بهذا بل قالت أيضاً:

> أريدك أن تتأكدي من شيء. ألا وهو: كلما مضت السنون تصبحين أكثر أهمية عندي، وأغلى من روما والإمبراطورية، والآلهة وحتى أغلى من شرفي. وأنا سعيدة بهذا الاعتراف.

كما قالت لها:

> - لذلك أرجوك وأتوسل إليك أن لا تتصرفي بأي شيء دون أن تعودي لي، وحاولي أن تمضي معظم أوقاتك إما في المعبد أو في غرفتك، وأن لا تتكلمي مع أحد حتى مع بوبيليا الصغيرة. وأريدك أن تعلمي أن التشهير بهذه المرأة التي قتلتها بهذا الشكل الفظيع، ما هو إلاّ درس لباقي الجواسيس الذين أرسلهم كلافينوس إلى هنا، كي يأخذوا العبرة ويقتنعوا بعدم جدوى الاقتراب من أحد عناصرنا!. لذلك أرجوك وأتوسل إليك ألاّ تتصرفي بأي شيء قبل أن تعودي إليّ.

وعلى الرغم من كل هذه التطمينات فقد وقعت فانينا كالبلهاء في أول فخ نصب لها، وركبت المركبة التي كان الأعداء قد أعدوها لها بلا علم منها، لكي تذهب لإنقاذ فيندكس. لقد كانت مستعدة لأن تفعل كل ما بوسعها من أجل إنقاذه، وعلى الرغم من أنها لم تعتمد على ما تعهدت به رئيسة الراهبات،فبيديا ولم تأخذ بنصيحتها على الرغم من ذلك فإن رئيسة الراهبات ظلت ملتزمة بالوفاء بجميع الوعود التي قطعتها على نفسها، وقد ارتكبت الحرام، وأقسمت أيماناً كاذبة، ونامت على

الحصير بالقرب من السجن في سبيل ذلك. ولم تشك فانينا لحظة، في أن فيبيديا كانت وراء ذلك الصوت الرفيع والغريب ، صوت الفتاة التي وقفت أمام القافلة وبدأت تحرض الجماهير. لقد كانت هذه الفتاة الصغيرة هي أراكسيا التي دستها فبيديا وسط جموع الشعب لكي تصرخ بأعلى صوتها. "راهبة فستا. راهبة فستا". وهي التي انتظرت الوقت المناسب لكي ترغم الجنود على إطلاق سراح كل من كايوس فيندكس ووالده.

إذن، أدركت فانينا الآن في قرارة نفسها أنها خانت العهد الذي قطعته لرئيسة الراهبات وهاهو الخجل يعتريها من أجل ذلك ويأكلها الندم.



خيَّم على المكان صمت مخيف يسحق القلب ويحطم الأعصاب، ولم يعد يُسمع سوى صوت سُعال أحد الأشخاص الذي لم يستطع السيطرة على نفسه فراح يسعل بين الحين والآخر، وفيما عدا ذلك فقد ساد صمت عميق لدرجة أن فانينا التي أسندت ظهرها على ظهر كايوس فيندكس كانت تسمع دقات قلبه.

بدأ الآن يسمع وقع أقدام الحمالين المصريين الذين يحملون مركبة رئيسة الراهبات.

كانت فبيديا تقترب أكثر، وهاهي ذي قد وصلت في الوقت المناسب. أخذ الجنود وضعية الاستعداد وضربوا الأرض بأقدامهم وأنزلوا رماحهم المرفوعة، وانحنى الجلاد على ركبتيه وأحنى رأسه، وامتشق النقيب سيفه القصير. فحيت رئيسة الراهبات الجماهير بحركة خفيفة من يدها وبدون أن تحرك جسمها أو أي ثنية من الثياب التي كانت تلبسها.

تابعت المركبة تقدمها، وبعد أن سار الحمالون وسط الجنود الذين اصطفوا على الطرفين، وقفوا إلى جانب فانينا:

استدارت رئيسة الراهبات نحو فانينا ببطء، وتكلمت بصوت عميق. ورغم أنه لم يكن عالياً، إلا أنه كان يمكن سماعه من كل الأطراف. وقالت:

- لمِ تأخرت يافانينا، ألم نتواعد على أن نلتقي أمام معبد جوان مونيتا بمجرد أن تجهزي نفسك؟

عادت فانينا إلى نفسها بمجرد سماعها كلام فبيديا. لقد كانت رئيسة الراهبات تجد لها الأعذار المناسبة دوماً لكي تتمكن من مواجهة الأعداء!. فقالت فانينا:

- لم أجد أي مركبة أمام بيت فستا أيتها العذراء المقدسة لذلك اضطررت لركوب أول مركبة صادفتها أمامي!.

قلبت رئيسة الراهبات شفتيها قليلاً وفهمت فانينا مغزى ما وراء تصرفها ثم تابعت فبيديا سؤالها:

- وماذا جرى بعد ذلك يا ابنتي؟

- لقد تأخرت بسبب الزحام أيتها الراهبة المقدسة، فقد كان هناك إعدام في توللبانيوم!.

ابتسمت فبيديا بعد ذلك ابتسامة تستطيع أن تتحدى بها أي ممثل مسرحي. وكان وقع هذه الابتسامة كالسحر على وجوه الجميع بما في ذلك الجلاد كاديميوس الذي فتح شدقيه إلى آخرهما وهو يعبر عن سروره العميق!.

ثم قالت رئيسة الراهبات:

- أوه، هذا يعني أنك كنت صاحبة الحظ في إنقاذ هذين الرجلين يا ابنتي، وإني لأغبطك على هذا الحظ ، لأن إنقاذ بعض المحكومين والعفو عنهم من قبل راهبات فستا نادراً مايحدث!.

بعد ذلك التفتت فبيديا إلى قائد الجنود وأضافت قائلة:

- إه. أيها النقيب، في مثل هذه الحالة لم يعد لوجودك أي لزوم بعد إخلاء سبيل هذين الرجلين . ولكن إذا كنت ترغب في إنقاذ حياة هذين المحكومين من تلك المحبة الفائقة التي يمكن أن يُظهرها لهم هؤلاء الناس الطيبون والذين يلتفون حولنا، فيمكنك اصطحابهما وإيصالهما حتى بيتيهما!.

كان صوت ذوي اللحية البرونزية ما زال يجلجل فوق المنبر:

- من فضلك أيتها العذراء المقدسة لا داعي لكل هذه العجلة!.

قلبت رئيسة الراهبات شفتيها وجالت بنظرها حولها ثم سألت بلهجة متذمرة واستصغار:

- من هذا الذي تجرأ وقطع كلامي بمثل هذه الفظاظة؟

فرد أحد الشبان ممن كانوا يضربون طوقاً حول فانينا:

- إنه دوميتيوس ذو اللحية البرونزية أيتها العذراء المقدسة. انظري إليه إنه يعتلي المنبر!.

رفعت فبيديا رأسها فتجاهلت النظر إلى ذي اللحية البرونزية وقالت وكأنها قد لمحت صدفة كلافينيوس:

- آ.آ. وهل أنت هنا أيضاً يا كلافينوس المحترم؟ اعذرني لأنني لم أحييك. ولأنني لم أميز وجودك، لقد كنت منبهرة بالمعجزة الإلهية التي تمت على يدي فانينا!.

بدا العجوز وكأنه يبصق ثم أجاب:

- لو كنت قد أمعنت النظر جيداً، كنت رأيت كيف أن راهبة فستا لم تحافظ على الوعد الذي قطعته من أجل بكارتها!.

كادت فانينا تُجن وشعرت أن كايوس فيندكس قد انتفض أيضاً، فهذا اتهام خطير لها أمام شعب روما، ولو سمع أحد اتهام كلافينوس ممن يقفون في الصفوف

الأمامية لهذا الزحام فإن ذلك سيكون كافياً لأن ينتقل من فم إلى فم آخر ويمتلئ الجو كله بالهمس وتسيطر الدهشة والاستغراب على وجوه الجميع !.

لو كانت فانينا مكان فبيديا لكالت له الصاع صاعين ولتهجمت عليه بالأسلوب نفسه ، لكن رئيسة الراهبات تصرفت وكأنها لم تسمع ما قاله جيداً !. فقالت :

- لم أفهم ماذا تقصد أيها المحترم كلافينيوس !.

- إن ما قصدته هو أن فانينا كانت مصممة على المجيء إلى هنا !.

- أنت تعلم يا كلافينيوس المحترم أنني أنا التي أمرتها أن نلتقي عند معبد جوان مونتيا ، فقد كنت أرغب في تعريفها على بعض طقوس التعذيب التي لا تعرفها ، فإذا كنت تعرف طريقاً مختصراً ، غير هذا الطريق للذهاب إلى هناك فبإمكانك أن تدلني عليه لكي أسلكه في المرة القادمة ، وأوفر بضع ثوان قيمة. وأنا أشكرك سلفاً !.

ران الصمت من جديد على جموع الجماهير وراحت كل الآذان تصغي. كان كلافينوس يملك روحاً شريرة ولكن كان يخفيها أمام الجماهير، لذلك فقد كان أهالي روما يكنون له احتراماً عميقاً. ولكن شعورهم نحو راهبة فستا كان شعوراً مليئاً بالمحبة والإعجاب ويقترب أحياناً من درجة العبادة !.

لاحظت فانينا أن تلك المجموعة الصغيرة المؤلفة من كل من فبيديا وكايوس فيندكس ووالده ، والتي تقف تحت مستوى أقدام كل من كلافينوس وذي اللحية البرونزية ، محاطة بمجموعة من الناس تبدو على وجوههم ملامح التجسس.

وقف معظم الناس يراقبون هذا الحوار الدرامي المسرحي المقنع الذي تقشعر له الأبدان ، وهم يشاهدون هذه المسرحية التي لم يعرفوا لها سبباً ، والذي قد لا يعرفونه أبداً !.

وأخيراً تكلم ذو اللحية البرونزية بعد أن نفد صبره من أسلوب رئيسة الراهبات المحنّك :

- أنت تعرفين أيتها العذراء المقدسة ماذا يقصد قريبي المحترم!.

فتدخلت فانينا قائلة:

- إن رئيس الرهبان المحترم قد أشار إلى أنني جئت خصيصاً إلى هنا من أجل إنقاذ هذين الموقوفين!.

صرخ كلافينوس بغضب بعد أن أصبح لون وجهه كحلياً:

- إذا كان بينكم من لا يعرف اسم هذين الموقوفين، فأنا سأقوله لكم: إنه السيناتور فيندكس المتهم بتحريض غالة على الثورة، وابنه كايوس فيندكس.

كانت هذه هي المرة الأولى التي تُظهر فيها رئيسة الراهبات اهتماماً بفندكس ووالده. لذلك انحنى هؤلاء الشريفان أمامها وحيياها وردت فبيديا التحية لهما وقالت:

- إنني سعيدة بتعرفي عليك أيها السيناتور المحترم أنت والشاب الذي معك وكنت أتمنى لو جاء هذا التعرف في ظروف أفضل!.

وهنا سأل كلافينوس الذي كان لا يزال يصرخ بصوته المتهدج:

- ماذا قلت أيتها العذراء المقدسة؟

- هل سألتني ماذا قلت يا كلافينوس المحترم؟ ما قلته هو أنه لم يعد لنا لزوم أنا وأنت هنا، لأننا نضيع وقتنا هباءً!.

ثم التفتت رئيسة الراهبات إلى تلك الجموع المحتشدة وقالت وكأنها تريد أن تشهدهم على كلامها:

- أيها الأحبة: لقد قبلت أمنا فستا وساطتي أنا من أجل نجاة هذين الموقوفين وليست وساطة فانينا!.

ثم التفتت إلى فانينا وقالت لها:

- هل ترين يا ابنتي كيف أن رئيس الرهبان المحترم كلافينوس لم يجدك مُناسِبةً للتوسط لدى الآلهة؟

وقبل أن تنهي رئيسة الراهبات كلامها رفعت رأسها ونظرت إلى كلافينوس وركزت أنظارها على شفتيه المتدليتين وعينيه الزائغتين، وتحدثت وهي تقف عند كل كلمة تقولها:

- وهكذا استطعت أن أخلص هؤلاء المحكومين من يدي الجلاد، بسبب مروري مصادفة من هنا؟

ثم تكلم كلافينوس وكأنه يقول طلاسم:

- يجب أن تمثلي أنت وفانينا قبل كل شيء أمام مجلس الشيوخ!.

- ولماذا يجب علي أن أمثل أمام مجلس الشيوخ!.

- لأن مجلس الشيوخ هو الذي أصدر الحكم عليهما.

- دع عنك هذا يا كلافينوس. أنت ترتعش رغم أنك ترأس مجلس الرهبان في حال غياب القيصر تيبر!. وهل تظن أن مجلس الشيوخ يمكن أن لا ينحني احتراماً أمام إحدى عاداتنا الأكثر قدسية؟

فاتجه كلافينوس وقال وكأنه يعوي:

- على أقل تقدير، نستطيع أن نطلع مجلس الشيوخ على أمور كثيرة لا يجوز بحثها هنا في الشارع!.

فردت فبيديا بجواب كأنه سوط جلاد. قالت:

- أنت رئيس مجلس الرهبان وكالة عن الإمبراطور!. فهل تظن أن أهالي روما لا يعرفون تلك الأمور التي تحاول إخفاءها عنهم؟

كانت صيحات الجماهير وخاصة الجزار ورفاقه الذين تجمعوا حول مركبة رئيس الراهبات، تعلو، وهم يشيرون إلى رئيس الرهبان ويصرخون:

- ها هو قد خرس الآن!.

ظل الناس يتدافعون ويصرخون بأعلى صوتهم:

- اطلقوا سراحهم. اطلقوا سراحهم.

وثمة من قال:

- وأنت عد إلى بيتك يا أيها الراهب المحترم.

وتتابعت أقوال أخرى:

- فكر في عودتك إلى غالة يا صاحب اللحية البرونزية.

- اذهب يا صاحب اللحية البرونزية، وانظر إذا كان لا زال كالي غولا عند زوجتك.

- أغربين شبقة للغاية لدرجة أن المسكين لم يعد يستطيع الوقوف على قدميه، وإذا كنت تثق بنفسك اذهب إليها وخذ مكان كالي غولا!.

- بما أنك قد أطبقت فمك فما عليك الآن سوى أن تنطح برأسك ذات اليمين وذات الشمال يا صاحب اللحية البرونزية.

بدأ الجزار ورفاقه الذين تحلقوا حول رئيسة الراهبات يرقصون طرباً، أما فانينا فقد سعت للحفاظ على هدوء أعصابها، وإخفاء فرحتها العارمة. وفجأة سُمع صوت يبعث على الرهبة. فسكت الجميع وكأنهم اتفقوا على الصمت، وبدأ وقع الأقدام من الأزقة المجاورة يعلو وهي تضرب الأرض كالمطارق!.



القسم السادس عشر

عَزَفت الأبواق البرونزية مرة أخرى، ولمدة طويلة، فوقف الجنود الذين كانوا يرافقون الموقوفين وأدُّوا التحية لرئيسة الراهبات المحترمة، بدون أن يأخذوا أمراً من النقيب، ثم وقفوا باستعداد ووضعوا تروسهم على صدورهم ونكسوا رماحهم!.

اضطرب بعض أفراد الشعب وعلت أصواتهم، ثم قام حرس البروتوريان وتصرفوا وكأنهم في حالة حرب وأخلوا جميع الطرق الصاعدة إلى هضبة الكابتول باتجاه الساحة، وقام أحد جيوش حراس المدن بإغلاق جميع الطرق المؤدية إلى ساحة بالاتين!.

في الوقت نفسه كان يُسمع وقعُ نعالِ فَرسٍ يسير فوق أحجار الساحة، وقد امتطاه فارس من مفرزة الفرسان.

ثم ظهر في أعلى المصاطب المدرَّجة في المكان الذي يشهرون فيه بالأشخاص الذين يقتلون بالتعذيب، قائد من البروتوريان ومعه أربعة من معاونيه، اعتمر خوذة عليها نجوم مذهبة، وفوقها عُرْفٌ ملون كعرف الديك. كان كلما مشى خطوة ارتطم السيف القصير المعلق على خصره بساقه. أما على كتفيه فقد وضع قفطاناً بلون أرجواني، ولفَّ به ما تبقى من جسمه حتى بدا مثل عقاب يتهيأ للطيران.

أما فبيديا فقد ظلت واقفة فوق مركبتها بلا حراك، كأنها قطعة من حجر، والحمالون المصريون تسمروا في أماكنهم فبدوا أصناماً، ولم تكن ترى أو تسمع أي شيء رغم

أنها كانت تشاهد كل ما يجرى حولها. كانت تفكر بفانينا وبحالة التوتر التي بلغتها فجعلتها كالنابض، وبتزاحم الأفكار التي تتجاذبها، وتتلاحق وراء بعضها البعض ثم تصفعها كالصاعقة على جبينها الناعم، وكيف أنها تقوم بحسابات كثيرة وتضع المخططات لكي تتمكن من مواجهة ما يمكن أن يحدث!

بعد ذلك جاء كايوس فيندكس ووالده ووقفا إلى جانبها، وعندما التفتت راهبة فستا نحو الشاب والتقت عيناها بعينيه شعرت فانينا، أن هذا اليوم هو أسعد أيام الحب الذي يربطها بهذا الشاب. واقتربا إلى حد أنها لو مالت برأسها قليلاً فسوف تستند على كتفه، وإذا ما مال هو أيضاً، فإن شفاههما سوف تلتقي وتتوحد!.

وهنا تذكرت كلام كاتيا، تلك الفتاة الألمانية التي قالت لها:

- لقد قبلني حبيبي في أول لقاء لنا يا سيدتي الصغيرة، ثم أمسكني من خصري ومر بشفاهه فوق شفاهي واختلطت أنفاسنا.

هاهي فانينا تقف عند حافة ذلك العالم السحري الذي حدثتها عنه كاتيا ولكنها لا تجرؤ على التقدم! مثلها مثل مُهْرة تتوثب للانطلاق إلاّ أن هناك لجاماً عنيداً يقف حائلاً دون ذلك.

تمنت فانينا لو أن حبيب الفتاة الألمانية له وجه يشبه وجه فيندكس لاكتفت هي بظلال السعادة التي عاشتها خادمتها. إنها لن تنسى أبداً خواطر السعادة هذه، وسوف تدافع عنها حتى الرمق الأخير.

نعم. حتى الرمق الأخير. ولكن متى سيكون هذا الرمق الأخير؟ أيكون بعد ساعة! أم غداً، أم بعد يومين أو أكثر؟

ألقت الفتاة الشابة نظرة حولها، فرأت أن منظر الجلاد كاديميوس بصدره المنتفخ وذراعيه الضخمتين الممتلئتين شعراً يبعث على الرهبة أكثر من كل التروس التي يمسكها الجنود بأيديهم. رأته وقد التف من حوله ثمانية من المرافقين وأحاطوا به إحاطة

السوار بالمعصم، وعلى بعد خطوات، إلى الأمام وقف النقيب أمام رجاله وبيده سيفه وكأنه ينتظر إشارة سحرية!.

تجمع الناس في جهة واحدة وكأنهم خائفون. هناك، كانت سيدة تميل برأسها إلى الأمام وقد جحظت عيناها، بينما أسبلت يديها على جانبيها. لقد أصيبت بإغماء من شدة الزحام، لكنها بقيت واقفة بهذا الشكل لأنها لم تجد مكاناً فارغاً لكي تسقط فيه!.

في هذا الوقت لم يكن يُسمع سوى أصوات بكاء لاتتوقف،بكاء الأطفال، الذين حملهم آباؤهم وأمهاتهم بين أيديهم خوفاً من الزحام، ووقع حوافر الخيل المتوقفة وهي تضرب الأرض، بعد أن أخذ الفرسان أماكنهم في الطرف الآخر من منبر الخطابة وبعد أن طوقوا المكان.

لم تستطيع فانينا منع نفسها من النظر إلى المكان الذي يقف فيه كل من كلافينوس وذي اللحية البرونزية. رأت ذا اللحية البرونزية يهمس ببعض الأشياء والراهب ينظر في وجهه وهو يمسح شفته السفلى المبللة.

ارتفع صوت البوق مرة أخرى، فرفع رئيس حرس البروتوريان يده اليمنى إلى الأعلى، ثم سُمع صوته القوي يجلجل من فوق المصاطب المدرجة وهو يقول:

- يا أهالي روما لا تضطربوا وحافظوا على النظام كعادتكم دوماً. يرجى إخلاء الساحة في أقصر وقت ممكن والتوجه إلى الممر الخالي الكائن خلف معبد ساتورن في هضبة الكابتول، وذلك بناء على أوامر كلّ من "لون جينوس، وكاليورينوس بيزو" اللذين يمثلان قائد حرس البروتوريان ساجان المحترم في حال غيابه!.

وما أن انتهى القائد من كلامه حتى أنزل يده، ثم سمع وقع أقدام حرس البروتوريان على أحجار الشارع المرصوفة وهم يدفعون الحشود باتجاه معبد ساتورن، أما وحدات حرس المدينة فسارت على شكل طوابير متفرقة وسلكت ممراً لا تراه فانينا من المكان الذي تقف فيه!.

سأل كايوس فيندكس والده من فوق رأس الراهبة الشابة.

- ما هذا الذي يجري؟

فأجابه السيناتور:

- لا أدري يا بني!.

وبصورة لا شعورية التفتت فانينا إلى فبيديا، ولكن رغم أن رئيسة الراهبات لم تحرك شفتيها فقد وصل صوتها إلى الفتاة الشابة:

- هيهات. فأنا لست بيت سر الآلهة.



لم تتجرأ فانينا على النظر إلى منصة الخطابة لكي تشاهد ردة فعل كلّ من كلافينوس وذي اللحية البرونزية واكتفت بالنظر إلى الشمال واليمين، فرأت وحدات حرس معبد ساتورن، والحرس الذين تجلببوا بالقفاطين الأرجوانية وقد وضعوا على رؤوسهم الخوذ الذهبية، يشقون طريقهم وسط الجماهير ويتقدمون، ثم خرج من بين أعمدة المعابد جنود حرس المدينة!. لم يكن لأحد كيفما التفت حوله أن يرى سوى التروس المربعة الشكل والرماح والخوذ الحديدية التي تبدو كبقعة سوداء تحت أشعة الشمس، والخوذ الذهبية ولا شيء آخر. راح الطوق المضروب حول منصة الخطابة يضيق أكثر فأكثر وأخذ حرس البروتوريان يقتربون، ووقع أقدامهم يلتقي مع وقع أقدام الوحدات التي تتدفق من الشوارع المجاورة، وتشكل إيقاعاً منتظماً.

لم يبق أمام الحرس سوى ما يقرب من مئة خطوة حتى يصل إلى منصة الخطابة. كان معظم الجمهور قد انسحب من هنا ولم يبق سوى القليل، الذي راح ينسحب أيضاً .

حين أصبح الحرس على بعد خمسين خطوة من منصة الخطابة، أطلق قائد حرس البروتوريان الواقف فوق قمة المصاطب المدرجة أمراً مقتضباً لم تفهمه فانينا، عندها أشهر النقيب الذي يقود الجنود المرافقين لكايوس فيندكس ووالده، سيفه في الهواء،

فتقدم رجاله فوراً وبدؤوا بالتعاون مع الحرس البروتوريان الذين هبطوا من الكبتول بتفريغ الجهة الجنوبية لمنصة الخطابة!.

حتى ذلك الوقت لم تكن فانينا قد تخلت عن كبريائها وبقيت مشدودة نحو الجموع المحتشدة حول مركبة رئيسة الراهبات والحراب موجهة إلى صدورهم.

خاطب الجزار فانينا مودعاً:

- لك السلام أيتها العذراء المقدسة.

فردت راهبة فستا:

- ولك السلام أيضاً أيها الجزار!.

- اسمي سترا أيتها العذراء المقدسة. فيبيوس سترا.

- أعادت فانينا:

- لك السلام يا فيبيوس.

بعد ذلك ابتعد الشاب وعيناه تدمعان.



أصبحت فانينا وفبيديا وكايوس فيندكس ووالده، وحيدين وسط الفراغ الذي راح يتسع حول منصة الخطابة مع مرافقي القاضي الثمانية والجلاد كاديميوس.

انطلق صوت البوق مرة أخرى وعم الوسط صمت عميق، وقد خلا وسط الطوق الذي كان الجنود قد ضربوهحول الساحة المواجهة للسجن من الجماهير ولم يعد يوجد فيه سوى الأحذية، والعصي، وبعض الطواقي، وقطع الثياب.، ورجل عجوز مستلقٍ على بداية الدرج الصاعد إلى السجن، بالإضافة إلى جثة تلك المرأة التي قتلها الجنود والتي بقيت متروكة بالقرب من قاعدة المنبر.

كذلك، خلا تماماً الطريق الفاصل بين المنبر والسجن الذي تنفذ فيه أحكام الإعدام. ووقف على المصاطب المدرجة أربعة من المساعدين وخلفهم قائد حرس البروتوريان، والتف حولهم لفيف من النقباء وراحوا ينزلون الدرج، وعندما

أصبحوا أمام الأشخاص الذين قتلوا بعد التعذيب ترددوا بعض الشيء خاصة عندما شاهدوا برك الدماء المختلطة بالماء عند أقدامهم، ولما كانوا مرغمين على الخوض في هذه البرك فقد رفع القائد ذيل قفطانه وتبعه الآخرون ففعلوا مثله، ثم استداروا حول الجثث وتابعوا طريقهم دون أن يكترثوا بما كانت تطؤه أقدامهم ودون أن يفقدوا ذرة واحدة من وقارهم وهيبتهم!.

وبعد أن نزل القائد ومن معه الدرج سار فوراً إلى منصة الخطابة وخلفه مساعدوه الأربعة ووقف على بعد خطوات من رئيسة الراهبات لكي يقدم لها التحية، ثم قال:

- أرجو أن تسامحيني أيتها العذراء المقدسة لأنني اضطررت لأن أقوم بواجبي في حضورك. إذ لم يكن بمقدوري أن أفعل شيئاً بعد ما كلفت باستلام السيناتور لوسيوس جوليوس فيندكس وابنه كايوس فيندكس!.

امتقع لون فانينا فتقدمت من الضابط بدون وعي ولم يبق بينها وبينه سوى خطوة واحدة وقالت له:

- أنت لا تعلم على الأغلب ما يجري هنا أيها الضابط المحترم؟

التفت الضابط إلى الفتاة الشابة وكان وجهه كالمرمر تماماً:

- هذا شيء لا يهم، فأنا أنفذ الأوامر المعطاة لي أيتها العذراء المحترمة، سواء كنت على علم، أم لم أكن!.

انتفضت فانينا في مكانها عندما سمعت قهقهة ذي اللحية البرونزية المُغِمّة. وهكذا بدا أن كل شيء قد انتهى، فلْتَمُت إذن مع كايوس فيندكس. وعلى الرغم من أن وجه الشاب الذي أحبته صار أصفر كشمع العسل، على الرغم من الإشارة التي أشار فيها السيناتور فيندكس بيديه لكي لا تتسرع، وعلى الرغم من أن فبيديا أيضاً قد قفزت من مركبتها، على الرغم من كل ذلك فانها أرادت أن تصرخ بأعلى صوتها معلنة رغبتها في أن تتقاسم معه هذه النهاية. لكنها سمعت صوت كلافينوس يقول:

- أيها الضابط المحترم يجب أن تطيع الأوامر الحكيمة التي أمرك بها رؤساؤك. وأنا أتوسل إليكم باسم جميع الآلهة أن لا تضيعوا الوقت. إلقِ بهذين الشخصين فوراً في أقبية السجن، قبل أن يغيبا عن ناظري، ودع الجلاد، يقوم بعمله، أما نحن فقد اتخذنا في مجلس الرهبان كل الاحتياطات اللازمة لكي لا تتكرر مثل هذه الحادثة مرة ثانية.

علا من جديد صوت الضابط الذي تكلم بقوة وجِدّية ولكن بعيداً عن الانفعال:

- لم يعد أخذ السيناتور فيندكس وابنه إلى السجن موضوع بحث أيها الراهب المحترم.

فتح ذو اللحية البرونزية فمه وسأل:

- ماذا تقصد؟

وبدأ الاحمرار الذي يكسو خديه وأنفه وطبقة البياض التي تعلو وجهه بالزوال لتحل محلها طبقة زرقاء.

تصرف الضابط وكأنه لم يسمع ما قاله ذو اللحية البرونزية، ولم يشاهد الدهشة التي ارتسمت على وجوه الناس الذين تجمعوا حول فانينا ولا إلى أيديهم المرتعشة التي امتدت نحوها.

ففتح ورقة الحكم التي كانت ملفوفة على شكل أسطوانة، وبعد أن سعل ثلاث مرات لكي ينظف حنجرته، قرأ:

> "بناء على أوامر رئيس مجلس الشيوخ وإمبراطور الجيش القيصر المقدس تيبر، فقد أصدر مجلس الشيوخ قراراً يقضي بإبطال الأحكام الصادرة بحق كل من السيناتور لوسيوس فيندكس وابنه كايوس فيندكس"

ضغطت فانينا بيدها على قلبها الذي كان يخفق مثل قلب عصفور مُهدّد، فجاء الأمر مفاجأة منعشة إذ لم تكن تتوقع شيئاً من هذا، وشعرت أن رجليها ترتجفان ولا تستطيعان حملها، وأحست بضرورة أن تبذل مجهوداً كبيراً لكي تقف عند كل كلمة

قالها الضابط لكي تفهمها جيداً. إذن أُعفي عن كايوس فيندكس ونجا من الموت. لكن الضابط لم ينته من القراءة بعد، لقد تابع:

"وثمة قرار آخر قد اتخذ من قبل مجلس الشيوخ يقضي أن يكون كل من السيناتور لوسيوس فيندكس وابنه كايوس فيندكس تحت حماية مجلس الشيوخ، وإن كل من يتعرض لهما أو لأموالهما ستنزل به أقصى العقوبات".

انقلبت الأمور رأساً على عقب ففي الوقت الذي لم تكن تستطيع فيه فانينا أن تلتقط أنفاسها هبطت عليها على حين غرة سعادة لاتوصف فانهمرت دموع الفرح على وجنتيها بعد أن اغرورقت عيناها، ثم وقفت فبيديا إلى جانبها وخيمت عليها تماماً كما كان يفعل كايوس فيندكس مع والده أمام الجلاد ومرافقي القاضي. وأما صوت ذي اللحية البرونزية فظل يُسمع من على المنبر وهو يتكلم بوحشية ويقوم بحركات غريبة بيديه وذراعيه وقد وقف كلافينوس إلى جانبه. كان كلافينوس قد انحنى ظهره كثيراً ولم يعد يستطع رؤية شيء سوى غطاء رأسه الذي وصل حتى أذنيه!.

ثم صاح ذو اللحية البرونزية:

- هل قلت مجلس الشيوخ أيها الضابط؟ وكرر ذلك ثانية متسائلاً: متى حدث ذلك؟

- لقد اتخذ هذا القرار منذ قليل يا دوميتوس المحترم.

كاد ذو اللحية البرونزية يجن من الغضب فصرخ قائلاً:

- لماذا لم أدعَ أنا؟

- أنا لا أعرف. يا دوميتوس المحترم.

تكلمت فانينا والسعادة تغمرها فقالت:

- إنك لم تنه قراءة باقي القرارات أيها القائد!.

فهز الضابط برأسه وأجاب:

- الآن سأنهي قراءتها أيتها العذراء المحترمة!.

ثم فتح لفافة الورق من جديد وقرأ بتؤدة:

- لقد أمر مجلس الشيوخ في قراره الأخير بمرافقة كل من السيناتور المحترم لوسيوس جوليوس فيندكس، وابنه كايوس فيندكس فوراً إلى ليون، وإلى حين صدور أوامر أخرى فقد تقرر أن توضع تحت أمرتهما مفرزتان من حرس البروتوريان. وسوف يعاقب بالموت كل من يتعرض لهذين الشخصين المحترمين أثناء مرورهما في روما وهما في طريق العودة.



في إثر ذلك تقدم عشرون من حرس البروتوريان نحو كايوس فيندكس ووالده فشمخ هذان الرجلان الغاليان برأسيهما عالياً ووقفا بصف الجنود.

في هذه الأثناء امتدت يد فبيديا وأمسكت فانينا من معصمها. فنظرت الفتاة الشابة باستغراب فضحكت فبيديا وهمست:

- ها قد صارما كنت تتمنينه، والآن يترتب عليك أن تثبتي أنك جديرة بالاسم الذي تحملينه، وهذه الثياب التي ترتدينها!.

ثم سكنت رئيسة الراهبات قليلاً وقالت:

- إنها وظيفتك يا ابنتي، ويجب أن لا تتخلي عنها أبداً!.

بدأت الأرض تهتز تحت وقع الخطى المنتظمة لحرس البروتوريان، الذين مروا من أمام كايوس فيندكس ووالده ومن أمام الراهبتين فالتفت الشاب نحو فانينا، وتلاقت نظراتهما!.

ثم ضغطت الراهبة الشابة على أسنانها لكي لا تصرخ من الفرح وهي تعيد وتكرر قائلة:

- إنه حي. إنه حي.

لكنها التفتت فجأة عندما سمعت أحدهم يقول:

- نعم إنه حي، ولكن كل شيء قد انتهى. قدانتهى.

كان وجه السماء ملبداً بالغيوم السوداء بلون دماء القتلى المتخثرة والتي بدأت تنزل ببطء على أدراج المصاطب، وبدأ شبح كايوس فيندكس ووالده ومرافقيهم من حرس البروتوريان يبتعد عن الأنظارشيئاً فشيئاً. وسمع صوت البوق البرونزي للمرة الأخيرة، ثم خرجت من الشوارع المجاورة أصوات تصم الآذان. لقد طوقت إحدى وحدات الفرسان القافلة، وانتهى حقيقة كل شيء بالنسبة لفانينا!.



القسم السابع عشر

سحبت فبيديا فانينا من يدها، ثم دارتا معاً حول المنبر. الساحة الجميلة الممتدة أمامهما خلت تماماً، إلا من حرس البروتوريان وخيولهم وهي تحفر الأرض بسناكبها. أما كلافينوس وذو اللحية البرونزية فقد غابا عن الأنظار بعد أن استقلا مركبتهما الفخمة الملونة بألوان العاج والذهب، وقصدا إلى ريغيا، المكان الذي يحتوي على جميع الوثائق المهمة والخاصة بالمدينة، كما يحتوي على مجلس الرهبان!.

همست رئيسة الراهبات قائلة:

- هيا قفي جيداً واستعدي إذ يجب أن نحث الخطى، لأن مركبتي صغيرة ولا تتسع لكلتينا، ثم لا يمكن أن أدعك تركبين بمفردك وأسير أنا إلى جانبك كالخادمة. لقد ارتكبنا نحن الاثنتين كثيراً من المخالفات هذا اليوم!.

كانت فانينا تريد أن تفي بوعودها التي أعطتها لفبيديا، أن تكون مطيعة لأوامرها إلى أقصى درجة، إذا ما أنقذ كايوس فيندكس وأن تتصرف بوقار كأي راهبة من راهبات فستا. لكنها لم تستطع.

رغبت في توضيح جميع تصرفاتها، الجيد منها والسيء، وأن تقطع الروابط التي تربطها بالماضي المرير، وشعرت بالحاجة الملحة لاستعادة ذكريات تلك الأحداث. لذلك سوف تختار بين أن تترك نفسها تموت ببطء إذا فقدت الأمل، أو أن تولد من جديد، فتاة صلبة ذات أعصاب هادئة، وأن تكون مخلوقاً نموذجياً جامداً كالبرونز لكي تتمكن من تحقيق جميع المخططات السرية لتيبر في إمبراطوريته.

توقفت فبيديا فجأة فسندتها فانينا بصورة لا شعورية. لقد شاهدت رجلاً يتقدم باتجاههما، بعد أن اخترق صفوف خيل البروتوريان.

حيّا الحرس هذا الرجل باحترام. إنه رجلٌ من النوع الذي لا يمكن أن يُنسى أبداً، فهو طويل القامة جداً لدرجة أن ظهره قد احدودب بعض الشيء، وعريض المنكبين لكن جسمه نحيل. كان شاحب اللون وكأن الدم الذي يتدفق في جسمه ماء. بدا وكأنه مريض. شعره رمادي، قصير وشائك وقد غطى جبينه الضيق. صدغاه عميقان وزرقاوان، وعظامه الرقيقة تبرز من كل مكان أما أنفه فكان مكسوراً مثل أنوف الملاكمين وعليه آثار جروح، وقد تدلت شفته السفلى التي كانت تحيط بفمه الصغير حتى غدت وكأنها ذقن كبيرة!.

رفع يده محيياً وقال:

- السلام لك أيتها العذراء المقدسة.

ردت فبيديا:

- السلام لك يا مكارون المحترم، هل أنت بخير؟

- لم يكن هناك فارق بيني وبين أي من الأشخاص الذين كانوا يجرون الخيول تحت المطر طيلة خمسة أيام، أيتها الراهبة المقدسة!.

كان مكارون يتصرف وكأن فانينا غير موجودة، ثم التفت ببطء إلى الفتاة الشابة وأمعن النظر إليها بعينيه الصفراوين اللتين لا رموش لهما، فقالت له فبيديا:

- إذا كان لديك ما تقوله فيمكنك أن تتكلم، فأنا واعتباراً من هذا اليوم لن أخفي شيئاً عن فانينا.

ولقد استدعى انتباه فانينا كيف أن رئيسة الراهبات قد أصرت على كلمة "هذا اليوم".

تابعت فبيديا وسألته:

- لماذا تأخرت كل هذه المدة حتى عدت من كابري؟ ما كنت لتلحق لو تأخرت أكثر. وبعد أن ترددت بعض الشيء أكملت رئيسة الراهبات:

- لو لم نتدخل أنا وفانينا، كنت رأيت جسدَيْ الابن كايوس فيندكس ووالده يُشهر بهما الآن فوق المصاطب المدرجة!.

فأجاب الرجل:

بعد أن استلم الإمبراطور رسالتك التي ترجين فيها إنهاء محاكمة السيناتور فيندكس وابنه أمر أن يقوم أسترولوغ تراسيلوس بتحضير "زيجاً" بحركة الكواكب أكثر دقة وتفصيلاً.

ثم استمر في حديثه بعد أن ألقى نظرة أخرى على فانينا:

- كان يريد أن يعرف فيما إذا كانت الكواكب تشير إلى أن راهبة فستا المحترمة فانينا قد تبسمت للشاب فيندكس، وقد تطلب ذلك منه يومين!.

- إن تراسيلوس يقوم عادة بمثل هذه الأمور بسرعة ويسر، إذ ليس هناك أمور غير عادية في مثل هذا "الزيج"!.

وبعد أن نظر مكارون مرة أخرى إلى الفتاة الشابة سأل:

- هل أستطيع أن أقول كل شيء؟

ترددت فبيديا قليلاً فأمسكتها فانينا من ذراعها وقالت:

- نعم بإمكانك أن تقول كل شيء يا مكارون المحترم. حتى ولو كان فيما تقوله أمراً مفجعاً بالنسبة لي!.

عندها هز مكارون كتفيه ووجه كلامه هذه المرة إلى فانينا:

- حسناً، أيتها العذراء المقدسة. إن كل ما فهمته من كلام تراسيليوس الغامض هو هذه الكلمات، وهي أنك إذا لم ترحلي خلال يومين إلى عالم الظلال، فإنك سوف تدعين في القريب العاجل من أجل إنقاذ الإمبراطورية، ولكن شريطة أن لا تقومي بعد الآن بأي تصرف من شأنه تغيير مصيرك!.

فتمتمت قائلة:

- هذا معناه أنني...

- نعم معنى ذلك أن الإمبراطور يُحذرك من التمادي في تصرفاتك في بعض الأمور التي سبق وتصرفت بها.

لم تتمالك فبيديا نفسها وقالت:

- يعني أنه لن يكف أذى كلافينوس عن فانينا!.

وبدون وعي أمسكت رئيسة الراهبات مكارون من قفطانه وبدأت تشده وهي تصرخ قائلة:

- إذا لم يقم تيبر بالذات بردع كلافينوس فإنه سوف يقوم باستدعاء فانينا للمثول أمام مجلس الرهبان وسوف يُحكم عليها بوأدها حية.

تنفس ماكارون الصعداء وقال:

- لقد قلت لك أيتها العذراء المقدسة أن ليس لدي ما أضيفه إلى كلامي هذا.

كان مراسل الإمبراطور ينظر إلى الراهبتين وكأنه يريد أن يقول شيئاً ما ثم قال ببرود:

- أليس بالأمر الغريب حقاً، أن ساجان لم يتنازل ويأتي إلى روما من أجل أن يتدخل في الموضوع، والأنكى من ذلك أنه وضع أمامي العراقيل الكثيرة لكي لا أصل سالماً إلى مجلس الشيوخ. كما يجب أن لا ننسى كيف حاول ذو اللحية البرونزية وأصدقاؤه جهدهم لكي يمنعوا وصول ضابط البروتوريان في الوقت المناسب، لكي يقوم بإنقاذ الأب فيندكس وابنه.

وبعد ذلك تراجع مكارون خطوتين إلى الوراء ثم حيا الراهبتين وتكلم بصوت منخفض:

- لتضحك الآلهة في وجهيكما أيتها العذراوان المحترمتان!.

ثم ابتعد وهو يترنح تعباً في مشيته.



القسم الثامن عشر

كانت عربة بيت فستا الكبيرة، البيضاء، المذهبة تنتظر أمام كوريا جوليا وكانت هناك أراكسيا أخت رئيسة الراهبات بالرضاعة، ومعها ثلاثة من المرافقين، وكلافينوس، هو الآخر كان هناك وحوله قرابة العشرة من الخدم المنتخبين ممن لا يشك بارتباطهم بذي اللحية البرونزية. كان الجميع يقفون إلى جانب الحجر الكبير.

كانت فبيديا منهكة جداً وقد أصبح وجهها أصفرَ كالشمع، وبدأت يداها وذراعاها ترتعشان، وهي لا تزال تدافع عن وجهة نظرها بكل ما أوتيت من قوة. صعدت فانينا أولاً إلى العربة، ثم أمسكت بيد رئيسة الراهبات لكي تساعدها على الصعود، وبعد أن التقطت فبيديا أنفاسها، وقفت مكانها بدون أن تتحرك أو تتكلم، ثم أشارت بيدها ودعت أراكسيا للجلوس إلى جانبها.

تحركت العربة أخيراً. وقفت فانينا في مقدمة العربة، وشعرت أن رأسها يكاد ينفجر لكثرة الأفكار التي ازدحمت في رأسها وهي تحاول ترتيبها، أو وضعها في قالب، ولكن عبثاً ما كانت تحاوله. اعتقدت أنها حققت غايتها ولم يعد مهماً إن كان ذلك عن الطريق الصحيح أم عن الطريق الخطأ. المهم أنها استطاعت إنقاذ كايوس فيندكس، والأهم من ذلك أن هذا الشاب قد وُضع تحت حماية قوية رغم سوء حظه. وهذه الحماية مؤمنة له ضمن جميع حدود الإمبراطورية. ولن يتجرأ أحد على مسه بأذىً.

لكن الإحباط بدأ ينتاب الراهبة الشابة عندما تذكرت أن تلك المراقبة الأسطورية لن تنتهي، وأنها قد لا ترى من تحبه مرة ثانية!.

مع ذلك، فكّرت أنه، مهما طال الزمن، لا بد أن تلتقي بفيندكس في يوم ما بعد أن يموت الإمبراطور.

ولكن هل سيكتب لها أن تعيش حتى ذلك الوقت. لقد خاطرت في حياتها حوالي مئة مرة في تلك الأسابيع المنصرمة من أجل إنقاذ حياة كايوس فيندكس، وهي لا تزال تتذكر تلك الجمل العذبة التي قالها في هذه الساحة، إنها لا تتنكر لهذه الأمور، وهي على استعداد لأن تضحي بحياتها دائماً من أجل الرجل الذي أحبته وبملء إرادتها، خاصة وأن قدرها أصبح معروفاً ولم يعد بإمكانها التحكم به.

ولكن هل حقاً كانت تستطيع أن تتحكم بقدرها؟ إن كلام ماكارون لم يترك لها مجالاً للشك، فالإمبراطور تخلى عن الراهبة الشابة وتركها وجهاً لوجه ولوحدها أمام كلافينوس، وأصبح بإمكان رئيس الرهبان أن ينتقم منها عندما يريد وبمنتهى البساطة!.

لهذا كله، أدركت أن كايوس فيندكس سوف يضيع من يدها إلى الأبد ولن تراه بعد الآن. وهنا راودتها أفكار وعواطف لاتليق إذ تصورت كيف سيبحث كايوس عن واحدة أخرى غيرها بحثاً عن ملزاته وفكرت كم سيكون مدمراً لها إذا ما حصل ذلك في يوم من الأيام. فما كان منها إلاّ أن اعترفت أمام نفسهابتفاهة هذه الأفكار وانحطاطها. لقد عزمت أن تكون امرأة مميزة فتترفع عن مثل هذه الأمور، وأن تبارك مثل هذه العلاقة التي من شأنها أن توفر حياة جديدة لكايوس فيندكس، لكي يعد موقفها تضحية بحق، غير أن هذا ليس بيدها. وقد لامت نفسها كثيراً لأنها فكرت أن تيبر قد تخلى عنها، وأنها فكرت أنه لن يهب لنجدتها في الدقائق الأخيرة، وتذكرت كيف أن هذا العجوز المتهالك قد أضاع يومين لكي يتأكد فيما إذا كان المريخ، والزهرة، والمشتري يعملان لصالحها، وهو الأمر الذي يشير إلى أن هذا العجوز لا زال قوياً!.

ولكن لماذا ترك تيبر الساحة مفتوحة أمام كل من كلافيينوس وذي اللحية البرونزية وحتى يمكن القول أنه سلمهما فانينا مكتوفة اليدين.

وضعت الراهبة الشابة يدها على جبينها وتنفست بعمق وشعرت أنها قد انتعشت بهذا الهواء الرطب والبارد بعض الشيء.

لم تكن أراكسيا تتوقف عن الهمس بأشياء في أذن أختها بالرضاعة وكانت فبيديا تنقل أحياناً إلى فانينا نتفاً مما تقوله أختها:

ـ إن كلافينوس لم يضع الوقت يا سيدتي فما أن وصل إلى ريغيا حتى استدعى جميع الرهبان للاجتماع. لقد شاهدت عبيد دوميتيوس كيف هرعوا إلى حي سبور. وكان أحدهم قد مر إلى جانبي تماماً وسمعته يقول:

ـ "نستطيع أن نخبرهم أن الوقت قد أصبح مناسباً للقيام بمظاهرة أمام بيت فستا". وعندما عدت إلى البيت لكي أحضر العربة، شاهدت جمهرة قاريت المئتين في زقاق نوفا وهم يهتفون".

فسألتها فبيديا:

ـ ماالذي كانوا يقولونه ؟

ـ وماذا عساهم أن يقولوا في مثل هذه المواقف؟!. كانوا يحرضون الشعب ويخيفونه، ويكررون تلك الأمور التافهة، وكيف أن الآلهة قد غضبت على المدينة، لأن إحدى راهبات فستا قد نكثت باليمين الذي أقسمته من أجل المحافظة على عذريتها، وأن نهر تيبر على وشك الفيضان، والغنائم التي عند معبد جوبيتر قد قضمتها الفئران، وأنه قد ولد في روما خلال ثلاثة أيام ثلاثة أطفال بلا رؤوس، و إصبع قدم أحد هؤلاء الأطفال مغلفة بقطعة جلدية. و راحوا ينهقون كالحمير، ويرددون بأنهم يريدون دفن تلك الراهبة في مقابر المجرمين وهي على قيد الحياة. وأن طائر المالك الحزين قد أقام عشاً فوق أحد القبور هناك!.

مالت أراكسيا أكثر نحو رئيسة الراهبات، وتكلمت بصوت منخفض جداً، ولكن فانينا استطاعت على الرغم من ذلك أن تسمع بعض الكلمات المتفرقة، كانت تقول:

- لقد سرَّعوا عملهم. في هذا الصباح أخذوا السرير إلى هناك. أرأيت كيف أنني كنت على حق يا سيدتي؟ الآخر كان يقف عند الزاوية وكأنه قد نصب كميناً. لم يكن بالإمكان معرفة ماذا كانوا يتصورون.

قطبت فانينا حاجبيها، وجف ريقها، وكادت عيناها تفران من محجريهما بعد هذا الذي سمعته، لقد أرادت أن تصرخ بأعلى صوتها، أو أن ترمي بنفسها من العربة وأن تركض بدون أن تنظر خلفها. لقد فهمت كل شيء، إنهم مشغولون في حفر قبر لها في مقبرة المجرمين، ولقد كان ذلك السرير من أجل أن تموت جوعاً فوقه، كما جهزوا أناسا كثيرين ليكونوا شهود زور، يشهدون أنهم رأوها وهي تجري نحو السجن لكي تنقذ كايوس فيندكس!.

وما من شك في أن هؤلاء الشهود الكُثُر سوف يظنون أن فانينا عاشقة لكايوس فيندكس وبما أنها قد هبت لمساعدة الرجل الذي تحبه فهو دليل على أنها وقّعت على حكم إعدامها بنفسها!.

كانت عربة بيت فستا ما تزال تشق طريقها في زقاق توسكانا، وهي تتنطط فوق أحجار هذا الزقاق، عندما قفز إلى الخارج من أحد الأبواب الجانبية لكوريا جورليا إثنان من أعضاء مجلس الشيوخ، أحدهما والد فانينا، أما الثاني فكان صديقه كورنيليوس دولا بيللا.

وقف السيناتور فانينوس أمام العربة وكأنه يريد أن يعترض سبيلها ثم هجم على العربة.

توقف الخدم القيمون على شؤون العربة وهم مشدوهون. بدا السيناتور قلقاً جداً ومضطرباً إلى أبعد الحدود، ونَفَسَه يكاد ينقطع، فسأل كلاً من فانينا وفبيديا:

- بالله عليكما قولا لي، هل صحيح ما سمعته؟ لقد سمعت أنهم يريدون توقيف ابنتي؟

أشاحت فانينا بوجهها إلى الطرف الآخر لكي لا يرى والدها الدموع في عينيها، وأحست أنها سوف تنهار. بعد ذلك قفز فانينوس إلى العربة، وتسلق صديقه دولا بيللا أيضاً وأمسكه من كتفيه، فأشارت فبيديا بيدها فتحركت العربة. وقال دولا بيللا وهو يحاول أن يهدئ من روع صديقه:

- ألم يقسم ذلك الخنزير كلافينوس أمامك باسم الآلهة، منذ أول أمس أنه لن يفعل شيئاً؟ آمل أن تكون مطمئناً يا عزيزي فانينوس، لأن الإجراءات اللازمة لمثل هذا العمل تستغرق وقتاً طويلاً، لذلك فقد أرسلت رسالة عاجلة إلى الإمبراطور وأنا أنتظر ورود جوابه وآمل أن يصل قبل الانتهاء من النظر في القضية!.



عندما وصلت العربة إلى زقاق توفا، اعترض طريقها حشد مخيف من الغوغاء والحثالات البشرية. اصطفوا أيضاً على طول الدرج الصاعد إلى هضبة بالاتين، وهم يتدافعون ويصرخون، ويشتمون، ويلوحون بقبضات أيديهم في وجه فانينا.

لم يكن هذا الحشد هو ذلك الحشد الذي سبق أن تجمع عند المصاطب المدَرَّجة وقد ضمّ جميع أطياف شعب روما. أما هؤلاء الغوغائيون المتدافعون فيمثلون الوجه الأسود لروما. يمثلون الشوارع الخلفية المشهورة في حي سبور ذي السمعة السيئة. إنهم جمع من القوادين، واللصوص، والقتلة المأجورين، والخارجين على القانون، والأشقياء والمحتالين. وأكثر ما لفت النظر بين هؤلاء ،طابور بائعات الهوى اللواتي تحزمنَ بأحزمة تشبه أحزمة الرجال، ووضعن على رؤوسهن قبعات مختلفة الأشكال والألوان تشير إلى عملهن. وطُليت وجوههن وعيونهن بالمساحيق من مختلف الألوان ورحن يطلقن العبارات البذيئة والصيحات المقرفة، وفي الوقت نفسه تفوح منهن روائح القذارة، والتعرق، والعفن، ورائحة الصوف الرطب المختلطة بروائح مستحضرات التجميل والعطور الرخيصة!.

يقرأ الناظر في وجوه هؤلاء الناس الذي لا أصل لهم ولا فصل، أنهم مدفوعون لكي يهددوا بالموت، ولكي يتظاهروا بأنهم يستمتعون بذلك إلى أقصى درجة. توجب عليهم أن يظهروا شعور التشفي والحقد تجاه الفتاة الشابة، فانينا. قاموا بحركات بذيئة مستهجنة وأطلقوا سيلاً من الكلام لم يسمع من قبل وكأنهم ليسوا من البشر، بل وحوش ارتدت أقنعة البشر. أرادت هذه الطبقة القذرة المنحطة في روما، أن تشوه وتلوث سمعة فانينا وتلعن المؤسسة النظيفة والقيمة التي تنتمي إليها، لكي تتمكن القبضة الحديدية للسلطة من القضاء على فانينا.

سيطرت الدهشة على فانينا فالتجأت إلى فبيديا واحتمت بذراعيها، وقد قوبل عملها هذا بضحكات مستهجنة. لكن رئيسة الراهبات انقلبت إلى لبوة تدافع عن ابنتها. نظرت إلى الجموع المحتشدة حول المركبة وقطبت جبينها فسيطر الخوف والصمت على الجميع، ما عدا بعض الهتافات المحبطة والتي كانت تسمع من أطراف الشارع وتتردد أصداؤها في كل مكان، فقد كان هناك حوالي خمسين شخصاً، رقابهم حمر، مثل ثيران هائجة، وقد وضعوا خصيصاً في هذا المكان لكي يتظاهروا، ويصبوا جام غضبهم.

كان الأكثر صياحاً وهيجاناً، وإلفاتاً للنظر هم أولئك النسوة اللاتي كانت أصواتهن الرفيعة تعلو على أصوات الرجال.

أمطروا الراهبة الشابة بسيل من الشتائم المقذعة التي تحتوي على أحط التعابير، لدرجة أن فانينا لم تكن تفهم معناها!. ولكنها لم تكن تشك أبداً أن ما يقولونه لا بد وأن يخيف أصدقاءها في بيت فستا.

كان بين هذه الشتائم الاتهام بالزنى. لقد أطلقوا هذه الأحكام سلفاً، وقبل أن تمثل الراهبة الشابة أمام مجلس الرهبان، وقبل أن يحكم عليها هذا المجلس بالموت جوعاً وبرداً وقبل أن تنهال عليها الأتربة بعمق ثمانية أقدام.

همست فبيديا في أذن الفتاة الشابة:

- تشجعي يا ابنتي. أرجوك كوني شجاعة!.

فصاحت إحدى العاهرات وكان شعرها منفوشاً:

- دعيها أيتها العذراء المقدسة. فنحن لا نطلب منك شيئاً.

نحن لا نقصدك أنت. نحن نريد أن تقتل هذه القحبة الصغيرة التي جعلتنا هدفاً لغضب الآلهة:

ثم انبرت واحدة أخرى:

- اطرديها أيتها العذراء المقدسة. فإن هذه الكلبة تلطخ سمعتكن!.

ثم قالت إحدى المتسولات:

- قولي إنها تلطخ سمعة المدينة كلها!.

حاولت فبيديا إخفاء تصرفاتها عن الجميع، عند ما أمسكت فانينا من ذراعيها، متضامنة معها أمام مظاهر الاحتجاج. وكان الخدم الذين يحيطون بالعربة ويقومون بخدمتها، قد تجمعوا على بعضهم وقد اعترتهم الدهشة، وأما أراكسيا فقد وقفت بلا حراك وهي تنتظر إشارة من سيدتها، ثم مدت يدها إلى صدرها فجأة وأخرجت جسماً لامعاً ومدبباً. لقد كان خنجراً حاداً مثل موس الحلاق!.

كانت ثياب وقفطان كل من فبيديا وفانينا قد اختلطت ببعضها وكأن الاثنتين قد أصبحتا جسماً واحداً أمام هذا الخطر. حنّت فانينا إلى الأيام التي كان فيها الناس يُظهرون لها المحبة والاحترام وكانت تريد أن تحافظ على ذلك!. ولكن من الغريب حقاً أنها لم تعد تخاف من أي شيء ولا حتى من غضب الآلهة الذي هبط عليها ويريد أن يسحقها، بعد أن ساعدت في إنقاذ كايوس فيندكس، فحتى موتها لن يذهب سدىً.

للحظات أوشكت الراهبة الشابة فانينا على الانهيار ، غير أنه كان انهياراً عرضياً، فسرعان ما ظهرت كرامة نسل ماسترنا المقدسة. وحين نظرت الفتاة الشابة، ورأت ذلك القزم المجهول المقرف، وهو يقف أمام العربة بين لفيف من الفاحشات اللواتي تُلفت أصواتهن وكلامهن النظر أكثر من الآخرين، انتفضت ونفخت صدرها واستعادت ثقتها بنفسها، وكأنها لم تعد تخشى من غضب الآلهة عليها!.



فجأة سكتت الأصوات عندما ظهر رجل فوق الدرج الصاعد إلى هضبة بالاتين. إنه ذو اللحية البرونزية الذي أشار بيده إلى المتجمهرين لكي يحافظوا على الهدوء، ثم كرر كلامه قائلاً وهو يصرخ:

- أيها الأصدقاء أنا أعلم أنكم غاضبون من تلك الخادمة القليلة الشرف التي لوثت محراب الآلهة والدة مدينتنا، واستخفت بالعذاب المقدس الذي ظهرت علاماته في أكثر من مكان!.

سحبت رئيسة الراهبات فانينا نحوها أكثر عندما سمعت هذا الكلام وهمست في أذنها:

- أتوسل إليك باسم فستا، أن لا تجيبي بأي شيء. دعيه يتكلم. المهم الآن هو الوصول إلى البيت، وبعدها لكل حادث حديث.

لكن حديث السيناتور لم يكن طويلاً ولم يمض سوى وقت قصير حتى عاد ليقول:

- أيها الأصدقاء عليكم أن تمنعوا دخولها إلى ذلك المسكن المقدس الذي دنسته. ثم أنهى حديثه وهو يقول: وأنا أعدكم أن العدل سوف يأخذ مجراه في القريب العاجل!.

قابل هذا الحشد الهائل من الغوغاء الوعد الذي أطلقه ذو اللحية البرونزية بالهتاف والتصفيق، ثم سمحوا للعربة بالعبور، لكن فانينا لاحظت أن ذلك القزم الذي يرتدي قفطاناً أحمرَ، كان يحافظ على نفس المسافة التي بينه وبين المركبة، و كيف أنه تسلل بهدوء ومهارة واندس بين الناس الذين كانوا يسيرون في الطريق.

خيم الصمت على الناس وهم يفسحون الطريق أمام العربة لكي تتقدم، وعندما وصلت الراهبات أخيراً إلى بيت فستا وقفت العربة، وسط مكان لا زحام فيه.

وفي اللحظة التي تقدّم فيها أحد مرافقي الراهبتين لكي يقرع الباب قفزت أراكسيا من العربة أولاً لكي تكون على استعداد لحماية الراهبتين، ثم قفزت بعدها فانينا، ومدت يدها إلى رئيسة الراهبات لكي تساعدها على النزول.

سارت راهبتا فستا إلى جانب بعضهما البعض باتجاه بيت راهبات فستا، وما إن دفعت فبيديا الباب المغلق بيدها حتى تنحت فانينا جانباً احتراماً لها. بعد ذلك فتح الباب، ولكن ما أن خطت فبيديا خطوة أو اثنتين حتى سمعت صوت حركة خفيفة.

كان هذا كلافينوس الذي اندس بين فانينا ورئيسة الراهبات بعد أن كان مختبئاً كالعنكبوت في محرس البوابين.

تسمرت فانينا في مكانها وبدأت تنظر إليه وكأن عينيها قد خرجتا من محجريهما. وبدورها، أراكسيا، هي الأخرى فوجئت بوجود كلافينوس عندما نزلت من العربة، وأخرجت الخنجر الذي كانت قد أخفته في ثيابها.

تابعت فانينا بقلق ردة فعل الناس ممن يقفون حولها دون أن تتحرك، ثم سمعت صوت رئيسة الراهبات وسط هذا الصمت القاتل وهي تقول:

- هل من الممكن أن توضح لي سبب مجيئك إلى هنا يا كلافينوس المحترم:

أجاب الرجل العجوز والشرر يتطاير من عينيه:

- مامن شيء يحتاج إلى التوضيح أيتها العذراء المقدسة، فأنا أقوم بعملي فقط. ووظيفتي تقتضي أن آخذ هذه الفتاة إلى مجلس الرهبان لكي تمثل أمامهم.

عندها قالت فبيديا غاضبة:

- هذا يعني أنك تريد أن توفر أيضاً إيضاحاتك لكي تقولها أمام الرهبان المحترمين؟

قالت فبيديا ذلك وسارت خطوتين إلى الأمام.

وفجأة شاهدت فانينا أولئك الذين تجمعوا صفاً واحداً عند محرس البوابين. لقد كان هؤلاء هم الرهبان الذين يشكلون مجلس الرهبان وقد ارتدوا ملابسهم الدينية الرسمية، ووضعوا على رؤوسهم الطاقيات المدببة وأمسكوا العصي بأيديهم.

تكلم سيسينا، أحد الرهبان العجائز، وهو بعمر كلافينوس تقريباً، وقال بعد أن أحنى رأسه:

- نعم نحن نطيع أوامر المحترم كلافينوس الذي يمثل الراهب الأكبر وقائد الجيوش، الإمبراطور القيصر تيبر، ويتحتم عليك أنت أيضاً يا عزيزتي فبيديا أن تحني هامتك أمام أوامره.

- حسناً ولكن كيف وافقتم فوراً على المشاركة في هذا الاحتلال المقرف من دون أن تعترضوا؟

فاعترض أحد الرهبان الشباب على كلامها:

- هل قلت احتلال!. احتلال!.

- قل لي يا أروسيوس المحترم، إذا كان لديك كلمة مناسبة أكثر من هذه الكلمة لكي أستعملها؟

بعد ذلك تكلم العجوز سيسينا وقال:

- ليست للكلمات أهمية. نحن قبلنا المشاركة لكي نقوم بما تمليه علينا مسؤولياتنا ولا تظني أننا قبلنا بذلك بلا نقاش!.

فقال كلافينوس:

- إن الراهب المحترم سيسينا قد فكر في كل شيء، وحاول عدم إطالة النقاش لأنه يدرك أنه مهما كان الذنب عظيماً فليس من السهل أبداً اقتلاع إحدى راهبات فستا من بيت فستا الذي التجأت إليه. هذا هو شعوري وشعوره أيضاً نحو هذا الموضوع، وهو يعرف كم حاولنا جهدنا لكي نتمكن من تليين موقف زملائنا الذين كانت عيونهم تذرف الدموع!.

اقترب المساء، وبدأ الظلام يخيم، وأخذت زخات خفيفة من المطر تتساقط. ابتلت ثياب فانينا وبقيت واقفة في مكانها وهي تنظر بصمت إلى الجماهير، كما لو أنها فوق خشبة المسرح. كانت ترتجف من نظرات الجماهير. ولكن الحوار ظل مستمراً في قسم

البوابين إذ تابعت رئيسة الراهبات استجواب هؤلاء الرهبان واحداً تلو الآخر. أغلبهم كان يخجل من الدور المسند إليه، فكان إما يمتنع عن إعطاء جواب أو يتمتم بأشياء مبهمة، في حين كان بعضهم يقول:

- مهما كلف الأمر فهناك جريمة أيتها العذراء المقدسة!.

كانت فبيديا تقلب شفتيها أمام هذا القول وتجيب:

- مهما كانت الجريمة التي تتحدث عنها يا فيلوسيوس المحترم كبيرة، فإن القيام بتوقيف إحدى راهبات فستا التي تعتبر من أهم الشخصيات الدينية وسط الشارع وعلى مرأى من هذه الجماهير التي تلتف حولنا يعد جريمة أكبر!.

- إن هذه الجماهير التي تتحدثين عنها ترغب في تطبيق العدالة أيتها الراهبة المقدسة!.

- لكنكم لا تراعون أبداً القيم والمبادئ التي تعتمد عليها العدالة يا بلافيتيوس المحترم.

- ليس هناك من أصول متبعة في مثل هذه الأمور، أيتها العذراء المقدسة، إن هذه الشكليات متروكة لتقدير ممثلي الإمبراطور في حال غيابه.

شعرت فانينا وكأنها تعيش كابوساً مزعجاً، وأن هناك حاجزاً بينها وبين فبيديا مليئاً بنظرات الحقد والكراهية التي يركزها كلافينوس عليها. أرادت أن تقف إلى جانب فبيديا ولكن كان يجب أن يتنحى هذا العجوز جانباً. وهي لا تستطيع أن تبعده رغم أنه لا يستطيع مقاومتها لأنه كان أشبه ما يكون بهيكل عظمي، وكان يترنح وهو واقف، لكن مهما يكن الأمر فهناك حاجز بينها وبين كلافينوس لا تستطيع أن تتجاوزه. أولاً كونه طاعناً في السن ولا قوة له، وثانياً الهالة المقدسة التي يشعر بها الناس أمامه. لذلك فهو قمة لا يمكن بلوغها ونهر عريض متدفق لا يمكن تجاوزه.

شعرت فانينا بالدوران واستندت على أراكسيا، وأدركت أن مثل هذه المناقشة لن تنتهي أبداً. كما أن الجدال والنقاش الذي دخلت فيه فبيديا مع هؤلاء الرهبان لا يمكن أن ينتهي أيضاً فهو كله خطب ومواعظ.

- إن التدقيق في تصرفات راهبات فستا من صلب عملنا أيتها العذراء المقدسة!.

- ولكن التدقيق لا يعني إطلاق الأحكام على الآخرين!.

ثم تنهدت فبيديا وأكملت قائلة:

- إذا كنتم تودون ملاحقتها، فلماذا تقومون بذلك هنا. ولماذا لا تأتون إلى بيت فستا؟ أعتقد أنه لا يوجد ما يمنع مجيئكم!.

فأجاب سيسينا:

- هذه العلامات المليئة بنذر الشؤم قد جعلتنا جميعاً في حيرة من أمرنا، لذلك فقد ارتأى كلافينوس المحترم ضرورة عقد اجتماع فوري في ريغيا!.

في هذه الأثناء أطلق أحدهم من بين الزحام صيحة:

- لا جدوى من إطالة الحديث، هيا اجتمعوا إذا كنتم ترغبون في الاجتماع!.

كانت هذه الكلمات كافية لكي تحرض الجماهير، فبدؤوا بالتلويح بقبضاتهم نحو فانينا مرة أخرى، ثم التفتت الراهبة الشابة وهي تريد أن ترى الناس الذين كان يشتمونها قبل قليل. فتلقت بلغماً في وجهها تَفَّت به إحدى العجائز التي لم تستطع أن تتمالك نفسها.

كانت الهتافات تعلو وتتمادى:

- خذوا هذه العاهرة إلى ريغيا.

- إلى ريغيا. إلى ريغيا.

- لتنتقم الآلهة منها!.

كانت فبيديا لا تزال تجادل وهي واقفة عند محرس البوابين وقد بدا أن حدة صوتها أخذت تخف من شدة الاضطراب!. ثم قالت:

- لا يمكنكم أن تتخذوا أحكاماً في ظل تهديد هذه الجماهير التي حرّضها بعض المغرضين، و فانينا، من أجل خاطر فستا لن تمانع في الدفاع عن نفسها أمام الرهبان المحترمين، ولكنها لا تريدكم أن تقتربوا من محراب الآلهة.

- هذا كلام مليء بالوهم أيتها العذراء المقدسة. فبعد أن دَحرت جيوش هاني بعل، لم تعد روما مسرحاً لمثل هذه اللعنات الغريبة!.

- كما يجب أن لا ننسى أنه بعد تلك المصائب، قد وُئِدت كل من أوبيميا وفلورونا، وهما حيتان لكي نتحاشى غضب الآلهة.

- متى سينتهي هذا الشقاء؟ شعرت فانينا بالغثيان وحاولت أن تمسح خدها الذي تلطخ ببصاق تلك العجوز، ثم لمعت في ذهنها فكرة غريبة، وتمتمت قائلة:

- أشكرك أيتها العذراء المقدسة شكراً جزيلاً من أجل كل شيء فعلته من أجلي. وبدون أن تنتظر ردة فعل رئيسة الراهبات، اتجهت نحو الحلقة التي كانت قد توقفت عن الكلام وصرخت بأعلى صوتها:

- هيا لنذهب إلى ريغيا!.

امتدت إليها أراكسيا وأمسكتها من كتفيها. ثم همست في أذنها:

- إنك تفقدين عقلك أيتها العذراء المقدسة. إنهم سوف يقتلونك!.

أجابت فانينا غير آبهة بذلك:

- ليقتلوني. فإن فستا عالية الجناب، لا بد أن تنتقم منهم!.

كانت المرأة العجوز التي بصقت في وجهها تجر خلفها القزم العريض ذا القفطان الجلدي. فاتجهت فانينا نحوهما. فأطلقت تلك العجوز صرخة وحاولت الهروب بسرعة، ولكنها تعثرت بحجر فوقعت على الأرض، وبلا تردد رمت فانينا بنفسها

فوقها. لكن القزم الذي كان يخفي وجهه دوماً بطاقية بذل مجهوداً كبيراً لكي يبعد الفتاة الشابة عن هذه المرأة العجوز. في هذه الأثناء لمست فانينا بيدها جلد القفطان الخشن!.

ابتعدت فانينا عن المرأة العجوز وبدأت تسير وقامتها منتصبة ورأسها مرفوع عالياً وكأنها تعرضت لسحر أو لتنويم مغناطيسي. وسمعت صوت أقدام مضطربة تسير خلفها، ثم سمعت نداء فبيديا يرن في أذنها.

- فانينا. فانينا. آه يابنتي!.

ثم سمعت صوت كلافينوس المنخفض وهو يقول:

- اقبضوا عليها أيها المرافقون، فكل شيء ينتظر منها!.

ثم سمعت فانينا أخيراً صوت ذي اللحية البرونزية وهو في قمة الدرج الصاعد إلى هضبة بالاتين وهو يقول:

- ليدفنوا القحبة وهي على قيد الحياة!.

لم يلاق كلام دوميتيوس أي رد فعل من المتجمهرين الذين التفوا حول فانينا وجلهم من القوادين، والشحادين، وبائعات الهوى. جميعهم كانوا يحبسون أنفاسهم وهم ينظرون إلى الراهبة الشابة، وإذا ما صدف أن التقت عينا فانينا بعيني إحدى بائعات الهوى كانت الأخيرة تدير رأسها فوراً.

بعد ذلك سمعت فانينا صوت كلافينوس المنخفض مرة أخرى وهو يقول:

- احملوني، احملوني، فأنا لا أستطيع اللحاق بها. هناك، سارت قافلة طويلة خلف الراهبة الشابة، وراح البعض يتدافع مع البعض الآخر ولكن الجميع كانوا يحافظون على الصمت!.

سارت فانينا بلا توقف. لقد أصبحت سكرى من التعب وأنهك هذا الصراع جميع قواها. وصار جسمها بحاجة إلى الراحة، والظلال والهدوء الأبدي. إذ أضحى كل ما

حولها قذراً، بعد أن أبعد عنها فيندكس. فبعد أن أبعدته روما ، لم يعد هناك أي أمل لها في الوصول إليه، فالعراقيل التي وُضِعت أمامها لا نهاية لها!.

أدركت الفتاة الشابة أن الانتهاء من هذا الموضوع مبكراً هو الأفضل.

ولكنهاصممت ألاّ تسمح لهؤلاء الأنذال أن يسحلوها، أو يحملوها على أذرعهم إلى دار البقاء. لقد رسمت في خيالها لوحة عمن يجب أن يرافقونها إلى مثواها الأخير. رسمت لوحة جميلة جداً: يجب أن يكونوا ممن يحبونها ولا ينسونها أبداً، ويجب أن يتذكروا دوماً أنها كانت جديرة بحب فيندكس، وأنها الفتاة التي يندر وجود مثيل لها، فقد ضحت بكل شيء في سبيل الحب، أسمى شيء في حياة الإنسان، في سبيل الرجل الذي يُعد محظوظاً أكثر من جميع الرجال.

عندها سوف تعيش فانينا في قلب حبيبها إلى الأبد.



القسم التاسع عشر

علا صوت فانينا وقالت وهي مضطربة:

- هيا أسرعوا، أيها الرهبان المحترمون، أتوسل إليكم!.

بدأت الفتاة الشابة تشعر أن ساقيها لم تعودا قادرتين على حملها وأن أشرطة الحذاء الذي تلبسه بدأت تحز قدميها، وتكاد تقطعهما، كما بدأت تشعر بآلام في ظهرها. وقفت في مكانها بلا حراك مثل تمثال، وهي في صراع مع نفسها، تحاول ضبط أعصابها لكي لا تخرج عن طورها وتصرخ بأعلى صوتها. لم تعد تحتمل. شعرت أن هناك يداً من جليد تمتد إلى قلبها المضطرب وتعتصره، وأن ظهرها بدأ يتصبب عرقاً بارداً كالجليد.

- هيا أيها الرهبان المحترمون.

ومن مكان ما من خلفها كانت تسمع صوت إيقاع منتظم، صوت سقوط نقاط ماء في وعاء معدني، وحده، كان يدوي في الصمت الرهيب وكان الماء يتجمع في هذا الوعاء المعدني ويعلو شيئاً فشيئاً. كان ذلك صوت الساعة المائية التي تسجل اللحظات الأخيرة من الليلة الأخيرة في حياة فانينا!.

كانت الراهبة الشابة تفكر بالوقت الطويل الذي مرَّ على وقوفها على قدميها في الصالة الكبيرة في ريغيا أسفل تلك القبة التي تلفت النظر وهي تراقب الأعمدة البرونزية الخمسة التي تلمع كالذهب، وقد عُلِّقت عليها قناديل الزيت التي جُمِّعَت

على شكل عناقيد العنب، وكيف كانت شعلة القناديل هذه ذات الرائحة القذرة والمليئة بالدخان تتراقص على الجدران المكسوة بالمرمر الأحمر السماقي اللون.

ربما مضت ساعتان!.

ظلت فانينا تصر قائلة:

- هيا، أيها الرهبان المحترمون.

كلافينوس الجالس محني الظهرعلى كرسي مصنوع من عاج الفيل، أوقف رأسه الذي كان يهتز كنابض رخو وحر من أحد طرفيه. حتى بلوتون رب الأموات لا يمكن أن يقبل في جهنم مثل هذا العجوز النتن الذي وصل إلى عتبة المئة من عمره. لقد أصبح مزعجاً إلى أقصى درجة، فهو يرى أن الجنازة الحية لفانينا والتي ناضل من طويلاً لإتمامهافي هذه الليلة لم تعد بعيدة المنال، إنها ساعة الانتقام. أعطاه هذا الشعور المتحجّر دفعاً قوياً فاستعاد نشاطه ودب فيه الحماس وسرت الحيوية في شفتيه الجافتين والمتشققتين والمتورمتين. وكذلك في لثته العارية المنحسرة. بعد ذلك فتح فمه و راح يزقزق :

- لا شك أنك ترغبين في الانتهاء من هذا الموضوع بأسرع ما يمكن!. ولكننا لسنا في عجلة من أمرنا، لأننا تحملنا مسؤولية محاكمتك باسم الآلهة التي أغضبتها، وهذه مسؤولية كبيرة!.

- إذا لم تكن في عجلة من أمرك لماذا تصرُّ على محاكمتي هذه الليلة؟

- في هذا المكان: نحن من يحق لهم السؤال ولست أنت.

قال كلماته هذه بإصرار ودون أن يستمع لرأي باقي الرهبان، وكان قد جلس مرتاحاً على كرسي الإمبراطور تيبر الذي كان فارغاً، وقد صُفّت المقاعد حوله من الطرفين مشكلة نصف دائرة، ووقفت فانينا بمفردها، وليس معها من يدافع عنها. كانوا يتحروُن ويسألون عن كل شيء يخصها ، ناقشوا واستشهدوا بنصوص قانونية، وتجادلوا فيما بينهم. احتدم النقاش فوصل في بعض الأحيان إلى مرحلة التصادم

والشجار فيما بينهم. كانوا يتصرفون، وكأن فانينا لم تكن موجودة بينهم، أو أنها كائن مجهولٌ بالنسبة لهم، مجرد مفهوم، أو شبح بلا روح.

ورغم أن رأس فانينا كاد ينفجر، إلا أنها ظلت تحاول فهم ما يقوله هؤلاء الرهبان المحكّمون. ولكن هيهات لها أن تفهم إذ لم تكن الكلمات التي تخرج من أفواههم سوى لغو بلا معنى.

نقاط الماء كانت لما تزل تسقط في ذلك الإناء المعدني، النقطة تطارد النقطة التي سبقتها، والدقائق الأكثر صعوبة كانت هي الأخرى تتلاحق !.

اعتقدت الراهبة الشابة فانينا أن بإمكانها أن تُسرِّع من الوصول إلى النهاية، خاصة وأنها جاءت إلى ريغيا بمحض إرادتها، ولكنها لم تفلح سوى في نقطة واحدة وهي أنها قد أصبحت بطلة هذه المسرحية الدرامية. إنها لا تشك أبداً أن هذا العذاب سيكون طويلاً، ولكنه لن يستمر أبداً إلى ما بعد طلوع الفجر!، لأن كلافينوس لا يريدها أن تكون جلسة طويلة كي لا يترك مجالاً لردات فعل كل من السيناتور فيندكس، ورئيسة الراهبات، والجماهير إذ لا يستطيع أن يضمن تأييد هؤلاء جميعاً!. وكانت فانينا حريصة على هذه الثواني المفجعة التي سوف تبعدها عن هذا الراهب العجوز إلى الأبد.

ورغم أنها تظاهرت بعدم الاهتمام، إلا أنها مُلِئت غيظاً ، ولكثرة ما كانت متعبة، راحت تضغط على أسنانها ثم تمد يدها إلى أسفل قفطانها وتغرز أظافرها في جسمها، المرتعش بكليته، وهكذا كانت أشبه ما يكون بقوس مشدود.

كانت تنقل نظرها وعيناها نصف مغمضتين من وجه إلى آخر، ورأت كيف يتصرف هؤلاء الرجال وكأنهم لا يرون عيوبهم. إنها تعرفهم، إذ سبق أن التقتهم كثيراً في الحفلات العامة، التي شاركت بها فيما مضى. كان أكثر هؤلاء جدية و غضباً الآن هم من كانوا يتوددون إليها بكل السبل، نفاقاً منذ شهر، أما الآن فإنهم يقومون بهذا الترتيب وهم يريدون أن يسحقوها. كانت رؤوسهم المغطاة بهذه الطاقيات المدببة والتي تصل أحياناً إلى ذقونهم، تبدو في ظل ذلك الجو، وأسفل تلك القناديل ذات

الشعلة الخافتة، أشبه ما تكون برؤوس آلهة تضع على وجوهها أقنعة الغدر والخيانة!.

جميعهم كانوا على هذه الشاكلة ماعدا اثنان وقفا صراحة مع فانينا. أحدهما عجوز يدعى فابيوس. وفابيوس هذا كان صديقاً لجد الفتاة الشابة والآخر، يدعى أكفيلوس وهذا بدوره كان فيما مضى رفيق سلاح قديم لوالدها، وقد سبق لوالدها أن تشاجر معه عندما كانا في ألمانيا!.

إنهما مخلصان ويمكن الاعتماد عليهما، لكن فانينا كانت على وشك أن تفقد الأمل، لأن هذين الاثنين لم يتوقفا عن الكلام أبداً، كانت تفضل لو أنهما عبرا لها عن حبهما وتعاطفهما معها ولو بنظرة أو ابتسامة، أو حتى كلمة صغيرة. وأخيراً صاحت قائلة بعد أن نفد صبرها:

- ما فائدة هذه الخطب. بلا شك أنتم تعرفون الغاية التي استدعاني من أجلها كلافينوس للمثول أمامكم؟ كان والدي قد احتقر قريبه دوميتيوس ذي اللحية البرونزية، وفوق ذلك هو، يتهمني أننيالمسؤولة عن مقتل ابنه دايلوكوس!.

وما أن نطقت الفتاة الشابة بهذه الكلمات حتى تراجعت فوراً، إذ هجم عليها أحد الرهبان، وهو ذو طاقية مدببة، وأذنين كالمغرفة أما يداه ورجلاه فكانتا لا تتناسبان مع جسمه، إنه روبوليوس وقد سمي باسم أحد عشاق روما "روبوليوس القرد". وقبل أن يُستدعى روبوليوس هذا من قبل كلافينوس إلى روما، كان صديقاً حميماً لذي اللحية البرونزية، عندما كان يعيش في المنفى في غالة .

راح روبوليوس هذا يلعلع :

- هنا، لا يحق لك ان تتكلمي إلاّ بعد استجوابك!.

فردت فانينا:

- وهل تطلب مني أن أسكت ولا أدافع عن نفسي؟ أنا لست مذنبة ولم أرتكب أي جرم!.

أما العجوز كلافينوس فقد صب جام غضبه عندما سمع اسم دايلوكوس فقال وهو ينظر بعينيه الغائرتين إلى الفتاة الشابة:

- من المؤكد أنك لست مذنبة أو مجرمة!. ولكنني على ثقة أنك سوف تتمنين أن تنشق الأرض وتبتلعك على ألا أذكر الآن اسم أحدهم.

صمتت فانينا ولم تحر جواباً، لكن كلافينوس أصر على سؤاله:

- هل تريدين أن أذكر هذا الاسم يا فانينا؟

هذا يعني أن الراهب العجوز يريد القبض على كايوس فيندكس رغم اعتراض الإمبراطور على ذلك!. استدار جميع الرهبان نحو فانينا وبدؤوا ينظرون إليها باستغراب وقد أصبح وجهها كالجمر، حتى أن فابيوس وأكفيلوس قطبا حواجبهما أيضاً.

فتابع كلافينوس كلامه:

- أنت تحاولين إظهار مكانتك المرموقة بإصرارك على الصمت، ولكن عليك أن تدركي أنك لا شيء أمام عدالة روما، نعم أنت صفر، ولا قيمة لك إذا ما قُورنتِ بالمواطنين الشرفاء الذين يخافون غضب الآلهة، لذا فأنت لن تستطيعين أبداً الوقوف حائلاً أمام هؤلاء الذين يريدون أن يطلقوا أحكامهم ضدك!.

وعندما وصل العجوز إلى هذه النقطة حاول أن يشد حنكه بعض الشيء وأن يصر على الكلمات لكي تفهم الناس أكثر. فقال:

- مهما يكن الأمر فإن الناس العقلاء يحنون هاماتهم أمام تلك العلامات التي أثارت غضب الآلهة، لذا فأنت تستحقين الجزاء الذي ينتظرك مئة مرة، ومهما كان الشخص الذي يؤمن لك الحماية!.

عندها تدخل أكفيلوس:

- هل تقصدون أنكم قد اتخذتم قرار كم يا كلافينوس المحترم؟

انبرى بلافيتيوس المستشار القانوني لمجلس الرهبان وقاطع أكفيلوس بقوة وأضاف:

- طبعاً. ما دام كلافينوس المحترم قد اقتنع أن فانينا مذنبة، فهذا يعني أن القرار يعتبر بحكم المتخذ!.

كان وجه هذا الراهب أصفر كالمومياء، وبدا عليه انه شامت بالفتاة الشابة وهي في هذا الموقف فتابع قائلاً:

- أصلاً، اتخاذ القرار يعود للسيد كلافينوس المحترم، و وجودنا نحن هنا يقتصر على الإجابة فقط على أسئلته، ولكي ننقل له أفكارنا، إذا تلطف وسألنا عنها!.

فرد فابيوس وقد نفد صبره:

- إن كلافينوس المحترم مهتم جداً بأفكارك. ولكن منذ متى وقبر فانينا قد أصبح جاهزاً في مقبرة الجناة؟ لقد حكمتم على الفتاة المسكينة بالموت دون أن يسمح لها بالدفاع عن نفسها!.

أدركت فانينا فوراً، أنها لم تخطئ في فهم ما كانت تقوله أراكسيا لرئيسة الراهبات "لقد سرعوا في عملهم، لقد أخذوا هذا اليوم السرير إلى هناك." إذن هذا ما كانوا يقصدونه. عندها شعرت الفتاة الشابة للمرة الأولى في حياتها أنها قد أصبحت على شفير الهاوية، وأنها أصبحت قريبة جداً من الموت، ولم يغد يفصلها عنه سوى كلمة واحدة. فيما سبق كان الموت عندها هو مجرد كلمة وحسب، أما الآن فإنها تراه حقيقة ماثلة أمامها، وهو عبارة عن حفرة سوف تضمها، وسرير لا أكثر!.

ثم قال بلافيتيوس وهو يعوي كالجراء:

- من قال أن حكم الموت قد صدر بحق فانينا؟ إن راهبات فستا اللواتي يحنثن بيمين البكارة لا يُقتلن!.

فتدخل أكفيلوس قائلاً:

- سوف نرى فيما إذا كنت ستدفنين وأنت حية أم لا.

بعد أن سمع كلافينوس كلام هذا القائد العسكري القديم، نظر إليه بدقة وبدأ يتكلم معه كلاماً معسولاً مليئاً بالغش والخداع.

- هل تدرك معنى هذا الهذيان الذي يخرج من فمك يا أكفيلوس المحترم؟

لن نحكم على فانينا بالموت إذا اتخذ قرار بتجريمها، بل سوف نحاسبها على أنها تسببت في غضب آلهة الضوء والنهار، سوف نضعها في مستودع مخصص لآلهة الموت والظلام ونغلق عليها. أرأيت يا أكفيلوس أن هناك فارقاً بسيطاً بين كلامك وكلامي.

ثم انبرى أحد الأصوات فجأة:

- أنت الذي تريد أن تحكم عليها، وليس نحن، ومهما كان رأي بلافيتيوس، فأنت تتصرف وتتحكم في أمور لم نعترف لك بها!.

تأفف جميع الموجودين وهبوا واقفين على أقدامهم وهم ينظرون إلى هذا المتكلم، لقد كان أكثر الرهبان شباباً، وأصغرهم سناً، وكانت هي المرة الأولى التي يتدخل فيها بهذا النقاش منذ بدايته، كان شاباً في الثامنة عشر أو العشرين من عمره، طويل القامة، جبهته عريضة وبارزة، وعيناه غائرتان، وبنيته ضعيفة.

ردّ عليه كلافينوس وكأنه يهمس:

- هل يجب أن نذكرك يا سيد كالي غولا العزيز أن سلطة رئيس الرهبان على راهبات فستا، مثل سلطة رب العائلة الذي يملك كل الصلاحيات في أسرته!.

صاح الشاب والشرر يتطاير من عينيه الزرقاوين:

- أنت لست رئيس الرهبان، إنه الإمبراطور.

كان كلافينوس يحاول جاهداً التحكم في أعصابه.

- أنت الوحيد الذي تريد أن تشير أن جدك المقدس القيصر تيبر قد أخطأ في تعييني ممثلاً له يا سيد كالي غولا العزيز، ولا أعتقد أن الإمبراطور سوف يكون مسروراً إذا سمع كلامك هذا.

ثم تكلم بلافيتيوس مؤيداً كلام كلافينوس فقال:

- لو أن أحداً غيرك قال ما قلت لاعتبر ذلك إهانة بحق المواطن، وإن الجلاد، كثيراً ما قضى على بعض الأشخاص ممن كانت جرائمهم أقل بكثير من هذه الجريمة!

عندها تكلم روبيليوس بعد أن ضغط على أسنانه وهو يلوح بقبضته وقال:

- حتى الذين ينتسبون لعائلة الإمبراطور لن يفلتوا من عقاب تيبر.

رد الشاب بغضب:

- بإمكان الجلاد أن يتخذ قراراً باسم جدي ويقضي على بعض الناس، ولكن جدي أصلاً لا يمكن أن يوافق على مثل هذه القرارات.

بعد ذلك ساد الصمت لبضع ثوان لم يكن يسمع خلالها سوى إيقاع نقاط الماء المخيف الذي كان يصدر عن ساعة الماء، وصوت ريش أقلام الكتَّاب الثلاثة الذين يدونون هذه المناقشات.

كان الجو خانقاً في الصالة الكبيرة هذه، ذات الجدران الحمراء، فالدخان الكثيف الأسود المتصاعد من مصابيح الزيت عمّ القاعة ووحّد الرؤوس إذ شكّل غطاءً أسودَ سميكاً. وكانت فانينا، بين الحين والآخر تنظر إلى كالي غولا، وتذكرت بسرعة:

أن كالي غولا هو من أشهر الشباب في عائلة الإمبراطور، كما أنه ابن واحد من أشهر جنرالات روما واسمه يوليوس قيصر جرمانيكوس، وقد تبناه تيبر، وكان من المنتظر أن يجلس على عرش الإمبراطورية في أحد الأيام، لكنه مات فجأة منذ عشر سنوات، وقد شاع بين الناس أنه مات مسموماً!.

استحوذ كالي غولا على إعجاب فانينا. وكأنه قد ورث عن أبيه الحب الذي كان يكنه له أفراد الشعب والجيش حتى العبادة، ولكنها كانت تتمنى أن لا يكون ابن حَمِي ذي اللحية البرونزية زوج أغربين الشابة.

ما السبب الذي جعل كالي غولا يهب فجأة للدفاع عن فانينا؟ ذلك هو السؤال الأهم. علا صوت كلافينوس العجوز الذي كانت تشع من عينيه نظرات الحقد التي لم تغرب عن ناظِرَيْ فانينا في الوقت الذي كان هذا المرائي الكبير يحاول خداع الآخرين.

- يا كالي غولا المحترم: أنا أجل وأحترم النسب الذي تنتمي أنت إليه، ولم يغرب عن بالي أبداً أنني يجب أن أخبرك فوراً عن الحكم الذي اتخذته بدون أن أسألك عن رأيك. لقد كانت هناك جريمة وصلت رائحتها حتى عنان السماء. وقد التجأ الناس إلينا لكي نُطهر هذا العمل، لذلك كان لزاماً علينا أن ندقق بسرعة في الجريمة المرتكبة، وأن نتخذ القرار المناسب في قضية فانينا. وبما أنني لا أريد أن تذهب فانينا إلى قبرها ضحية للحقد الذي أكنه لها لذلك يجب أن تحاكم وفق الأدلة المتوفرة لدينا بشكل قانوني، وباسم القيصر تيبر المقدس. علماً أن الأدلة المتوفرة بين أيدينا تثبت أنها تستحق أقصى العقوبات جزاءً عن الجرائم التي ارتكبتها.

وبعد أن انتهى العجوز من هذه الكلمة الطويلة التفت نحو الباب وقال:

- ليدخل الشاهد الأول!



سمعت فانينا صوت الباب الثقيل يُفتح من خلفها، ودخلت اثنتان من العبيد الزنوج وهما تجران خلفهما جسداً لا حراك فيه.

فصرخت فانينا والدهشة تسيطر عليها:

- كاتيا!

كانت الفتاة الألمانية الشابة قد تمددت عند أقدام كالي غولا كالسبيكة وعيناها مغمضتان وقد تدلت على وجهها بعض خصل شعرها الذي تبلل بالعرق، وامتلأ وجهها بالكدمات والجروح، وتمزقت ثيابها. وراحت الفتاة المسكينة تعوم وسط بركة دم، تدفق من أسفل بطنها، واخترق ثيابها وانتشر ببطء فوق أرض الصالة.

جثت فانينا على ركبتيها إلى جانب هذه الأمة السيئة الحظ، وصاحت ثانية وهي تشهق من البكاء، ثم ضمت الفتاة إلى صدرها. وتمتمت ببعض الكلمات:

- ماذا فعلوا بك؟

التفت كالي غولا إلى مكانه الذي تركه قبل قليل وقال:

- وماذا عساهم أن يفعلوا! لقد وضعوها فوق الخازوق لكي تعترف، وقد أعطتهم الإجابة التي يريدونها.

في هذه الأثناء فتحت الفتاة الألمانية عينيها قليلاً، ثم فتحت شفتيها اللتين لم يعد فيهما دم وتكلمت بصعوبة بالغة وكانت تقف عند كل كلمة:

خِـ...خِـ...خِنتك. يا سَـ...سَـ...سيدتي ،إنني مجرد أمة ليس إلا.. يا سيدتي. مهما حصل فأنا أمة. لقد تكلمت كما يريدون.

ثم أصبح كلام كاتيا يشبه حشرجة الموت.

- لقد خـ...خـ...خنتك سيدتي. لقد خـ...خـ...خنتك.

دفنت فانينا وجهها في صدر هذه الأمة، وسمعت ضربات قلبها المضطربة، التي كانت تنعكس على جسدها كضربات المطارق، في حين راحت أنفاس المسكينة، تتسارع أكثر فأكثر.

في هذه الأثناء توجه أكفيلوسنحو كلافينوس وسأله.

- أهذا هو الشاهد الذي طلبته؟

ثم نظر كالي غولا إلى العجوز وأكمل الكلام وقال:

- وأنت أيضاً لو وضعوك مثل هذه الفتاة فوق الخازوق، أما كنت تشهد أن العربة التي يركبها أبوللو ليست له وإنما سرقها !.

فأجاب كلافينوس.

- أنا أقبل اعتراضك يا كالي غولا المحترم. ثم خاطب الذين كانوا يقفون عند الباب قائلاً:

ليدخل الشهود الآخرون!.

فتح الباب من جديد، فسُمعت أصوات وقع أقدام تقترب ثم سمع صوت امرأة تتكلم وكأنها تقف خلف ستارة من الضباب:

إنها قليلة الشرف. لقد قبضت عليها، وهي متلبسة بالزنى مع ذلك الشاب.

ثم جاءت امرأة أخرى وقالت:

- لقد كانا يتقابلان عند نبع كامن أيضاً.

ثم جاءت امرأة ثالثة وأضافت قائلة:

- أيها الرهبان المحترمون، لقد كان الشباب يجرون خلفها في الحفلات العامة، وهي لم تكد تكمل الثانية عشرة من عمرها بعد.

ثم سمع صوت يقول:

- لقد لطخت سمعة بيت فستا.

تصدى كالي غولا لكلافينوس قائلاً:

- إذا كنت تريد أن تأتي بشهود لكي يشهدوا على إحدى راهبات فستا، فلماذا تجلب أمثال هؤلاء السفلة، لكي يتكلموا كما تريد أنت؟

لم تسمع فانينا جواب كلافينوس، كان كل اهتمامها منصباً على كاتيا، التي أخذت ضربات قلبها غير المنتظمة تتباطأ أكثر، ثم أعقب صمت طويل إحدى ضربات قلبها، ثم خفق القلب المنهك بعد ذلك خفقتين سريعتين، وخيم من بعدها الصمت.

رفعت الراهبة الشابة رأسها من صدر هذه الأمة ومالت نحو وجهها. كانت كاتيا لا تزال على قيد الحياة حتى هذه اللحظة وقد ابيضت شفتاها، وبدأ جسمها ينتفض

بشدة. ثم تشنجت تقاطيع وجهها وأخذ بؤبؤا عينيها يتحولان نحو اليمين، ونحو الشمال من خلال جفونها الزرقاء.

كانت نظرات زائغة لا معنى لها، لأنها لم تكن ترى شيئاً، ثم ركزت نظرها على فانينا، ولفظت بصعوبة بعض الكلمات:

- فيدريكس. فيدريكس. يا سيدتي الصغيرة، لن تنسيه أليس كذلك؟

بعد ذلك مد أحدهم يده وأمسك فانينا من ذراعيها، وأبعدها عن كاتيا بقوة. لقد كانت الفتاة تصارع الموت، فسقط رأسها المترنح إلى الخلف وارتطم بالأرض.

كان بلافيتيوس المستشار القانوني للرهبان هو من أمسك فانينا من ذراعيها وقد قال لها:

ـ لا بد أنك تعلمين أن طريقتنا تمنع لمس الجسد بالأيدي، وعلى كل حال فقد لوثت نفسك بما فيه الكفاية.

سحبت فانينا يديها منه، وبيدها الملوثة بالدم، صفعته صفعة قوية على وجهه جاءت مثل الصوت.

بعدها وقفت الفتاة الشابة جامدة في مكانها وكأنها تعيش حلماً، وكعادتها دائماً عندما تشرد، لا تعرف بماذا تفكر، ولا بماذا تشعر.

وفجأة شاهدت مليكسو تقف أمامها.

ها قد وجدت فانينا أخيراً وجهاً تعرفه، إنها لن تتردد في أن تتشبث بهذا المخلوق الذي تثق به، إنها تعرفها جيداً، كانت تقف بين هؤلاء الذين يلبسون ثياباً بيضاء وأرجوانية ولا يتحركون، أما هي (مليكسو) فكانت تنظر إلى سيدتها وكأنها صديق تريد أن تسر له ببعض الأمور.

صرخت فانينا:

- آه يا عزيزتي مليكسو، ثم تحركت نحو الفتاة الإفريقية وهي تريد أن تحضنها، لكن مليكسو رفضت ذلك وأبعدت أصابع اليد التي امتدت إليها لكي تحضنها الأمر الذي فاجأ فانينا. فانتبهت إلى أن يديها ملطختان بالدم وهو ما قد يكون دفع مليكسو للابتعاد عنها، ثم رأت الحزام الأخضر الذي التفت به مليكسو، ذي اللون اللافت للنظر وكأنه لون الزمرد وقالت:

- عفواً: لقد كدت أن ألوث ثيابك! ثم اختنق صوتها، وأشارت إلى جسد كاتيا الممدد على الأرض بلا حراك وقالت وهي تبكي:

- وأنتِ ألم يعذبوك أيضاً؟ لم تُجِرِ الفتاة الإفريقية جواباً، بل اكتفت بالنظر بصمت إلى رفيقة طفولتها ولم يبد عليها أي انزعاج من أي شيء، فقد كانت تستطيع أن تتحكم بمشاعرها كما تريد، فهي فتاة ذات شخصية قوية، بالإضافة إلى أن تلك الثياب الجميلة، وذلك الهدوء المسيطر عليها، كانا يضفيان على شخصيتها نوعاً من الأبهة.

لم تكن فانينا قد رأتها بمثل هذه الأناقة من قبل، ولم يسبق لها أن رأت شعرها مرتباً بهذا الاعتناء، فقالت لها الراهبة الشابة:

- الشكر للآلهة. لقد حفظتك!

ثم أضافت:

عليك أن تخرجي من هنا فوراً، ولا تحاولي أن تدافعي عني، لكي لا يعذبوك مثلها حتى الموت إن لم تتهميني!.

فرفعت الفتاة الإفريقية رأسها وأشاحت بنظرها عن كاتيا، ثم بدأت تعابير وجهها تتغير!. بدت ضحكة غريبة تلمع من خلال عينيها الخضراوين البارزتين، واللتين كانت تغطيهما رموش سوداء كثيفة، ثم كزت على أسنانها ونظرت إلى فانينا وهمست قائلة:

- هل تذكرين تلك الرسالة يا سيدتي الصغيرة؟ أنت تتذكرين ولا شك الرسالة التي جلبتها لك بعد الظهر، ولعلك صدّقت أن من كتبها هو عزيزك كايوس فيندكس!. أبداً ليس هو من كتب هذه الرسالة بل أنا.

نزل اعتراف مليكسو على رأس فانينا كالصاعقة، وبدون أن تنتظر مليكسو ردود فعلها، التفتت إلى الرهبان وقالت بأعلى صوتها، وهي تشير إلى الراهبة الشابة:

- أيها الرهبان المبجلون: كانت تجبرني على أن أكون مراسلة بينها وبين حبيبها، وقد جلبت لها اليوم بعد الظهر رسالة منه، وقد جهزت نفسها فوراً للذهاب للقائه.



تلك، كانت الصدمة التي قلبت كيان فانينا وشوشت أفكارها فهي لم تستطع أن تجد أي تفسير لخيانة هذه الفتاة الأفريقية، كما أنها لم تجد أي معنى لهذه الصرخة التي أطلقها الرهبان بعد كلامها الخطير! على أية حال ليس هذا وقت التفكير، المهم الآن، هو أن لا تأتي على ذكر كايوس فيندكس، لأن أي ضربة يمكن أن توجه له، سوف تعد ضربة موجهة لفانينا، وستكون أكثر إيلاماً ! لذلك يجب أن لا تدخله في مثل هذه الأمور. فهي تدرك أنها ستموت، ولكنها لا تريد لكايوس فيندكس أن يموت أيضاً.

كانت تتآكل من الداخل بعد اعتراف مليكسو قبل قليل أن الرسالة لم يكتبها الشاب، ولأنها قد أقسمت أيماناً كاذبة باسم الآلهة.

ولكن ماذا يهم؟ فانينا كانت مستعدة دوماً لأن تقسم أيماناً كاذبة في سبيل إنقاذ كايوس فيندكس، حتى لو كان هو من كتب الرسالة، ولا يهمها أنواع التعذيب التي يمكن أن تتعرض لها خلف هذا الجدار، ولا حتى العذاب الذي يعده لها إله جهنم، المهم هو حياة فيندكس. لكن كيف يمكن لهذه الراهبة الشابة أن تفصح عن هذه الأفكار أمام هذا الجمع من الرهبان، ثم هل من الممكن أن تأتي على ذكر حبيبهاكايوس بدون أن تسبب له أي أذى؟

وعلى الأخص وأن كالي غولا كان ينظر إليها نظرات غريبة وهو يستفسر قائلاً:

- ما اسم هذا العاشق؟

نظرت فانينا إلى مليكسو، وقد فقدت الأمل، وشعرت أن اسم كايوس فيندكس قد أصبح على شفتيها.

تدخل كلافينوس قائلاً:

- لقد أمر الإمبراطور العظيم القيصر تيبر بألاّ يُعاقب ذلك الشاب. هذا كل ما أستطيع قوله في هذا الخصوص: لقد كانت فانينا تركض اليوم بعد الظهر مثل نساء الشوارع، لكي تعترض القافلة التي كانت ترافق هذا الشاب إلى السجن لكي ينفذ فيه حكم الإعدام، والأنكى من ذلك أنها كانت تصر كثيراً من أجل العفو عنه، حتى لو تطلب هذا الأمر إهانة الآلهة وحلف اليمين.

وعندما وصل العجوز إلى هذه النقطة هز رأسه وتابع قائلاً:

- أعتقد أنكم قد فهمتم من هو المقصود؟ أما أنا فلا أملك الصلاحية لكي أوضح أكثر من ذلك! ثم ختم كلافينوس الحاقد كلامه:

- أيها الرهبان المبجّلون: من الصعب على أي مواطن شريف ومؤمن مثلنا، أن يصدق أن مثل هذه الجرائم يمكن أن ترتكب في مدينتنا وعلى مرأى من الجميع، ولكن مهما كنا نشعر بالقرف من ذكر هذه الأمور، فنحن ملزمون نقل الحقيقة بوضوح، علماً أن هناك ما يقارب العشرين من الشهود الذين يمكن الاعتماد عليهم، سوف يدلون بشهادتهم على حقيقة هذا العشق، ومن بين هؤلاء أحد المرافقين التابعين لي، والذي شارك بأحداث هذه القصة الرذيلة مع هذه الفتاة الشابة.



كانت هذه التوضيحات التي أطلقها كلافينوس قد أغضبت كالي غولي كثيراً، فبدّل وضع ساقيهفما كانت سفلى صارت عليا. في هذه الأثناء راح الراهب أكفيلوس

صديق والد فانينا يصرخ، و بدوره أخذ فابيوس الذي يؤيد فانينا يجلجل بصوته عالياً كالرعد، أما روبيليوس فكان يتكلم بأشياء غير مفهومة، وهو يناقش إحدى النقاط مع المستشار القانوني بلافيتيوس الذي كانت طاقيته ملطخة بالدماء، لقد كانت الكلمات الواخزة والحساسة تصيب هدفها تماماً.

بدأ الفرح يدب بعض الشيء في قلب فانينا عندما شعرت أن المخاطر التي أمام كايوس فيندكس لم تعد موجودة، وكانت لا تزال تقف إلى جانب جسد كاتيا وهي تنظر إلى مليكسو التي ظلت هي الأخرى تحدق بها.

وأخيراً سألت راهبة فستا:

- لماذا؟ لماذا؟ لماذا فعلت هذا يامليكسو؟ لم أعاملك يوماً معاملة سيئة!.

فردت الفتاة الأفريقية بصوت منخفض وهي تتلعثم:

- لكي أبرهن لك أن العبيد أيضاً قادرون على فعل كل شيء، بمجرد أن ينظر أحدهم إليهم، ولو بطرف عينيه يا سيدتي الصغيرة. أنت تقولين إنك كنت تعاملينني معاملة حسنة، أليس كذلك؟، وأنك لم تضربينني أبداً، وإن والدك قد فتح أمامي آفاق التعليم . هل هذا هو كل شيء؟ ولكنك لم تسأليني ولا مرة عن سبب أحزاني، ربما كنت تعتبرينني من مستوى منحط وأنت إنسانة من مستوى عال. لقد كان لديك كل شيء، وكنت جميلة جداً، ومحبوبة جداً، أما الآن فأنت لا شيء.

فردت عليها فانينا:

- إنك لم تشتك أبداً من وضعك، ولم يسبق لك أن صارحتيني بأي شيء.

ثم سكتت ولم تكمل الكلام، لأنها لم تكن تعرف ما ستقول، ولأنها لم تستوعب الكلام الذي سمعته. لقد خانتها مليكسو، ولقد فوجئت الراهبة بما قالته مليكسو، ولم تكن تتصور أبداً أنها يمكن أن تتكلم بمثل ما تكلمت به! كان أكثر ما أزعج فانينا هو أن مليكسو قد أهانتها وحرَّضت عليها، وقد تصرفت بعداء شأنها في ذلك شأن

باقي العبيد الغرباء. في الوقت الذي كانت فيه راضية عن التضحيات التي بُذلت من أجل إنقاذ كاتيا من هذه النهاية المؤلمة.

نظرت فانينا مشدوهة إلى الفتاة الأفريقية وكأنها تراها للمرة الأولى. حدّقت طويلاً في وجهها محاولة كشف الأسرار التي تخفيها. فهي تعرف أنها إنسانة طيبة، ولكن لماذا بدت لها وكأنها إنسانة جديدة تتعرف عليها لأول مرة؟

في هذه الأثناء سمعت صوتاً يشبه الصوت الذي يصدر عن ثوب قماش عندما يسحب على الأرض!. لقدعاد العبيد ثانية ووقفوا إلى جانب فانينا وبدأوا يجرون جسد كاتيا من رجليها ويبتعدون بها عن المكان.

كان ذراعا هذه الأمة العاثرة الحظ قد تكشفتا أيضاً، وكانتا تنزّان ماءً كقطرات الندى وهم يجرونها إلى الخلف، فظهر وجهها، وبدا المنظر مؤلماً ومقرفاً في الوقت نفسه.

ظلت عينا فانينا متسمرتين وهي تنظر إلى كاتيا الميتة وإلى عينيها اللتين جمدتا في محجريهما حتى أخرجوها من الباب.



كانت مليكسو تصر على الإساءة لرفيقتها التي شاركتها حياتها من أولها إلى آخرها، فقالت لفانينا وهي تغادر المكان:

- كنت أكرهها أيضاً! لأنها كانت تحبك كثيراً.

ثم توقفت قليلاً وأضافت:

- همونيا كانت تحبك جداً!.

همونيا! إن فانينا لم تتذكر مربيتها منذ وقت طويل، وتخيلت أنه قد مضى عليها دهر دون أن تراها! مع أن همونيا فعلت كل ما في وسعها لكي تنقذ فانينا من الفخ الذي نصبه لها كل من كلافينوس وذي اللحية البرونزية، وجرت خلفها في زقاق نوفا ساعات طويلة. صرخت فانينا وهي مضطربة:

- همونيا؟ أين همونيا؟

وبصوت ناعم يكاد يُنشف دم الفتاة الشابة، قالت مليكسو:

- وهمونيا أيضاً لن تشاهديها بعد الآن يا سيدتي الصغيرة.

صاحت راهبة فستا:

- ماتت؟!

- ليس بعد. ليس بعد يا سيدتي الصغيرة.

بعد ذلك ابتعدت الفتاة الأفريقية وهي تهز بردفيها بعد أن سارت حول آثار دماء كاتيا.

القسم العشرون

بدا جو الصالة ثقيلاً، فالدخان المنبعث من قناديل الزيت الكثيرة غطى الوجوه وسد الأنوف.

وكانت فانينا لا تفتأ تحرك قدميها داخل حذائها، لكي تتحرك شرائط الحذاء التي تشد على قدميها وتسبب تعرقهما وتمد يديها إلى غطاء رأسها فلاحظت وجود بقع كبيرة من الدم بلون بني ، على الرغم من أن الخدم كانوا قد حاولوا فرك هذه البقع بالكلس لكي لا تراها.

غطاءُ رأسها انحسر ونزل على كتفيها، وتدلت أطرافه المفتوحة على وجهها بشكل لافت، كما حُلّت الشرائط التي كانت تربط بها ضفائرها، وبدت وكأنها مصنوعة من قماش القنب القديم لكثرة الاستعمال.

ومع أن النقاش ظل يتتابع، فقد استرخى كلافينوس على الوسائد الحريرية المطرزة، وعيناه نصف مغمضتين، وهو يتفحص الفتاة الشابة بنظراته الغريبة المملوءة بالخسة والنذالة.

بدت علامات السرور واضحة على وجه هذا الرجل العجوز، وبلا شك كان يشعر بسعادة التشفي الكبيرة وهو يرى الوقت يمر بسرعة! كان مطمئناً للمستند القانوني الذي أعلنه بلافيتيوس، والذي حاول خصومه تفنيده كلمة، كلمة، وهو ما جعله يترك لهم المجال لكي يبدوا آراءهم.

دخل أحد العبيد إلى الصالة وخرج مرتين، وكان يجلب معه في كل مرة رسالة إلى كلافينوس مكتوبة على لوح من شمع العسل، ولم يستطع الراهب العجوز إخفاء سعادته وهو يقرأ ما كتب على هذه الألواح. وكان يعيد الرسالة إلى العبد بعد أن يقوم بحك بعض العبارات بقلم مخصص لهذه الغاية، ويجري التصحيح اللازم، ثم يشير على العبد لكي يمضي بسرعة.

وأخيراً قال:

- يجب أن ننهي هذا العمل، فقد أوشك الفجر على الطلوع. دعونا ندخل في صلب الموضوع. وبحركة تنم عن قلة الصبر اعترض أكفيلوس الذي يؤيد فانينا:

- نحن لا نلعب يا كلافينوس المحترم.

ثم تكلم الراهب أوفبليوس فقال:

- نحن نفكر بطلبك الذي أردت فيه إغفال شرط مثول شريك فانينا بالجريمة أمامنا، لكي نسمع شهادته ضمن الشهادات التي سوف نسمعها.

فأضاف فابيوس قائلاً:

- إن أوفليوس المحترم قد قام بتلخيص جميع المناقشات التي دارت حول الموضوع، وأنا أشاطره جميع أفكاره، فإذا كنا لن نستمع من الشهود سوى لهؤلاء العبيد المساكين الذين وضعتهم كجواسيس لك على راهبات فستا، والذين قد عرّضتهم للتعذيب لكي يعترفوا لك بما تريد؛ وإذا كنت لا تريد لشريك فانينا ذات الحظ السيئ، في الجريمة أن يمثل أمامنا، فأنا أرى أن اجتماعنا هذا لم يعد له أي قيمة، ومن الأفضل أن نرسل هؤلاء الخدم المحترمين إلى فستا لكي يقوموا بأعمالهم المقدسة، بعد الاعتذار منهم، وأن نذهب نحن إلى بيوتنا لكي ننام ونستريح.

نهض كلافينوس بصعوبة من على كرسيه، ونظر باستهزاء إلى هذا الخصم وقال:

- إن اقتراحك لا يمكن قبوله أبداً يا عزيزي فابيوس! وإذا كنت لم أقدم لكم شريك الجريمة الذي أمرنا تيبر بعدم ملاحقته، فهناك شريك آخر في هذه الجريمة، وهو بإمرتكم! فهذه الفتاة القليلة الحياء ليست من النوع الذي يكتفي بقصة واحدة.

بعد ذلك ،سُمع صوت الباب يفتح للمرة الثانية خلف فانينا، وكانت قد سمعت قبل ذلك وقع أقدام حائرة!. ثم سمعت بعد ذلك ضجة وصوت متقطع يردد أغنية لا شكل لها ولا معنى لها، وقبل أن تلتفت لترى ماذا يحصل، أمسكتها يدان من كتفيها، ثم سمعت أكفيلوس يقول لها:

- أستحلفك، باسم جميع الآلهة أن لا تنظري يا فانينا ، لا تنظري. فمثل هذه المناظر يجب أن لا تشاهديها أبداً!.

في هذه الأثناء وقف اثنان من أكبر الرهبان سناً، وكانا يجلسان في نهاية القاعة على جانبي كلافينوس، موجهان نظراتهما المقرفة نحو الباب. حيث ثمة أصوات مبهمة تسمع ومن بينها كلمات مكسرة ومبعثرة تشبه أغاني السكارى!.

انتفض كالي غولا، الذي كان يحافظ على صمته منذ اعترافات مليكسو، وضغط على أسنانه ورفع قبضته في الهواء وصرخ غاضباً:

- من المؤكد أنكم تريدون تحويل هذا المكان إلى مذبح يا كلافينوس!.

فرد العجوز بلا اكتراث وبصوت هادئ:

- لقد طلبوا مني شريك فانينا بالجريمة وها أنا قد جئت به، وقد اعترف لنا بجميع علاقاته، مع هذه المخلوقة القليلة الحياء، رغم أنه لم يمض على توقيفه سوى ساعات قليلة، فماذا تريد أكثر من ذلك يا كالي غولا المحترم؟

كانت فانينا تقف إلى جانب أكفيلوس، وقد غطت وجهها براحة كفيها، وشعرت أن القاعة قد بدأت تدور بها، ومُلئت أذناها بطنين مزعج، ولم تعد تحتمل، فرغبت في الصراخ والاعتراض، ولكن كانت في حيرة من أمرها، فكيف يمكنها الدفاع عن نفسها بدون أن تمس كايوس فيندكس بأي أذىً؟ إن هذا لا يمكن أبداً.

ثم تطرق الشك إلى نفسها، وبدأت تتساءل هل هي بريئة تماماً؟ وهل تستطيع أن تقسم ذلك اليمين المكتوب على قاعدة محراب الإلهة على شكل قانون تاريخي، وأن تدعي أن روحها نظيفة، وأنها قد حافظت على جسدها بدون أن يتدنس وأنها جديرة بخدمة فستا أُمّ المدينة، التي تلفت الأنظار وتخطف الأبصار كالشعلة؟، وأن تكون صافية براقة كالماء؟

ربما كان جسدها لم يتدنس، ولكن ماذا عن روحها؟ إن هذه الشابة لم تعد ملكاً للآلهة، إنها ملك لكايوس فيندكس!

بعد ذلك سمعت أحدهم يقول:

- هيا يا فيبيوس أعد علينا الاعترافات التي أدليت بها قبل قليل:

ثم سمعت صوت رجل يضحك ضحكات متقطعة ثم يتكلم وهو يلثغ:

- لقد ضاجعتها، وتبادلنا الحب من الصباح وحتى المساء. كان صدرها دافئاً، وعنقها أبيض مثل عنق الحمامة، وكانت تتثنى غنجاً ودلالاً وهي بين ذراعاي!. أنا عشيقها فيبيوس الذي أحبتني كأنني زوجها!

فيبيوس! هل كانت فانينا تعرف أحداً بهذا الاسم؟

لقد كانت على وشك أن تقسم يميناً أنها لا تعرف شخصاً بهذا الاسم، وكان يتحتم عليها أن تقسم هذا اليمين بصوت عالٍ لكي يسمعها الجميع.

ثم سمعت صوت أحدهم يقول:

- هيا يا فيبيوس قل لنا كل شيء!

تابع فيبيوس كلامه.

- لم نكن نجد فرصاً كثيرة لكي نلتقي، رغم أنني كنت أشتاق إليها كثيراً، وكنت كلما تخيلت جسمها الجميل اشتهيتها أكثر. إنني أحبها جداً. لقد كانت مربيتها همونيا

تعرف ذلك، وكانت هي التي تؤمن لي فرصة اللقاء مع فانينا الحبيبة، فكانت تقول لرئيسة الراهبات أنها ستذهب لزيارة أبيها وأمها، ثم تأتي إلي.

نهضت فانينا بصعوبة بالغة، وفتحت فمها وكان لسانها قد التصق في سقف حلقها. كان يجب أن تقول شيئاً، فرددت قائلة:

- إنه يكذب. إنه يكذب. أقسم أنه يكذب!

ثم سمعت أحدهم يقول:

- بعد كل هذا البحث الشاق لم تستطيعوا أن تجدوا سوى هذا المجذوب يا كلافينوس المحترم؟

لم تكن فانينا متأكدة من هذا المعترض، ولكن لا بد انه أكفيلوس! فقلب الراهب شفتيه وقال:

- لقد كان حتى مساء أمس في كامل قواه العقلية، ولا أدري إذا كان قد تعب بعض الشيء بسبب الاستجواب الذي تعرض له!.

اقترب كالي غولا خطوتين نحو كلافينوس، وهو يرتجف من قمة رأسه حتى أخمص قدميه وصرخ بأعلى صوته وبدون أن ينظر إلى أحد:

- أي استجواب هذا الذي تتحدث عنه؟ لقد تسببتم، أنتم، في فقدان عقله لكثرة ما عذبتموه، وأنا متأكد أنك أنت الذي أعطيت هذه الأوامر!.

- المهم، هو أن هذا الشاب قد اعترف بذنبه، وهذا هو كل ما طلبناه منه، وأنا سأطلب من الكتاب الذين يدونون محاضر هذه الجلسة أن يسجلوا اسمه، واعترافاته ضمن هذه المحاضرأجاب كلافينوس.

كان بلافيتيوس لا يتوانى عن النفاق أمام هذا الراهب العجوز، ممثل الإمبراطور فقال:

- حسناً: ولكن ما اسم هذا الشاب يا كلافينوس المحترم؟

- اسمه فيبيوس سترا!

رددت فانينا هذا الاسم في داخلها.

- فيبيوس سترا. فيبيوس سترا.

ثم أوضح كلافينوس قائلاً:

- إنه أجير الجزار!

ارتفعت همسات الاستغراب من قبل الموجودين.

ها: اسمه فيبيوس سترا! لقد تذكرته فانينا. كان فيبيوس سترا قد تصدى لذي اللحية البرونزية دوميتيوس، عندما كان واقفاً فوق المنبر!. وهو الشاب الجزار الذي صرخ في وجه ذي اللحية البرونزية وهو يدافع عن فانينا، وقال له:

- إنك تحاول أن تتحدى إحدى العائلات التي تفتخر أنها أهدت المدينة عدة راهبات. فهل يليق بك أيها السيناتور أن تقف ضد إحدى راهبات فستا وأن تقوم بحركاتك هذه التي تشبه حركات القردة، والتي تدعو للسخرية!

وهو نفسه الذي أشار بإصبعه إلى ذي اللحية البرونزية الذي كان يصرخ كالمسعور وقال لفانينا ساعتها:

- مُريني لكي أذبحه فوراً يا أيتها العذراء المحترمة.

نعم هو ذلك الشاب الطويل والعريض، القوي الذي امتلأت عيناه بالدموع عندما أبعده حرس البروتوريان عن الراهبة الشابة.

لقد كان فيبيوس سترا هذامتعاطفاً مع فانينا، وقد تصدى لكل من كلافينوس وذي اللحية البرونزية. لذلك قام الاثنان كلافينوس وذو اللحية البرونزية بتعقبه إلى أن قبضا عليه وانتقما منه بهذه الوحشية!

أشاحت الراهبة بنظرها عن أكفيلوس، فرأت اثنين من العبيد الكتبة، ممن كانوا يرتدون قمصاناً رمادية قصيرة، قد التفتوا إلى الوراء وانكبوا فوق كتلة ملقاة على الأرض، جثة إنسان ألقي بلا حراك وأُكِبّ وجهه على الأرض!

ثم زمجر روبيليوس قائلاً:

- هل ترونه؟ هل تعرفونه؟

فرد بلافيتيوس قائلاً:

- إن كلامه هذا يعتبر اعترافاً!

عندها هب كالي غولا، ووقف أمام الراهبة الشابة وردد قائلاً:

- هذا غير صحيح. غير صحيح. لا يمكن أن يكون صحيحاً!

أما أكفيلوس الذي نفد صبره فلوح بقبضته وهو يرتجف وسار باتجاه أكفيلوس وروبليوس وبدأ يصرخ قائلاً:

- وأنا أيضاً لا أصدق، وعليكما أن تحمدا الآلهة وتشكراها، لأن ثيابكما هذه هي التي تمنعي من أن أخنقكما.

سارت فانينا بضع خطوات إلى الأمام، ثم انكبت فجأة فوق إحدى طاولات الكتبة، وبدأت تبحث في الأوراق المبعثرة، كانت عيناها جامدتين وحلقها يكاد يحترق، وتملكها شعور أنها ستنفجر!

لقد كثر عدد الأموات: كاتيا، فيبيوس، وربما كانت همونيا أيضاً هي تلك المرأة التي قتلها الجنود عند قاعدة المنبر! ثم هناك الإيراني كوريا هياراكس، ومربية ذي اللحية البرونزية، ودايلوكوس ابن كلافينوس.

إذن لقد حلت اللعنة على فانينا لأنها كانت السبب في القضاء على جميع هؤلاء الناس الذين كانوا يحبونها، وكانوا قريبين منها أيضاً. ثم ها هي العواصف تزداد هيجاناً وإذا ما استمرت الأمور على هذا النحو فمن يدري، فقد تكون السبب في

موت أبيها وأمها، وربما رئيسة الراهبات فبيديا! لأن كل مكان تذهب إليه تصيبه عدوى الاضطراب، لقد دمغتها الآلهة بدمغة النحس، فحتى كايوس فيندكس كان على وشك أن يموت بسببها، في الوقت الذي يجب أن يعيش، لأن فانينا كانت تشعر أن حياتها معلقة في روح هذا الشاب وحتى الرمق الأخير!.

هكذا هو الأمر إذن، فلينته كل شيء، وبسرعة، فذلك هو الأفضل.

فجأة شعرت فانينا بشيء بارد يسري في ذراعها، ارتعدت عندما رأت كلافينوس يقف إلى جانبها وقد بدت الحدبة التي في ظهره أكبر من ذي قبل، وبدا وجهه أكثر بشاعة وقرفاً. كان ينظر إليها وقد قطب حاجبيه.

بعد ذلك، دنا باقي الرهبان بعد أن سوّوا أرديتهم وقبعاتهم المدببة وجعلوها وسط الرأس تماماً.

لم ينته كل شيء بعد. فلازال هناك من يجادل ويناضل من أجل الراهبة الشابة وكأنما كانوا يحاولون أن يؤخروا النهاية، ولكن بلا فائدة. فقال كالي غولا :

- هذا هراء. إنه مجرد هراء!

فقال العجوز سيسينا متوسلاً :

- أرجو أن ننتهي من هذا الموضوع الآن يا كلافينوس!

ثم قال أنستيتيوس ناصحاً :

- دعوا النساء الخبيرات يقمن بإجراء الفحص اللازم، لكي نتأكد فيما إذا كانت لا تزال تليق بخدمة الإلهة!.

ثم قال فابيوس :

- تستطيعون أن تخضعوها أيضاً لاجتياز امتحان علمي في السحر!

أيد فولوسيوس القزم هذا الكلام وقال :

- هذه فكرة جيدة! خذ خيطاً وقس محيط رقبتها، وبعد ذلك اطلب منها أن تضع رأس الخيط بين أسنانها وتضغط عليه بشدة، فإذا مر رأسها ضمن هذه الحلقة، فعندها سوف نتأكد أنها ليست عذراء.

هز كلافينوس برأسه وكأنه لا يوافق على هذا الاقتراح ثم قال:

- عليها أن تقوم بمعجزة، إذا كانت تريد أن تثبت براءتها!.

ثم اقترب هذا الديك العجوز من فانينا وكاد وجهه يلتصق بوجه الفتاة الشابة وهمس قائلاً:

- هيا يا فانينا أسرعي بالقيام بمعجزة، فنحن في عجلة من أمرنا!.

فتدخل المستشار الحقوقي بلافيتيوس وقال بسخرية:

- لا أدري إذا كنت قد سمعت يا فانينا؟ هيا ماذا تنتظرين؟ بإمكانك أن تفعلي كما فعلت توكسيا، التي. كانت راهبة فستا مثلك، واتهمت أيضاً أنها قد حنثت باليمين الذي أقسمته من أجل الحفاظ على بكارتها، وقد أثبتت براءتها أن ملأت غربالاً بالماء من نهر تيبر، وحملت هذا الغربال المليء بالماء حتى وصلت إلى المعبد، وسكبته عند أقدام الرهبان!.

أظلمت الدنيا في عيني فانينا، ورأت أن جميع من أحبتهم، وتحملوا المصاعب من أجلها، سوف يتعرضون للمعاناة والآلام، لذلك صمّمت أن تبعدهم عن المكاره قبل كل شيء وبأسرع ما يمكن. وفجأة لمعت عيناها بشكل عجيب فاعتدلت في وقفتها، وصمت جميع من كان هناك، ثم مدت الفتاة الشابة يديها إلى الأمام، فابتعد الجميع إلى الجوانب وأفسحوا لها الطريق.

دارت فانينا حول طاولة الكتبة، ودنت من جسد فيبيوس الذي كان ملفوفاً بغطاء وملقىً فوق الحجر.

على الرغم من أن الرجل كان جسيماً، وثقيل الوزن، فقد استطاعت قلبه بسهولة.

لم يعد في هذا المسكين ما يشبه الإنسان مطلقاً، سلخ الجلادون هذا الشاب الطويل العريض، وكانت روائح لحمٍ محترق تنتشر من بقايا جسمه!

سمعت الراهبة كالي غولا يصرخ قائلاً:

- أنت تدين نفسك بمثل هذه الأدلة يا كلافينوس وأنا أعاهد جوبيتر أنني سأذبحك.

وبدون أي تردد مالت فانينا فوق هذا الوجه المتورم والمليء بالدم ووضعت فمها بهدوء فوق شفتيه المتشققتين، والذي كان يظهر من خلالهما رأس سنه المكسور، وضغطت برفق.

بعد ذلك تنفس فيبيوس بشكل خفيف من منخريه، وبدأ الدم ذو الطعم اللذيذ ينتشر في فمه. عندها نهضت الشابة فشاهدت جميع الرهبان ينظرون إليها وهم مشدوهون، فسارت باتجاههم وأمسكت بلافيتيوس من حزامه وشدته بشدة وقالت:

- أنت المستشار القانوني لهؤلاء! ألم ترني وأنا أقبل عشيقي؟

ثم التفتت إلى روبيليوس ذي الوجه القروي وقالت:

- أنت شاهد يا روبيليوس على ما جرى، أنت شاهد لا تحتاج إلى رشوة أو تعذيب حتى تُشهّر بما رأيت

ثم خاطبت الراهبة الشابة كلافينوس الذي امتقع لون وجهه وقالت له وهي تتراجع إلى الخلف:

- اسمع يا كلافينوس، عليك أن تضع حداً لهذا النقاش، ويجب أن تقوم بتقديمي فوراً قرباناً لآلهة الموت والظلام السفليين، استنادا إلى القوانين المرعية الإجراء.

بصعوبة كان كلافينوس يتنفس. كانت يداه وذراعاه ترتجفان وتعذر عليه الوقوف على قدميه حتى أن بلافيتيوس ويوبيليوس أسنداه كي لا يقع.

لكن فانينا لم ترد أن تسكت فصرخت غاضبة:

- ماذا تنتظر يا كلافينوس، ها هي اللحظة التي كنت تنتظرها بفارغ الصبر قد حانت، هل تخشى من انتهاء هذه المهزلة؟

ثم تقدم كلٌ من أكفيلوس وكالي غولا نحو الفتاة الشابة وكأنهما يحاولان إسكاتها كي لايؤدي كلامها إلى ما لاتحمد عقباه، لكن فانينا أكملت كلامها بسرعة:

- لا تمساني بأيديكما، لأن كلافينوس المحترم جداً سوف يستغل ذلك! وسوف يتكلم، يجب أن يتكلم! لأنني لم أعد ذات فائدة لأي إنسان بعد أن اعترفت بذنبي، وإن جميع ما قيل عني صحيح: فأنا بلاأخلاق وقد قمت بخدمة الآلهة ويداي ملوثتان! فماذا يريد كلافينوس اعترافاً أكثر من ذلك؟

راح شعر فانينا يتبعثر ويمتد في كل الاتجاهات، وأخذت ترتجف، ثم حوّلت خطابها إلى المجتمعين ولمعان جنون ينطلق من عينيها:

- هل يجب أن أُذكّر السيد كلافينوس بالأسباب الموجبة للقضاء عليّ؟ أم أُذكّره بالوعود التي ارتبط بها مع ذي اللحية البرونزية، أم بموت ابنه دايلوكوس؟

صاح غالي غولا غاضباً وكأنه يريد أن يقود حملة ضد كلافينوس، فقال:

- إنها لن تقول أي شيء. لن تقول شيئاً. حتى لاتؤدي أقوالها إلى مالاتحمد عقباه

بعد ذلك التف جميع أنصار كلافينوس حول سيدهم، وأمسك الراهب العجوز المتهالك العصا الذهبية التي مُدت إليه، والتي كان ينتظرها على ما يبدو، ثم أشار بها إلى راهبة فستا وبدأ ينطق بالحكم وهو يتكلم بصوت منخفض:

- أنت ميتة في نظرنا يا فانينا، وحتى في نظر أبيك وأمك أنت ميتة. وأنت ميتة أيضاً في نظر المدينة التي عرّضتِها لغضب الآلهة، لذلك قررنا تسليمك لآلهة الظلام والموت في مقبرة الجناة وذلك في الساعات الأولى من هذا اليوم.

القسم الواحد والعشرون

إنه لأمر طبيعي أن يفرح المتهم حين يصدر الحكم ببراءته، أما أن يحكم عليه بالموت ويفرح فهذا حقاً ما يبعث على الدهشة. كان هذا هو ما جرى لفانينا، فعلى الرغم من أن كل شيء قد انتهى ولم يبق أمامها سوى أن تحني هامتها وتذهب إلى مقبرة الجناة، إلى القبر المفتوح الذي ينتظرها، على الرغم من ذلك فقد بانت على محياها علائم السرور والفرح.

حسناً، ولكن ماذا بعد؟!

هاهي فانينا التي أمضت كل سنوات طفولتها وشبابها وهي تنهل من هذا النموذج الديني، بناء على أوامر الإمبراطور، وعلى الرغم من أنها كانت ضد هذا النموذج الديني، لكنها كانت مضطرة لأن تخضع لهذا اللاهوت الذي اختارته لها روما، وهي ترى أن ما يقوم به مجلس الرهبان الآن ما هو إلا وسيلة من وسائل الضغط على الشعب.

كثيراً ما كانت فانينا تتساءل عن حقيقة هذا الكون وتبحث عما إذا كان هناك معتقداً آخر غير هذا المعتقد الممجوج الذي تعتقده روما، بحثت في نظريات بعض فلاسفة اليونان والرومان وغيرها عند مفكري الشرق، وكانت تصل دوماً إلى نتيجة واحدة مفادها أن هذا الكون يُدار بطريقة أخرى. ولكنها مع ذلك كانت ترى نفسها في نهاية الأمر وقد ارتبطت منذ طفولتها بآلاف الخزعبلات التي ملأت أفكارها وشكلت شخصيتها.

ولأنها كانت لا تهتم كثيراً بالمعلومات التي كانت تتلقنها، لاعتقادها أنها ما تزال شابة صغيرة ولا يمكنها فهم هذه الأمور المعقدة، لذلك قررت أن تجد ديناً خاصاً بها يقرب من دين أجدادها، ديناً ليس فيه هذا الحشد الهائل من آلهة روما الكبار، أو من الآلهة الذين صنعوا روما، صغاراً كانوا أم كباراً. فمجمل عقيدة أجدادها يتلخص في كلمة أم، عظيم، العذراء فستا. نعم هذا كل ما يمثله الدين بالنسبة لراهبة فستا الشابة والتي ظنوا أنها أهانت العذراء فستا، وأنها لا تتجرأ على أن تتوسل لها وتطلب منها المغفرة!.

حسناً ولكن مع من ستلتقي بعد الموت؟ وهل ستقف حقيقة أمام آلهة الموت والظلام، بعد أن هددها كلافينوس أنه سوف يقوم بتسليمها لهم؟

وهل ستتعرض للعذاب الأبدي على يد كل من رادامانت، إياك، ومينوس؟

من تصدق هذه المسكينة؟ وماذا تصدق؟ ولمن يجب أن تتضرع أو تتوسل، ولمن يجب أن تبتهل وهي في هذه اللحظات العصيبة؟

من الأفضل أن لا تفكر بمثل هذه الأمور، وأن تملأ ما تبقى من حياتها الدنيوية القصيرة بأشياء جميلة تليق بها بصفتها الوريث الأخير لماسترنا المقدس. ويجب أن تكون جديرة بهذا النسل الشجاع وأن تعيش دقائقها الأخيرة بشجاعة. وأن لا تنسى تلك اللوحة الأخيرة التي سوف ترتسم في ذاكرتها عن الأشخاص الذين سيرافقونها حتى قبرها. لن تنساها أبداً وهي تريد أن تُرى جميلة جداً كي يقال أن فانينا كانت جديرة بحب كايوس فيندكس، وليس هناك فتاة في الدنيا تستحق حبه مثلها! وأن يقولوا أيضاً إن هذا العبد الذي ضحت حياتها من أجله هو أسعد عبيد الآلهة.

كان السيناتور فانينوس يمتدح كثيراً طبيعة أكفيلوس القاسية ومع ذلك فقد تبلل خداه بالدموع، كما تقاطرت الدموع على وجنات كل من العجوز فابيوس، والعجوز سيسينا. ومن جهته كورتيليوس أيضاً لم يستطع أن يخفى تأثره، أما ليجينيوس فقد بدأ يجهش بالبكاء كالأطفال بعد أن انتحى جانباً في إحدى زوايا الصالة الفارغة.

تلاقت أنظار فانينا مع نظرات كالي غولا، وهي تتراجع بضع خطوات إلى الوراء، وقد بدا وجه الشاب شاحباً. كان يلهث، وشفتاه ترتجفان، وهمس وهو يمر من أمامها، كأنما يحاكي نفسه:

ـ فانينا!

ارتسم اليأس بوضوح على وجهه وهو لا يزال يمعن النظر في عيني فانينا، وإلى صدرها أيضاً، بدا كما لو أنه مغمى عليه، ثم كرر قائلاً وهو يكاد يختنق:

- فانينا!

وبحركة غير منتظرة جثا بهدوء على ركبتيه أمامها حتى كاد جبينه يلامس الأرض وقبل قدميها، ثم نهض على قدميه والتفت إلى الفريق الذي كان التف حول كلافينوس وقال:

- لم أر في هذه الدنيا المنحطة أحداً يستحق الحب والاحترام مثلها!.

ثم خرج مسرعاً.

تكلم كالي غولا بمنتهى الاحترام وحسب التقاليد القديمة. هذا يعني أن ما قاله كلافينوس هو حكم نافذ، وبموجبه تعد فانينا منذ الآن ميتة في نظر الجميع، وأن القانون الذي تلاه كلافينوس قد محاها من الوجود وأنها لم تعد في عداد الأحياء!

بعد ذلك سارت الراهبة الشابة باتجاه الباب فحياها المرافقان اللذان كانا يقفان إلى جانبها ونكّسا سيفيهما المرفوعين.

كان فيبيوس لا يزال ممدداً على الأرض، وقد برزت عظام قفصه الصدري من صدره المثخن بالجراح وهي تختلج. أشفقت الفتاة الشابة عليه فمالت فوقه، وسترت لحمه العاري بالغطاء الذي كان قد لُف به.

كان الجزار لا يزال يردد من بين شفتيه المتشققتين، وبنَفَسٍ متقطع:

- فانينا!. فانينا! فانينا!

هبت فانينا بسرعة ووقفت على قدميها، وعملت على أن يكون قلبها قوياًكالحجر لاتهزه الأحاسيس كي تظل متماسكة وثابتة الجنان. لأن أي علامة ضعف أو أي مظهر من مظاهر العطف سيكون سبباً في القضاء على كل شيء. عزمت على طرد الخوف وإبعاد العواطف ومن ثَمّ التقدّم بعزم يُصدع الصخر.

اجتازت عتبة الباب، فرأت أربعة نساء في انتظارها في الممر، كنَّ من العبدات المكلفات بالخدمة الداخلية لريغيا.

وما أن شاهدن فانينا حتى مددن أيديهن وهن يردن منع تقدمها، وأشرن إلى باب صغير في الجانب الأيسر.

أطاعت فانينا التعليمات ودخلت الباب المشار إليه، فوجدت فبيديا بانتظارها، تقف في صدر الغرفة، ولم تتحرك عندما شاهدتها!.

كان وجه رئيسة الراهبات كالكلس، ولم يكن يبدو عليها أي مظهر آخر من مظاهر الانزعاج، أما عبدات ريغيا العجائز الأربع فقد تحلقن حول فبيديا وكأنهن يضعن أقنعة على وجوههن، وكنّ مستعدات لالتقاط أي كلمة، أو أي حركة يمكن أن تقوم بها رئيسة الراهبات. أما فبيديا فقد حافظت على صمتها، وفانينا هي الأخرى حذت حذوها وبقيت صامتة. اكتفت الراهبتان بالنظر إلى وجهي بعضهما البعض دون أن يصدر عن أي واحدة منهما أية حركة! حتى إن إحدى العبدات استغربت هذا الصمت فمدت رأسها بين الراهبتين لتتأكد من صمتهما، وفي هذه الأثناء دخلت النسوة الأربع العبدات اللواتي كن قد منعن فانينا من التقدم، وأغلقن خلفهن الباب. وأصبح هناك ثماني عبدات يراقبن هاتين الراهبتين، ويشكلن حاجزاً أمامهما يمنعهما من أن تفضيا بما يعتمل في صدريهما. على كل لم يكن ثمة شيء يمكن أن تتحدث به أي من الراهبتين، ثم إن فانينا لا يمكن أن تضعف أبداً، خاصة إذا احتفظت فبيديا بهدوئها وتماسكها.

كان النور المنبعث من قناديل الزيت يضيء المرمر الأسود الذي يغطي جدران الصالة الصغيرة هذه فيعكس خيال فانينا عليه وكأنه مرآة!

فيما سبق اعتقدت الراهبة الشابة أنها ستنهار ولن تستطيع التحمل ، ولكن ها قد بدا أن وضعها ليس بالسيء ، بل على العكس يبدو جيداً ، أكثر مما كانت تتصور ، وهذا ما جعلها في حيرة من أمرها.

فهذا الوجه البيضوي الخالي من العيوب ، وتلك الابتسامة الساحرة التي تنبع من داخلها تضفي على جمالها الشيء الكثير. كانت مثل هذه الخواطر المفاجئة ترد على ذهن الفتاة الشابة ، رغم أن ثيابها كانت غير مرتبة ، وقد تدلت من هنا وهناك ، بالإضافة إلى أنها قد اتسخت وتجعدت ، في حين كانت ضفائرها قد حُلّت ولكنها لم تتبعثر بفضل الشرائط المقدسة التي كانت تبدو وكأنها مغسولة. وعلى الرغم من ذلك كله ، فقد كان جمال فانينا يخطف الأبصار.

أرادت فبيديا أن تمد يدها نحو الفتاة الشابة ، لكنها أنزلتها بسرعة حتى لا تترك مجالاً للعبدات لكي يمنعنها. لم تجروء على لمس فانينا ، إذ كانت العبدات يبذلن جهدهن لكي لا يكون بينهما أي تماس! ولكن كانتا على يقين أن هذا السكون وهذا الوقار الذي تحافظان عليه لا بد أن ينهار. كانت فانينا متأكدة من ذلك لأنه قد حان وقت خلع ملابسها!

سقط الدبوس الذهبي الكبير الذي يمسك ملابسها الداخلية على الأرض ، و سقطت بعده العلبة المضادة للسموم التي أهدتها لها لوكست. ثم انزلقت ثيابها بهدوء ووقعت على الأرض ، بعد ذلك خلعت فانينا قميصها بنفسها ، كذلك خلعت حذاءها ورمته ، ثم حلت الشرائط المقدسة التي كانت تربط بها ضفائرها.

وعندما لم يبق عليها أي شيء من الثياب نظرت إلى نفسها مرة أخرى. كان جسمها ممتلئاً بعض الشيء ولكنه متناسق ، ولونه أشبه ما يكون بلون الفاكهة التي نضجت تحت أشعة الشمس ، أما ذراعاها فكانتا ملتفتين ، ولم يكن في ساقيها أي عيب ، وكان خصرها دقيقاً ، وصدرها مشدوداً.

لم يسبق أن رأى أحد هذه الفتاة بهذه الوضعية سوى مربيتها والعبدات اللواتي كنّ يقمن على خدمتها. هكذا كانت فانينا التي لم يكن لأي واحد فرصة لكي يراها أو أن يحبها.

بعد ذلك ثنت الفتاة الشابة قليلاً إحدى ساقيها، ثم رفعت ذراعيها حتى رأسها، وبدأت تحل ضفائر شعرها الكثيف، وشعرت كأن هناك كتلة دافئة بدأت تنساب بهدوء بين أصابعها وتمتد ببطء إلى باقي أجزاء جسمها فبانت مثل تمثال رائع الجمال دُثِّرَ بمعطف من ذهب.

وقفت الفتاة تتأمل نفسها، وشعرت بالمرارة لأن كايوس فيندكس لم يرها على هذه الشاكلة، كما أنه لن يراها مطلقاً، فأسدلت ذراعيها وهي يائسة. بعد ذلك سمعت صوت وقع أقدام في الممر. فتح الباب ودخل روبيليوس، صديق ذي اللحية البرونزية، وكان يسير وكأنه مهيض الجناح، وقد فغر فاه، وبدا بعينيه الغائرتين مثل حيوان كريه، يدعو للقرف أكثر من أي وقت مضى.

وبدون أن تترك فبيديا أي مجال لأي ردة فعل قد تصدر عن فانينا، وقفت حائلاً بينها وبين هذا الرجل الوحش الذي يرتدي ثياب الرهبان.

وفجأة شعرت فانينا بقشعريرة تسري في أوصالها عندما رأت روبيليوس الضخم يمسك بذلك القضيب التقليدي الذي قطع غصناً من شجرة وَنزع قشره حديثاً:

لم يخب ظن الفتاة الشابة، فلن يكون لها نصيب الوصول الهادىء إلى المقبرة، لأن كلافينوس قد طلب من بيليوس أن يقوم بالتعذيب المعتاد، الذي يعتبره حقاً مقدساً لا يجوز التنازل عنه ولا بد أن روبيليوس قد أتى لكي يبلغها بذلك وها هو يقول لها:

- يحتم علينا القانون أن لا نرسل أحداً إلى مقبرة الجناة قبل أن يجلد بالسياط حتى تنفر الدماء من جسمه!

إذن هناك الأسوأ! و فانينا لن تستطيع أن تضطجع بارتياح على السرير الذي خصصوه لها وهي ذاهبة إلى مثواها الأخير، خاصة بعد أن يكون جسمها قد تفجر

من كل مكان، وبدأت النيران تأكلها، وهي تتلوى من العذاب، والأسوأ من ذلك أنها سوف تكون عرضة لنظرات السخرية الصادرة عن أعدائها المظفرين، وهي لن تتمكن من الوقوف على قدميها، ولن تستطيع أن تحافظ على هيبتها ووقارها. ثم إن هؤلاء السفلة الذين سوف يتظاهرون بأنهم متألمون، سيقومون بنشر خبر موتها في كل مكان، وهذا لا يمكن أن تتحمله، لأن أقوالاً كهذه من شأنها تشويه الذكريات الجميلة التي تريد أن يحتفظ بها كايوس فيندكس عنها.

وفيما هي مستغرقة بالتفكير بمثل هذه الأمور، كانت فبيديا ترد على الراهب القرد:

- إن القانون يقتضي أن يقوم رئيس الرهبان بنفسه بجلد فانينا!

ولكي تستر فانينا جسمها العاري وضعت ذراعيها على صدرها بشكل متصالب وانحنت قليلاً. كانت تعتبر الضرب إهانة لها، فهي ليست من العبيد ثم ماذا بإمكانه أن يفعل إذا أرادت فستا عالية الجناب أن تقضي عليه فوراً؟ خافت الفتاة فجأة وجمدت في مكانها، فالتفت حولها العبدات على شكل حلقة فراحت تبلل شفتيها المتشققتين بلسانها، وترتعد من الخوف وهي ترى العبدات يتهيأن لتسليمها إلى الرهبان.

ولكن حمداً لله، لأن فبيديا كانت تقف إلى جانبها فهي لم تعط فرصة لأحد لكي يلمسها والتفتت إلى روبيليوس وأمرته قائلة:

- هيا اغرب عن وجهي!

بعد ذلك ارتفعت بعض الأصوات من الممر، ثم ظهر كلافينوس عند عتبة الباب. فقالت له رئيسة الراهبات:

- أنت من عليه أن يجلد فانينا يا كلافينوس، ولكن انتبه: يجب عليك أن تستمر بجلدها حتى تنفر الدماء من جسمها، واحذر أن تموت من التعب، وأنت تقوم بهذا العمل، عندها ستكون قد أخفقت في تحقيق ذلك الشرط الذي أحرص على تحقيقه جيداً!

ثم التفتت فبيديا إلى روبيليوس وتابعت الكلام:

- أما أنت فعليك أن تفهم ما سأقوله لك جيداً: إن فانينا لا زالت حتى الآن راهبة فستا، سواء أكانت بريئة أو مذنبة، لذا فإن وجودك هنا يمثل إهانة لطريقتنا لأنك تنظر إليها وهي عارية، وأنا لن أتوانى أبداً عن مراجعة الإمبراطور، وأطلب إليه أن يحاسبك أنت وباقي المرافقين على هذه التصرفات الطائشة التي تقومون بها، لكي تنالوا جزاءكم وتموتوا تحت ضربات السياط.

ثم تقدمت خطوة نحو الراهب، فتراجع روبيليوس نحو الباب مستغرباً، وقبل أن يتمكن من الهرب إلى الممر انتزعت فبيديا القضيب من يده وقدمته إلى كلافينوس بعد أن أغلقت الباب وقالت:

- هيا يا كلافينوس المحترم، هيا اضرب، تستطيع أن تقوم بوظيفتك الآن!

كان كلافينوس أشبه ما يكون بهيكل عظمي وهو يرتكز على ساقين مرتجفتين، وقد انحنى ظهره كثيراً، ثم أمسك السوط ونظر إليه بتردد.

لكن فبيديا كانت مصرة على موقفها وصرخت قائلة:

- هل يجب أن أسحبك حتى فانينا؟

هبت فانينا واقفة، وأسبلت ذراعيها اللتين كانتا على صدرها، ثم شدت صدرها وسارت نحو الراهب التي لم تكن نظراته لتفارقها أبداً وقالت:

- ألم تسمع ما قالته العذراء المقدسة يا كلافينوس؟ إنك الوحيد الذي يحق له أن يضربني. هيا اجلدني بالسوط حتى تبكيني، ولكن يجب عليك أن تستمر بجلدي حتى تقضي عليَّ، وأنهار بين يديك نهائياً، وأنا أقسم لك أنك لن تسمع مني أي ردة فعل أبداً!

وبدافع من حقده رفع العجوز السوط، فشدت فانينا صدرها أكثر، وقد امتلأ صدرها حقداً، يفوق ما يكنه لها هذا العجوز!.

ثم صرخت بصوت وحشي قائلة:

- هيا اضرب.. أقول لك اضرب.. ماذا تنتظر.. هيا انتقم لدايلوكوس يا كلافينوس.

تجهم وجه كلافينوس القبيح أكثر، وبيد مرتجفة رفع السوط ثانية، وعندما حاولت فبيديا أن تتدخل ضغطت فانينا على أسنانها وأعادت كلامها:

- هيا يا كلافينوس من أجل دايلوكوس، اضربني واقض عليَّ.

انتفضت بشدة عروق الدم الزرقاء تحت جلده الذي لم يعد فيه أي حيوية. تقدم قليلاً إلى الأمام ثم وقف فجأة، وما أن لمس السوط كتف فانينا حتى وقعت على الأرض وهي تحاول أن تتخلص منه، أما كلافينوس فشعر بالدوار وبدا يخرج صوتاً من فمه يشبه الصفير، فهرع العبيد نحوه لكي يسندوه ولكنه انهار بين أيديهم.

في هذه الأثناء سمعت فانينا ضجة خفيفة عند الباب وبعض أصوات الاحتجاج ولم تكن في وضع يمكنها من تمييز ذلك الشخص الذي كان يقف عند عتبة الباب.

إنه ذو اللحية البرونزية بمنظره الأسوأ من ذي قبل، وبخده وأنفه اللذين اكتسيا ازرقاقاً وبخاصة تحت ذلك المرهم الكلسي الذي كان يدهن به وجهه، إضافة إلى كرشه الذي تدلى أكثر إلى الأمام ووقف ينظر إلى فانينا وكأنه يريد أن يأكلها. ثم مد أصابعه نحو رقبتها وطوقها كالحبل، وكان لا يتوقف عن الهذيان، حتى كاد يخنقها.

ولكن ذا اللحية البرونزية هرب قبل أن تتدخل فبيديا!



القسم الثاني والعشرون

صفت السماء صباح هذا اليوم، وها هي الشمس توشك على الشروق. ولكن الطقس بارد وجاف.

هناك، في باحة ريغيا مركبة تنتظر!، مركبة صغيرة الحجم، منخفضة، ومغطاة جيداً بستائر جلدية سميكة، والممعن النظر بعض الشيء يجد حديدها صدئاً، ويشاهد آثار تسوس الخشب، مما يشير إلى أنها مركبة قديمة، ورغم أنها طليت على وجه السرعة باللون البني، إلا أن ذلك لم يغير شيئاً من مظاهر الاهتراء التي حلت بهذه المركبة. يبدو واضحاً أنها كانت مركونة في مستودع مليء بالغبار، وأنها لم تكن تستعمل إلا لمثل هذه المناسبات. وحول المركبة هذه وقف بعض المرافقين وهم يرتدون الثياب السوداء.

بعد ذلك تقدم العبيد الذين يرافقون فانينا بمعاطفهم الداكنة. تقدموا نحو المركبة التي سوف تقل فانينا حتى مثواها الأخير. ورغم أنها كانت ترتدي قميصاً وفوقه معطفها الصوفي الأبيض وتضع الشال، إلاّ أنها قد التفت بكفن كبير كالأموات، وسارت حاسرة الرأس وقد تدلى شعرها الذهبي حتى وصل إلى قدميها.

سارت فبيديا بمحاذاة الراهبة الشابة بين اثنتين من العبدات اللتين كانتا قد وقفتا في وجهها لكي يمنعاها من التهجم على ذي اللحية البرونزية.

أما الراهبتان فقد ظلتا تتبادلان النظرات الجامدة بين الحين والآخر وكأنهما قد تعاهدتا على عدم المبالاة.

وفي هذه الأثناء ظهر كلافينوس في الطرف الآخر من الباحة، يركب مركبته، يحيط به باقي الرهبان. جميع الرهبان هنا، إلا كالي غولا. وثمة في ساحة ريغيا أيضاً مركبتان تنتظران كلاً من فابيوس وسيسينا لأنهما لا يستطيعان السير لمسافات طويلة لكبر سنهما! وكان التعب والإرهاق الذي عانى منه الجميع في الليلة السابقة ألبس وجه كل منهما قناعاً مأساوياً. وإذا كان بعض هؤلاء قد استطاع أن يحلق لحيته على وجه السرعة، إلا أن خدودهم بدت حمراء من جراء تخريش موسى الحلاقة وبرد الشفق القارس، وبدا عليهم وكأنهم كانوا في وليمة امتدت حتى الصباح.

أما كلافينوس الذي كان يقف على ساقين من العظام كأنهما عكازتان وقد انحنى ظهره تماماً فقد ظل يحدق بعينيه الدمويتين وهو يهز رأسه كعادته دوماً. ولم يكن في نظراته أي معنى للتشفي والانتصار كما كان حاله في الليلة الماضية!. ترى، ألأنه حقق هذا الانتصار؟ أم لأنه لم يحقق الانتصار الذي كان يحلم به؟ فهو لم يشف غليله بتعذيبها وربما كان قد انزعج كثيراً لأنه لم يحقق هذه الرغبة!

وفانينا من جهتها تدرك هذا جيداً.



خيم على ريغيا وعلى جميع أنحاء المدينة صمت كصمت القبور، ووسط هذا الصمت الحزين تناهت إلى سمع فانينا أصوات من خارج هذا المبنى الضخم،. أصوات وتوسلات عمت الساحة واخترقت الجدران وراحت أصداؤها تتردد، تلك هي أصوات أبيها، وربما كانت والدتها موجودة أيضاً! ترى، هل سُيسمح لفانينا أن تلقي عليهما نظرة الوداع الأخيرة؟ إنها أمنيتها الغالية والحزينة، ولكنها كانت تخجل من هذا اللقاء، الذي قد يسبب لها إحراجاً وألماً أكثر من السياط التي نجت منها، بدلاً من أن يمنحها القوة وصفاء التفكير!

بإشارة من يد كلافينوس أمسكت الخادمتان اللتان كانتا تقفان إلى جانبي فانينا، أمسكتاها من ساعديها، ولكن راهبة فستا سحبت يديها بلطف، وبدون أن تترك مجالاً لأي اعتراض، سارت بمفردها إلى هذه المركبة المشؤومة التي فتحت ستائرها.

برغبة، رتبت حركاتها كي تبدو لطيفة وخفيفة الظل، وحقيقة بدت هكذا، خاصة عندما رفعت بخفة، برؤوس أصابعها، جوانب الكفن الذي التفّت به لئلاّ تتعثر به، ثم سارت بلا اضطراب نحو المركبة. كان سقف المركبة منخفضاً مما يجعل الجلوس فيها صعباً، لقد صممت ليتم التمدد فيها لا الجلوس. التفتت الفتاة الشابة نحو فبيديا قبل أن تتمدد داخل المركبة وتبسمت، وكأنها أرادت أن تقول لها: كان يجب أن لا يكون وداعنا بارداً على هذا النحو.

أما رئيسة الراهبات فقد بدت وكأن على وجهها قناعاً مرمرياً، في حين راحت حبات الدموع تترقرق في عينيها. وضعت أصابع يديها على فمها، ثم أسدلت ذراعيها إلى جانبيها بيأس، ولمحت فانينا شفتيها تتحركان، ربما كانت تتضرع!. لكن لمن كانت تتضرع؟ إن فانينا تعرف تماماً أن فبيديا لا يمكن أن تشك في وجودها، أو آلهتها، أو فلاسفتها، وعلى الأخص أم المدينة الطاهرة فستا، والتي من المحتمل أنها تشكي لها الآن همومها!.

بعد ذلك انحنت الراهبة الشابة بشكل خفيف ودلفت داخل المركبة وأسدلت الستائر الجلدية السميكة، وصارت الدنيا داخل المركبة ظلاماً. وكانت روائح العفن والقطران تنبعث من داخل المركبة. تمددت الراهبة الشابة فوق الأخشاب العارية ووضعت يديها فوق صدرها.

راح الحمالون يلفون ويدورون حول المركبة، ربطوا الأحزمة، ووضعوا الوسائد السميكة حول الصندوق الذي أغلق على الفتاة الشابة. كانوا يقومون بعملهم ودموعهم تكاد تخنقهم.

وهكذا انقطعت علاقة فانينا مع هذه الدنيا وحتى قبل دخولها إلى القبر!

بقيت الراهبة الشابة فترة طويلة على هذه الحال، وهي لا تعرف شيئاً عن المراسيم التي تجري في الخارج بشأن هذه الجنازة المليئة بالأسرار! وأخيراً شعرت أن المركبة قد ارتفعت عن الأرض، وبدأ الحمالون يسيرون. فشعرت باهتزاز المركبة. لم يمض سوى

وقت قصير حتى توقفت القافلة للحظة قصيرة أمام الباب البرونزي الثقيل لمبنى ريغيا، لكي يُفتح، وبعد اهتزازات خفيفة، عبر الموكب واجهة البناء المطلة على الساحة، وبدأ ينزل الدرج.

وهنا... هنا، دوّى في المكان صوت حزين، يائس وقوي. تخطى الحواجز وجدران الوسائد ووصل إلى داخل المركبة:

- فانينـــــــا. ! ابنتـــي. ! ابنتـــي. !

إنه صوت الأب المفجوع، صوت فانينوس. وتكرر النداء الحزين:

- فانيـنـــا !. فانيـنــــا. وردد الصدى قريباً وبعيداً فـ.. انينا!!!...

مدت الفتاة الشابة ذراعيها إلى جانبيها، وحاولت أن تأخذ نفساً عميقاً، وسعت جاهدة إلى أن تهدئ من ضربات قلبها المتسارعة.

جفّ حلقها ، وبدا رأسها وكأنه سوف ينفجر من الصداع، لم تكن تريد أن تسمع شيئاً، ولن تسمع، وهي لا تريد أن ترى أباها الذي كان يصدح باسمها، ولا تريد أن تسمع تفجّع والدتها الجميلة تِرِنْتا!. ولكن هل كانت أمها موجودة يا ترى؟ وهل آداب هذه الجنازة "جنازة الميت الحي" تسمح لها بالاشتراك؟ لكن فانينا جزمت وقالت لنفسها:

- كلا. إنها ليست هنا، ويجب أن لا تكون هنا! وأن لا تعلم بموتها إلا بعد بضعة أيام على أقل تقدير، لأن رؤيتها لابنتها وهي تحتضر بدون أن تستطيع فعل شيء سيكون أمراً مفجعاً لها.

لا بد أن المركبة تجتاز الساحة الآن!. حاولت فانينا أن تشغل نفسها في تخيل تلك الساحة. في هذه اللحظة بالذات، لا بد أن تكون المعابد، ومبنى العدل، والخمارات مغلقة بسبب هذا المأتم، لا بد أن يكون كل شيء مغلقاً. حتى مبنى الخزينة، وكوريا جوليا، والمحاكم، ولا بد أن الجماهير الصامتة تملأ أرجاء الساحة تماماً!.

فجأة خطر ببال الفتاة الشابة أمر ذو شأن. أليست هذه المحاكم هي المكان الذي يجب أن يحاكم فيه أولئك الذين يتعرضون لراهبات فستا؟ ربما كان فيبيوس قد تعرض أيضاً للحكم عليه جلداً بالسوط حتى الموت! ولكن ألا يمكن أن تتدخل الآلهة وتمنع حدوث مثل هذه الجريمة؟ وربما كان فيبيوس محظوظاً فقضى نحبه قبل أن يُسلَّم ليدي الجلاد؟

شعرت فانينا وكأنها قد نضحت، فقد تعرق جسمها كثيراً، وأحست كأنها على وشك أن يغمى عليها، فعضت بأسنانها على القماش الذي كاد يسحق صدرها ويخنق عنقها لكي تبعده قليلاً.

ينبغي ألاَ تخدع نفسها، إذ لن يفيدها ذلك في شيء، فقد اتخذ كلٌّ من كلافينوس، وذو اللحية البرونزية كل الاحتياطات اللازمة، لكي تبقى على قيد الحياة ولكي يتم القضاء عليها على مرأى من هذه الغوغاء المتعطشة للدماء!

راحت الفتاة الشابة تتخيل المواقف التي تعرض أو قد يتعرض لها كايوس فيندكس. وراهبات فستا العاشقات، وكيف ماتت أراكسيا مربية ذي اللحية البرونزية تحت جَلْد السياط المطعَمّة بحبات الرصاص. مرت هذه الأحداث أمام مخيلتها وكأنها فصول من مسرحية تعرض أمام ناظريها الآن!

صحيح إنها تعيش هذه المسرحية، وأنها أحد أبطالها الرئيسيين ولكنها لا ترى فيها فيبيوس!. لقد انمحى من خيالها ذلك الشاب الجزار الطويل العريض، الذي كان قبل فترة وجيزة بكامل صحته وقوته. كم نُكّل بهذا المسكين وعذب من أجل فانينا، حتى أضحى جسداً حُرِق من هنا وهناك، وتساقط عنه لحمه. سيبقى اسم هذا الرجل، فيبيوس سترا، في ذاكرة كل إنسان، وسيدخل في ذاكرة المدينة، ويُخَلّد. وإن فانينا لتجد نفسها عاجزة عن التعبير، عما يمثله صاحب هذا الاسم.

وحين مر خيال كايوس فيندكس في ذاكرتها مَثُلَ أمام ناظريها كما هو، وكما حدث عندما التصقت به عند قاعدة المنبر، فقد شعرت الآن أيضاً أن الحرارة تنبعث من جسمها!

وفجأة اخترق تساؤل مخيلتها كالسهم: أيمكن أن يُصدق كايوس فيندكس ما سوف تتناقله ألسنة الناس عن العلاقة المزعومة بينها وبين أجير الجزار؟ وما عساه أن يفكر عندما يسمع أن الراهبة الشابة قد قبلت هذا الشاب العاثر الحظ؟

وتحت تأثير هذه الهموم الجديدة انتاب الفتاة الشابة التي تمددت على طولها، الضّيْق والتوتر، وأخذت تنشب أظافرها، بالستائر الجلدية، مع أنها على يقين أنه لا سبيل للنجاة، وأنه سوف يُغمى عليها في الوقت الذي يجب أن لا يحدث ذلك، لأن كلافينوس سوف يتشفى كثيراً، وسوف يملأ الدنيا صراخاً، ويقول عن راهبة فستا، فانينا التي حنثت بيمين البكارة قد أغمى عليها من شدة الخوف وهي في طريقها إلى مقبرة الجناة!.

تنبهت الفتاة فجأة وهي مضطربة، فقد شعرت أنها قد اضطجعت على ما يبدو فترة طويلة وهي شبه مغمى عليها!. إنها لا تعرف كم مضى عليها من الوقت وهي داخل هذه المركبة؟ وهل خطط لها كلافينوس وذو اللحية البرونزية أن تموت داخل هذا الصندوق الذي أغلق عليها؟

أين هي الآن يا ترى؟ كأن الحمالين يمرون الآن بأراضي وعرة فالمركبة تتأرجح على جانبيها، وها هم الآن يضعون المركبة فوق تراب هش!

ثم ها هم قد بدأوا بحل الأحزمة، ورمي الوسادات التي تكتم الأصوات، الواحدة تلو الأخرى. هنا حاولت فانينا بصعوبة ترتيب معطفها والكفن الذي تلتف به، ثم فتحت الستائر فجأة ووجدت نفسها وجهاً لوجه، أمام عظمة تلك الشمس الساطعة، التي بهرت أنظارها.

وما إن ملأ الهواء الجاف رئتيها حتى شعرت أن عينيها قد أظلمتا وأنها كادت ترتمي إلى الوراء، لو لا أنها تماسكت. وشيئاً فشيئاً تحسن حالها بعض الشيء. وها هي ذي ترى بعينيها الآن بشكل أفضل!.

وُضعت المركبة فوق تلة صغيرة خلت تماماً من الناس من أطرافها الأربعة، لكنها شاهدت على بعد حوالي مئة قدم تقريباً، بعض الناس يقفون خلف جدار مؤلف من صفين من حرس المدينة، وهم يراقبون راهبة فستا بصمت.

التفتت الفتاة الشابة حولها، ثم وطئت رجلاها الأرض، ورتبت ثيابها بصورة لاشعورية:

كان بلافينوس، وروبيليوس يمسكان كلافينوس من كتفه ويتقدمون نحوها، رفع الراهب العجوز ذراعيه التي لم يبق فيهما سوى العظام، وهو يتمتم ببعض الأدعية، أما باقي الرهبان فقد تقدموا ببطء خلف هذه المجموعة الصغيرة.

لم تحاول فانينا النظر إلى أحد، ولكنها لمحت والديها بين مجموعة من المرافقين الذين ارتدوا لباس الحداد. رأت والدتها تِرِنْتا وهي تحاول أن تتقدم من ابنتها، وكيف منعها أحد المرافقين، وكيف سحب السيناتور فانينوس زوجته من ذراعيها وطأطأ رأسه!.

شعرت فانينا أن حلقها قد جف، وأن قدميها لا تقويان على حملها، فنظرت إلى والديها وكأنها مريضة، فامتلأت عيناها بالدموع، ثم وضعت يدها على فمها تماماً كما كانت تفعل فبيديا والتفتت إلى الخلف فرأت كلافينوس ومن خلفه رفاقه يتجهون نحو كومة التراب الهش التي يبدو عليها أنها حفرت حديثاً.

في هذه الأثناء سُمِعت بعض الصيحات، والأصوات الأخرى التي تتعالى من بين صفوف المحتشدين. ما الذي يقوله أهل روما يا ترى؟ هل جاؤوا لكي يطلبوا لها الرحمة، أم لكي يصبوا جام غضبهم عليها؟ لن يتسنى للفتاة الشابة أن تعرف ذلك أبداً.

فجأة، توقفت عندما شاهدت رجلاً يخرج من بطن الأرض، وما إن وطأت قدما الجلاد كاديبيوس الأرض، حتى رأت فانينا ذلك الجحر المظلم الذي خرج منه، ورأت درجاً طويلاً لا نهاية له!.

هنا، وفي هذه الأثناء صاح كلافينوس، رئيس الكهنة:

ـ فانينا.

ثم دنا منها راهب العصركلافينوس، بعد أن أنهى أدعيته، ونظر إليها نظرة تُوحي بشيء ذي مغزىً. مد يده نحوها وتكلم بصوت أشبه ما يكون بصوت الزقزقة:

- اقرأي هذه الرسالة، قبل أن أقوم بتسليمك إلى الجلاد!

ثم سلم الفتاة الشابة قطعة من الورق الملفوفة؛ فقرأت فانينا ما بداخلها! قرأت:

"صديقي كلافينوس: يجب أن تنتخبوا فانينا ابنة السيناتور فانينوس حتماً، لكي تصبح راهبة فستا. انني أعتمد عليك".

الإمبراطور تيبر

أعادت فانينا قراءة هذه الأسطر مرات عدة، ولكن سرعان ما كانت ترى الأحرف تدور أمام عينيها، ولا تفهم شيئاً.

عندها قال لها كلافينوس:

ـ ماذا بك؟ هل طار صوابك من الرعب الذي أنت فيه، حتى أصبحت لا تستطيعين فهم ما تقرأين؟ نعم هذه هي الرسالة التي أرسلها لي تيبر منذ عشر سنوات، لقد كتبها إمبراطورنا الحبيب بخط يده، وقد أمرنا فيها أن نختارك لكي تكوني راهبة فستا، ولعلك تعلمين أنني كنت موافقاً على هذا الاقتراح. ولكنني طلبت القيام بعمل قرعة لكي تبدو النتائج طبيعية بشكل أفضل.

كان واضحاً من بريق عينيه أنه قد انتقم منها كما يريد، وأنه يتشفى بهذا الانتقام. كان باقي الرهبان يقفون جانباً، وفي الخلف يقف الجلاد، ولم يكن عند القبر الذي ينتظر صاحبته سوى كلافينوس وفانينا، وكان لدى هذا العجوز مطلق الحرية لكي يعبر عن فرحته المليئة بالخسة والغدر، فتابع كلامه قائلاً:

- نحن من اختارك يافانينا، الآلهة، وتيبر، وأنا.

ثم أمسك الرسالة ودعكها بيده حتى أصبحت كالكرة و ألقاها في قلب الحفرة وقال لها:

- وهكذا سيكون بإمكانك قراءتها حتى يصيبك الملل! فليس هناك أجمل من القراءة إذا لم يكن النعاس يداعب العينين، وقد تساعدك قراءة هذه الرسالة القديمة كثيراً على التفكير بلحظات السعادة المفقودة!.

آه لو لم يكن تيبر قد تحالف مع صديقه الحبيب كلافينوس، الذي كان يحتال في أثناء قيامه بإجراء القرعة، لكانت الآن تحيا سعيدة مع حبيبها كايوس فيندكس، دون أن يتعرض هو أو هي لأي خطر.

تقدمت فانينا خطوتين إلى الأمام، وقد أحست بدوار في رأسها وغثياناً في معدتها. وبدأت تفكر: ليست الآلهة من اختارتها لكي تكون راهبة فستا، ولكنها سهلت إجراء هذه الحيلة!. لقد كان كايوس فيندكس بعيداً عنها في ذلك الوقت، كما كان والداها عاجزان عن فعل أي شيء، وحتى فبيديا أيضاً لم تنجح في عمل شيء. لقد أيقنت الراهبة الشابة أن كل ما آمنت به ما هو إلا مجرد سراب. لقد أصبح كل شيء قبيحاً لدرجة أنها باتت ترى أن الحل الأفضل و الأجمل هو الموت!



- أيها الجلاد: ها أنذا أسلمك فانينا.

تقدم الجلاد خطوة نحو فانينا، فقامت وهي في غاية الاضطراب بإبعاده بيدها ثم سلكت الدرج وبدأت تهبط إلى الأعماق وما أن أصبح أكثر من نصف جسمها في القبر حتى لفت نظرها وجود شبح قصير يتسلق الجدار الحجري الموجود خلف الطوق الذي ضربه الجنود عند باب مقبرة الجناة.

إنه القزم نفسه ذو القفطان الجلدي الذي كان يظهر لها دائماً عند كل مصيبة تحل بها، وها هو الآن يظهر في الوقت المناسب، ولكن بلا شك هذه هي المرة الأخيرة، التي لن تراه بعدها.

وحين ألقت نظرة باتجاه المكان الذي كان يقف فيه والدها شاهدت فريقاً صغيراً يبتعد عن المكان، ورأت أن والدها قد مال بجسمه نحو جثة هامدة يحملها إثنان من العبيد!.

صفت السماء في هذا اليوم، وسطعت شمسها ببريق ندر حدوثه في مثل هذه الأيام.

مالت فانينا برأسها وبدأت تهبط الدرج بتكاسل، الدرجة تلو الدرجة إلى أن وصلت نهاية الدرج، وما أن وطئت قدماها أرض القبر حتى انسحب الدرج إلى الأعلى، وكان وجه كاديميوس الجلاد الغليظ الذي يشبه وجه الحيوان، هو آخر وجه رأته فانينا على ارتفاع عشرين قدماً تحت قبة السماء الزرقاء، التي جعلها هذا الجلاد سوداء حالكة.

وفي إثر ذلك مباشرة، نزلت صخرة ضخمة تشبه الهرم المقلوب فوق الفتحة التي هبطت منها الفتاة الشابة قبل قليل، وبصوت يكاد يصم الآذان أغلقت هذه الصخرة الضخمة المخرج الوحيد للقبر.

ثم سمعت فانينا بعد ذلك صوت التراب ينهال فوق الحجر، كما سمعت أصوات الأرجل وهي تضغط على هذا التراب وترصه. وبعدهادخل المكان، عالم الصمت المطبق.

قريباً سينبت العشب فوق الأتربة التي مهدها العمال بأقدامهم، وعندها يصعب على أي إنسان معرفة المكان الذي دفنت فيه فانينا حية. وهكذا سوف تنتهي هذه الفتاة الشابة بدون أن تترك أي اثر بين الأحياء، أو بين الأموات!.



القسم الثالث والعشرون

■ استلقت فانينا على ظهرها، وتساءلت وهي بين النوم واليقظة عن مربيتها التي كانت تهرع إليها بمجرد أن تفتح عينيها وتساءلت ترى أين أنت الآن ياهمونيا ؟

و حين فتحت عينيها، رأت شعلة صفراء تنبعث من قنديل زيت وُضع ضمن حلقة حديدية، فوق رأسها، فهبت واقفة على قدميها، وأحست بصدمة قوية نتيجة هذا الوضع المأساوي الذي وجدت نفسها فيه.

وتذكرت كيف وطأت قدماها أرض هذا القبر، وكيف أنها لا زالت تسمع صوت الضجة المخيفة التي أحدثها ذلك الحجر الثقيل الذي أغلق المنفذ الوحيد لهذا الجحر، وأبعدها إلى الأبد عن دنيا الأحياء.

وهاهي الآن تقبع على عمق خمسة وعشرين قدماً من سطح الأرض، وشعلة قنديل الزيت توشك أن تنطفئ، وبعدها سوف تعيش في ظلام أبدي. تذكرت أنها قد لمحت زجاجة زيت عندما كانت مستلقية على السرير فمدت يدها وتناولت الزجاجة وجددت بخبرتها زيت القنديل.

كانت زجاجة الزيت قد وضعت إلى جانب صينية عليها إبريق ماء من الفخار وكان هناك طبق من الفخار المشوي. فشربت وروت ظمأها.

ثم لمحت قطعة خبز مدورة في طبق فشعرت فجأة بالجوع. وبدأ الطنين يجول في رأسها فأحست بإعياء شديد وأنه سوف يغمى عليها تماماً كما حدث معها عندما كانت في المركبة التي أقلتها إلى قبرها هذا.

حاولت أن تتذكر كم مضى عليها من الوقت بدون أن تأكل؟ تذكرت أنه لم يدخل فمها أي طعام منذ طعام الغذاء الذي سبق الفصل الأول لهذه المسرحية، ذلك لأن المأساة قد بدأت فوراً بعد انتهائها من الطعام، عندما هرعت إلى كوريا جوليا بعد أن علمت أن كايوس فيندكس قد حكم بالإعدام!

ولكن متى جرت هذه الأحداث؟ وهل مضى عليها يوم، أم يومان؟ ثم كم مضى عليها من الوقت، وهي تحت وطأة هذا الكابوس الذي أقضَّ مضجعها؟ كل هذا لا يهم، المهم الآن هو أنها تكاد تموت جوعاً.

وبلمحة عين أتت على الخبز.

كانت الفتاة الشابة تعرف أن التقاليد تقتضي أن يكون هناك طعام من أجل استمرار الحياة السفلية للأموات الذين نذروا حياتهم لخدمة فستا المقدسة، أُمُّ المدينة، لكي لا يقال أنهم ماتوا جوعاً، وهكذا فإن راهبة فستا التي سُلمت للآلهة السفليين قد التهمت الطعام الذي كان إلى جانبها دفعة واحدة!.

وعندما انتصبت واقفة على قدميها، رسمت شعلة قنديل الزيت الخافتة خيالاً ضخماً لا شكل له على جدران القبر التي تكاد لا تُرى!

إنها في مستودع لا يتجاوز قطره اثني عشر قدماً، وله قبة غابت ملامحها في الظلام. ومع أن المكان باردٌ جداً، إلا أن راهبة فستا لم تشعر بشدة هذه البرودة لأنها كانت ترتدي ثياباً سميكة.

خطت فانينا بضع خطوات وتلمست بيدها الجدران المحيطة بها. فوجدت أن الجدران قد كُسيت بأحجار رمادية، منحوتة بشكل متقن. كان المكان بمثابة سجن عظيم، وقد صمم ليكون منيعاً أكثر مما يحتاجه قبر يضم مثل هذه الفتاة. بعد ذلك خطت بضع خطوات أخرى وضربت براحة كفيها بشدة على أحجار الجدران.

ثم جمدت في مكانها من الدهشة، لقد أدركت أنها تقوم بأولى حركاتها اللا منطقية، لأنها كانت تعرف أنها لن تستطيع أن تفعل شيئاً مع هذه الأحجار الصماء مهما ضربت، ومهما أوتيت من قوة.

بدأ ذهنها يصحو قليلاً، وبدأت تتخلص من حالة اللاوعي التي كانت قد سيطرت عليها، وعاد تفكيرها يعمل بسرعة مخيفة، إذ راحت الأفكار واللوحات المختلفة التي تبعث الحيرة والدهشة تتلاحق في مخيلتها.

في جو هذا الصمت القاتل كانت فانينا تستطيع أن تسمع أقل حركة مهما كانت صغيرة، وتصل إليها وكأنها ضجة كبيرة. فمثلاً عندما تسعل، يدهمها شعور أن هذه الأحجار التي تحبسها سوف تنهار وكأنها تعرضت لرعد سماوي مذهل، مما يضطرها إلى حبس أنفاسها فتضغط بيدها على فمها. لم يسبق لها أن صادفت مثل هذا الصمت الرهيب من قبل، حتى في بيت فستا. كان الصمت مطبقاً لدرجة أنها كانت تسمع ضربات قلبها الواحدة تلو الأخرى، كما كانت تسمع صوت الطنين في رأسها، وصوت رعشة جسمها.

كانت على استعداد لأن تضحي بما تبقى من عمرها، لو تستطيع أن تسمع ولو لمرة صوت خرير المياه، أو زقزقة العصافير. لقد سيطر عليها اليأس تماماً، إلى حد صارت تشعر فيه أنها، في سجنها هذا مثل حيوان مفترس قد وضع في قفص وهو لا يملك إلا أن يلف ويدور على قوائمه الأربع لكي يلبي إحساسه الدقيق بالعظمة في ظل هذا الوضع الذي لا أمل منه. سعت فانينا للسيطرة على أعصابها وهو ما اضطرها إلى حصر أفكارها وأن لا تطلق لها العنان. إنها تعيش الآن في دنيا خاصة بها، دنيا صغيرة، لذا يجب أن تنغلق على نفسها في دنياها هذه، وأن تكتفي بتذكُّر الأماكن التي عاشتها في المدينة وتصوّر العذاب الصعب تخيله الذي يتحمله أبوها وأمها، وفبيديا، وأصدقاؤها وهمونيا، وجميع أحبائها، وحتى أولئك الذين يكرهونها.

أما أولئك الذين يعرفون فانينا، كيف يتصورن حالها الآن؟ لا بد أنهم يفكرون أنها تبكي وتضرب وترفس جدران القبر!.

يجب أن لا يفكروا هكذا. ويجب أن لا يُعرِّضوها لتلك القوى الظالمة وأن لا يتركوا مجالاً لهذا الخوف المدهش الذي يدعو للجنون أن يسيطر عليها. لأنها قد مضت في سبيلها بعزيمة وإرادة تفوق طاقة البشر واستلقت على سريرها.

إنها سوف لن تتحرك من هنا، ويجب أن يذهب تفكيرها الآن بعيداً عن هنا، نحو كايوس فيندكس فقط، وأن تستلقي على سريرها منتظرة الموت وأن لا تترك مجالاً في خيالها لغير حبيبها.

فجأة قفزت من مكانها بعد أن سمعت صوت ضجة. وتكرر الصوت مرات عدة، وكانت قبة القبر تضخم هذا الصوت أكثر.

هرعت نحو الجدار، ووضعت أذنها على الحجر. نعم ثمة ضجة تنبعث من هناك!

أنصتت بدقة وأرهفت سمعها. إنه صوت ارتطام جسم معدني بأحجار القبر، وأعقب هذا الصوت مباشرة، صوت الأتربة وهي تنهال كالشلال!

حبست فانينا أنفاسها. وفكرت بأنهم بعض العمال ممن يعملون لحساب مجلس الرهبان، وإلا من يستطيع أن يأتي إلى مقبرة الجناة ليقوم بأعمال الحفر؟ لعلهم يحفرون قبراً آخر!. قبر من يا ترى؟ أيكون قبراً لفبيديا! ألم يكن كلافينوس يردد دائماً:

- إن راهبات فستا لسن بمنأى عن الصواعق أيضاً.

لقد كان واضحاً أن كلافينوس ذا الروح الشريرة كان يجهز نفسه ويستعد لكي يستدعي فبيديا للمثول أمام مجلس الرهبان لكي يعاقبها. ألم تتحداه رئيسة الراهبات عدة مرات؟ ألم تسخر منه؟ ثم كم من العراقيل وضعتها أمام هذا الراهب العجوز لكي تحمي حبيبتها فانينا! ولكن من المؤكد أن فبيديا لم يكن يخطر في بالها مطلقاً أنها يمكن أن تصل إلى هذه النهاية المفجعة عندما كانت تقوم بهذه الحركات ضد كلافينوس!.

بدأت فانينا تلف وتدور داخل القبر وهي تضرب الجدران بكفيها حتى أدميتا، كانت تصرخ بأعلى صوتها. إنها تريد أن تعرف حقيقة فبيديا! كان يجب عليها أن تحضر دفاعها جيداً! كما كان يتوجب على الإمبراطور أن يتدخل هذه المرة على الأقل!

الإمبراطور!. شعرت فانينا بالقرف وهي تتذكره، ثم بصقت على الأرض. تيبر، ما هو إلا رجل مجنون، يهتم بعلم النجوم، وهو إنسان مخمور، سيء الحظ، عديم الأخلاق، وأفعاله يندى لها الجبين، فهو لم يدافع عن فانينا، فكيف سيدافع عن فبيديا؟ ثم إنه قد احتال على المسكينة فانينا وزوَّر القرعة، لكي يربطها بخدمة فستا، وجلب لها الأساتذة من كل الاختصاصات ليحشو ذهنها بعلوم لا تنفع، ثم تخلى عنها في وقت الشدة ونزعها من تفكيره وكأنها شيء عديم الفائدة!

تذكرت كيف أن تيبر قد أمر كلافينوس أن يقوم بتزوير القرعة، بعد أن تذكرت رسالته التي لا بد أن تكون مركونة في إحدى زوايا هذا القبر.

غضبت كثيراً وبدأت ترتعش، وهي تكرر جميع الشتائم التي كانت قد قالتها أو سمعتها من قبل.

وأخيراً استندت إلى الجدار وهي يائسة. إنما ظلت تفكر بهذه الضجة محاولة أن تجد تفسيراً لها. خمّنت أن هذه الضجة لا يمكن أن تكون ناجمة عن ضرب معولٍ يحفر بتواتر زمني منتظم! لا بد أن يكون هناك من يقوم بالحفر بانتظام بآلة أصغر من المعول!

حاولت تحديد مصدر الصوت بدقة. لقد كان السلم الذي نزلت منه إلى القبر ثم سحب ثانية في هذا الطرف. وها هي آثار التراب الذي داست عليه بقدميها واضحة إلى جانب السرير. وجّهت نظرها إلى استقامة الجدار الذي تسلق عليه القزم وهي تضع رجلها على أول درجة.

ها هي الضجة تصدر تماماً عن تلك الجهة!

بدأت الراهبة تفكر فيما إذا كان أحدٌ ما قد جاء لإنقاذها!. وهل يمكن أن يكون أبوها، أم أن فبيديا قد دبرت أمراً ما؟ أو أن الإمبراطور قد أرسل أحد رجاله؟ ألم يكن تيبر قد أوحى لها في عدة مناسبات أنه لن يدعها تواجه مصيرها لوحدها؟ وأنها تستطيع أن تنتظر منه أشياء كثيرة!؟

لكن سرعان ما انتهت من هذه الأفكار المتفائلة، وبدأت تفكر أن كلاً من كلافينوس، وذي اللحية البرونزية، قد أرسلا بعض رجالهما لكي يقوموا بتهريب فانينا والتعامل معها بشكل آخر لأنهما يعتبران أن انتقامهما منها لم يكن تاماً!.

وتذكرت كيف اضطر كلافينوس للتخلي عن جَلْد ضحيته، وكيف كان بريق عيني ذي اللحية البرونزية يفيض شهوة وهو ينظر لها وكأنه عاشق متيم، وكيف شعرت هي بالقرف!

ينبغي أن تفعل شيئاً وألا تقف مكتوفة اليدين هكذا!. إنها معرضة لكل الاحتمالات لذا يجب أن تكون جاهزة للتصدي لها!.

سارت نحو السرير وهي مضطربة، وبدأت تبحث وتدقق إذا كانت تستطيع أن تحصل منه على شيء يشبه السلاح!. كانت المواد التي صنع منها السرير هي من البرونز، إذن من الممكن استعمال أحد قضبانه لتكون عصا جيدة. تعلقت عيناها بأحد القضبان فسحبته بسرعة، فانقلب السرير، وظهر كيس كبير من الجلد.

ما الذي بداخل هذا الكيس؟ دارت حوله بحذر، ثم لمسته بطرف قدمها. كان هذا الطرف ليناً، ولكن الطرف الآخر ممتلئ و يعطي صوتاً وكأنما أشياء معدنية بداخله.

إنها تتوقع كل أنواع الغدر والخداع من كلافينوس وذي اللحية البرونزية. لعلهم وضعوا لها في هذا الكيس حيواناً مفترساً، أو فئراناً، أو ثعابين!

اقتربت الفتاة من الكيس وقربت أذنها منه، لم تشعر بأي حركة داخله.

اتخذت قرارها بسرعة، وحلّت الشريط الذي يربط الكيس، فرأت أربع أرغفة من الخبز كبيرة الحجم، وبعض التفاح، والمعجنات المجففة، ثم شاهدت علبتين ملفوفتين

بورق. وُضع في العلبة الأولى لحماً مدخناً، وفي الثانية سمكٌ مجففٌ. ولم تكن هذه الأشياء هي الموجودة في هذا الكيس فقط، بل كان هناك قنديلٌ كبير له فتيل مزدوج، وزجاجة كبيرة مُلِئتْ زيتاً لكي يُعمر (يُستعمل). وفي قعر الكيس أيضاً مطرة مملوءة بالماء.

لم يكن هناك أي كلمة مكتوبة على الورق الذي يلف اللحم والسمك. وبدون أن تفكر بهذا الشخص الذي وضع لها طعاماً يكفيها لمدة أسبوع، ملأت القنديل زيتاً وأوقدته، ثم رفعت السرير الذي انقلب وجلست عليه، وتناولت أول قطعة لحم صادفتها يدها، وخطر في بالها أنها يمكن أن تكون لحماً مسموماً، ولكنها لم تعر أهمية لذلك، فهي في هذه الحالة تستطيع أن تتأكد من صحة خلطة السموم المضادة التي أهدتها إياها لوكست، وسوف يتسنى لها أيضاً التأكد من أن هذه الخلطة كانت تليق بمتريدات العظيم أم لا؟

لقد اقتنعت أن هناك شخصاً ما، يقوم بالحفر بلا توقف تقريباً. وكان عامل المنجم المجهول هذا يتوقف لفترة قصيرة، ثم يستأنف الحفر.

استمر العمل لفترة طويلة.

التصقت فانينا بالجدار. صوت الحفر بدأ يخف تدريجياً، إلى أن عم المكان صمت مطبق.

التهمت الفتاة الشابة الطعام بسرعة وامتلأت معدتها، ثم عادت وجلست فوق سريرها، فسمعت صوت الحفر يعاود من جديد ولكن بقوة أكبر، وبشكل غير منتظم.

أصاخت سمعها وكأنها حيوان وقع في مصيدة! لم تعد تعرف شيئاً عن مفهوم الزمن، وهي لا تريد أن تعرف. لقد كانت تنتظر والخوف مسيطر عليها.

لا بد أن هناك شخصاً مجهولاً يحفر في الطرف الثاني. أخذ صوت الحفر يقترب أكثر، وبدأت فانينا تسمع بوضوح صوت الأحجار وهي تنتزع الواحدة تلو الأخرى، وصوت التراب وهو يُرمى إلى جميع الأطراف. اقتربت الضجة منها كثيراً.

جثت على ركبتيها عند أسفل الجدار، ورأت أنه من الصعب جداً تحديد المسافة التي تفصلها عن ذلك الشخص الذي يحفر التراب بلا كلل، وكأنه أحد الحيوانات القارضة التي تعيش تحت الأرض.

وأخيراً أصبح الشخص المجهول قريباً جداً، وها هي ذي تسمع صوت الجدار وهو يرن تحت ضربات معوله. ربما كان هذا الشخص المجهول يتفحص الجدار لكي يجد فيه نقطة ضعف! أو كان يقوم بتعريض وتعميق الممر الذي قام بحفره.

في لحظة ما تناهى إلى سمعها صوت أنين فرأت أنه يجب أن تحافظ على صمتها. صمتت كلياً. اكتشفت أن هناك على بعد خطوتين منها ممر، يمكن الخروج منه واستنشاق الهواء النظيف. من حفر هذا الممر؟ وهل هو عدو أم صديق؟ من المؤكد أن هذا الممر هو الأمل الأخير لنجاتها!. ولكن، مع ذلك يجب أن تكون جاهزة لمواجهة أسوأ الاحتمالات. تحركت بهمة عالية وخطفت الصينية التي كان الجلادون قد تركوها في المقبرة واستعملتها كذراع رافعة، كما خلعت أحد قضبان السرير.

ها قد أصبح لديها قضيب تستطيع أن تستعمله كسلاح، وهي لن تتردد في استعماله إذا لزم الأمر.

وها هو الشخص الذي كان في الطرف الآخر، يقبع الآن أسفل الجدار وهو يبحث عن طريقة لكي ينقض عليها. ها هو صوت أنفاسه يتناهى إلى سمعها وتتصور المعاناة التي تعرض لها وهو في هذا الممر.

انحنت فوراً. بينها وبين الآخر مسافة قدم واحد أو أقل، كان يقف إلى جانبها تقريباً ولكن على مستوى أخفض. لحظة ويصبح أمامها! خطفت القضيب البرونزي واستعدت للدفاع. ثم توقفت عندما سمعت صوت الأنين من جديد!.

ثم انهار التراب تحت قدميها بسبب وزنها، فوجدت نفسها في حفرة عميقة يصل عمقها حتى كتفيها، وخوفاً من أن يمسكها هذا الرجل المجهول من قدميها ولكي لا تبقى مكتوفة اليدين بلا دفاع أمام هذا العدو، قامت بإشهار سلاحها!.

لكن العدو لم يتحرك، ولم تعد تسمع صوته. قد يكون هذا الشخص المجهول عديم الخبرة، فوقع مُغمىً عليه تحت أنقاض الأتربة والأحجار التي انهارت فوقه! لقد أيقظ هذا التفكير الذي لا يحتمل إحساس فانينا بشكل مدهش، فألقت بالقضيب البرونزي من يدها، وبدأت تجمع التراب المتراكم حولها بكفها وترمي به إلى جميع الأطراف، إلى أن خارت قواها. كانت ثيابها السميكة الملعونة تعيق حركتها، وتكسرت أظافرها وهي تبعد التراب. خلعت معطفها الصوفي الأبيض ورمته فوق رأسها نحو السرير، ولم يعد يستر جسمها الآن سوى قميص الكتان الداخلي. صارت نصف عارية. والأتربة لما تزل مكومة من حولها.

صرخت فانينا ثانية عندما لمست بيدها جسماً دافئاً! لقد كان وجهاً. بدأت تتحسسه بيدها، فراحت تمد يدها مرة نحو الوجه ومرة نحو الفم. وشعرت بشفتيه المنفرجتين وأسنانه المطبقة.

عاشت كابوساً. تخيلت كيف أن هذا المسكين كان يحاول جهده عبثاً لكي يتخلص من هذه الأتربة والأحجار التي انهارت عليه، وكيف تعرض لجروح وكدمات عديدة!.

بعد قليل اكتشفت وجه هذا الشخص المجهول الذي تعرض لانهيارات الأتربة. إنها لا تستطيع أن تراه حتى الآن، رغم أنه إلى جانبها، لقد تجمع المسكين على نفسه، فقامت فانينا برفع ساقيه اللتين كانتا فوق رأسه.

من هذا المجهول؟ صديق أم عدو؟ وبدون أن تهتم بالأمر استمرت بالحفر، وعدلت من وضع رأسه الذي كان على جانبه فجعلته إلى الأمام. استمرت بجهد أكبر، فرأت صدره العاري، وكانت قد كشفت عن كتفه قبل قليل. بعد ذلك مدت يدها تحت إبطه ولمست شعر إبطه المتعرق ثم استدارت وحاولت أن تجره بكل ما أوتيت من قوة.

وبصرخة ملؤها الدهشة والاستغراب ارتمت الفتاة الشابة إلى الوراء، ثم عادت بعد ذلك ومالت فوق هذا الشخص الذي تعرض لهذا الحادث المؤلم، الذي نجا منه، وهو ينتفض كالمجنون وصرخت من أعماقها وبأعلى صوتها:

- كايوس.

إنه كايوس فيندكس، حبيب الروح.

القسم الرابع والعشرون

كانا يلتقطان أنفاسهما وهما يحضنان بعضهما، وراحا يتلمسان طريقهما كالعميان، وتتعثر أقدامهما هنا وهناك إلى أن وصلا إلى الطرف الآخر من هذا المستودع، وارتميا على السرير.

كانت فانينا قد خارت قواها، وتوترت أعصابها إلى درجة الانقطاع وهي تفكر وتقول:

- إنه حلم. هذا حلم!

نعم يصعب أن يكون إلا سراباً خادعاً ابتدعته أحاسيسها التي توترت كثيراً، لما عانته من اضطرابات مادية ومعنوية فجعلت ذهنها مشوشاً يلفه هذا السكون المؤقت الذي سرعان ما تخلصت منه لتعيش هذا الكابوس المزعج.

عضت الفتاة الشابة على شفتيها حتى كادت الدماء تنفر منهما، ثم اغرورقت عيناها بالدموع. وشعرت أنها تكاد تنسحق، وهي تحت كتلة جسم كايوس فيندكس التي لا حراك فيها والتي كانت تشتعل ناراً وتسبح في العرق. مع أنها كانت تريد أن تلتصق به أكثر ليصبحا واحداً كما تمنت لو أن وزنه كان أكثر مما هو ألف مرة!.

ما من شك في أن كايوس فيندكس لا يزال تحت تأثير الصدمة التي تعرض لها في أثناء انهيار الأتربة والأحجار فوقه، فظل صامتاً يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه. غامر بجنون للوصول إلى فانينا. كانت تسمع صوت أسنانه وهي تصطك، كما كانت تسمع صدره وهو يلهث كأنه كيرُ حداد.

ولكن هل يعرف هذا الشاب أين هو الآن؟ وهل يعرف فيما إذا كان قد حقق هدفه أم لا؟

كيف لفانينا أن تتركه على هذه الحالة؟! عليها أن تفعل شيئاً لتبعث فيه الحياة وتوقظ الهمم.

حاولت الراهبة أن تنزاح من تحته، ولكن ما أن تركته قليلاً حتى شعرت أن النيران قد اضطرمت بداخلها وارتفع أوارها، وأنها ستبتلعها. حاولت أن تتحسس بجسمها كايوس فيندكس لكي تتأكد من صحته ومن حرارة جسمه. لم يكن ثمة فاصل بين جسدها وجسمه سوى قميص الكتان الرقيق الذي كانت ترتديه، وهو أشبه ما يكون بنسيج العنكبوت، والمئزر الرقيق الذي التف به الرجل. كانت الكهرباء المنبعثة من جسم الرجل تسكر الفتاة الشابة أكثر من العطر الشرقي الذي كانت تمسح به همونيا جسم هذه الفتاة بعد كل حمام أيام زمان.

وفجأة تنهدت فانينا وقالت وكأنها غائبة عن الوعي:

- كايوس فيندكس!

وجاء الرد هذه المرة:

- فانينا!

كان فيندكس وسيماً جداً، لكن وجهه كان يبدو تحت ضوء القنديل وكأنه قد اكتسب جمالاً مأساوياً من جراء المعاناة التي مر بها. كما أن الحرص، قد خلق منه إنساناً آخر، حتى أن فانينا قد راودها الشك، في هذا الشخص الذي قتلها الشوق إليه، والذي تريده أن يكون رجلاً، سيداً، عاشقاً وولهاناً!

أغمضت راهبة فستا عينيها، وبدأت تردد الكلمات التي كانت تقولها في أحلامها لهذا الرجل.

- حبي! وحيدي! لو تعرف كم انتظرتك!.

بصعوبة بالغة كان فيندكس يتنفس، فمدت الفتاة الشابة يديها نحو يديه اللتين كانتا تطوقان خصرها النحيل، ووضعتهما تحتها مرة أخرى، فتغير وضع تنفسه وأصبح يتنفس بعمق وسرعة. لقد أصبحت أنفاسه الآن مثل الأنفاس التي كانت تعلو وتهبط في حلق فانينا، سريعة وعميقة مثلها.

لو أنهما عاشقان كباقي العشاق، لكانت الفتاة الشابة التي كادت شفتاها تذوبان في شفتي كايوس فيندكس، ترددت أكثر، ولكان الرجل الشاب قد اعتراه الخجل والإرتباك من القيام بهذه التصرفات والمداعبات الغليظة والجريئة التي تفتقر للخبرة، لكي لا يزعج حبيبته!.

لو أنهما عاشقان مثل غيرهما، لاعتراها الخجل من هذا الاحتضان الذي كانت تنتظره طويلاً.

لكنهما ليسا كغيرهما من العاشقين، إنهما الوحيدان في هذا العالم، وبين كل هذه الكائنات. لقد نال منهما العذاب بشكل لانظير له، وأخيراً التقيا في هذه الجزيرة الخالية. لقد كانت تقف على عتبة الموت بعد أن أخذوها إلى مقبرة الجناة وحفروا التراب وألقوا بها في هذا القبر المظلم. لذلك فهي لم تعد تهتم أبداً بالمثل والأخلاق التي سبق أن تعلمتها، وهي لا تريد أن تفكر أيضاً في المستقبل. الشيء الوحيد الذي يعنيهما معاً، هما الاثنان، فانينا وكايوس فيندكس هو الوقت الحاضر الذي يعيشانه الآن. آلاف الأسئلة التي كانت تخطر في بال فانينا وتود أن تسأل كايوس فيندكس عنها، قد اختفت الآن ولم تعد تخطر على بالها أصلاً.

حتى هذا الوقت لم يكن قد جرى بينهما أي تماس جسدي ورغم أنهما كانا يشعران أن كل تصرفاتهما غريبة، إلا أنهما قد ذابا في بعضهما الآن وكأنهما عاشقان، طحنتهما دوامة الشوق والجنون.

تلامست الأفواه إلى أكثر من الشفاه، توحدت. حتى أسنانهما قد التصقت ببعضها وتداخلت. كل القيود والحواجز تحطمت أمام قوى الطبيعة التي لا تتبدل. وراح كل

واحد منهما ينهل من الآخر فهاما كالسكارى. يتفوهان بكلمات ذات معنى، و بلا معنى. وكل منهما يردد اسم الآخر بلا ملل.

- فانينا!

- كايوس!

كل واحد منهما ملك الآخر، حتى قبل أن يمتلكا بعضهما البعض، لقد انتظرا طويلاً. وكانت فانينا تظن نفسها ساذجة، وها قد اتضح أنها على العكس تماماً! اعتقدت فيما مضى أنها جبانة وخجولة، فتبين أنها غير ذلك تماماً. كانت امرأة تشع حرارة، ولا تعرف الإرتواء! امرأة يندر وجودها. كان فيها نداء الأنثى للرجل، وكانت هي التي تحرك غرائزه ولم يكن هو ليعص لها أمراً.

حصرت همها في أن تستحوذ عليه تماماً حتى آخر رمق فيه. لم يأبها بأي شيء. رغبا بشيء واحد، أن يبقى جسداهما متحدين، حتى لو انهارت قواهما وتحطم كبرياؤهما، وقضت عليهما هذه العاصفة الهوجاء.

حتى أصابعها لم تصبر، فامتزجت وتشابكت بأصابع كايوس فيندكس. هذه العذراء النقية التي كانت حتى هذا اليوم بعيدة عن أسرار شهوة الحب، راحت تمد يدها إلى صدره بكل جرأة وتداعبه وتعتصره.

ولكن من شق قميص فانينا الرقيق من الأعلى إلى الأسفل؟ ومن قطع مئزر كايوس فيندكس المصنوع من الكتان السميك؟ هذا ليس مهماً. المهم الآن هو أن جسديهما قد اتحدا وهما لا يزالان يتناغيان:

- كايوس!

- فانينا!

ولكن أين يجب أن تبدأ المتعة بالنسبة للفتاة الشابة؟ إنها لا تعلم متى ستنتهي من هذا العذاب الذي يلف كل زوايا جسمها، ابتداء من ثغرها وحتى أكثر زواياها السرية

خصوصية. كان كايوس يعتصر جسمها اللطيف بيديه القويتين، وكأنها أنثى مغلوبة على أمرها، قد تعرضت لهجوم أحد الرجال!.

هاهي تشعر، أن كل شيء في جسمها يشتعل حتى الزوايا الدفينة، أحست كأن في رأسها عجلة تدور وتحدث دويّاً يصم الآذان.

أهو الحب؟ صارت فانينا جسداً لا حراك فيه، تكتفي، بالنظر، والقلق، والألم، وهبوط الخيال.

أما كايوس فقد ظل يطبق على ثغرها وينهال قبلاً، وكأنه يريد أن يرتشفها كلها بأنفاسه دفعة واحدة، كان يشن الهجوم في إثر الهجوم وكل هجوم يفوق سابقه قوة واحتواءً. ولم يكن هدفه الوصول إلى فانينا بقدر ما كان يفكر بإيصالها إلى شاطئ السعادة لكي تتخلص من هبوط الخيال الذي وصلت إليه!.

لم يبق مكان في جسمها بلا ألم ، فالرجل لم يرحمها أبداً، حتى أنها لم تجد فرصة لرؤية عينيه الزرقاوين كلون السماء الصافية، التي كانت تحلم برؤيتهما، فقد ظلت أنفاسه دوماً في أذنيها. راحت شعلة قنديل الزيت تبدد الظلام بعض الشيء، وهو الأمر الذي أتاح لفانينا أن تشاهد في القبة خيال كايوس فيندكس الذي لا يتوقف عن اللعب والهجوم، مكرراً الحركات نفسها بلا ملل!.

وأخيراً هدأت حركة الرجل واسترخى فوق فانينا وعيناه نصف مغمضتين.

هل أن كل ما منحته فانينا لهذا الرجل، والذي أوصلها إلى حالة العدم، وإلى هذا الصمت الآني المطلق هو الحب؟

راحت تتأمل في الوجه الذي يغوص في فجوة كتفها، وقد بدا عليه الإعياء والتعب لدرجة الموت. كان وجهه مُعفراً بالتراب، وعيناه المتورمتان تحملان آثار المتعة القاهرة التي عاشها قبل ثوان.

لم تكن تشبع من النظر إلى وجهه الذي يبهر الأبصار، بما فيه من صفاء أخّاذ، وبراءة الأطفال.

وبحركة قوية من ردفيها خلصت فانينا نفسها وانزاحت من تحته. فهمهم بصوت مخنوق أشبه ما يكون بصوت الزئير، ثم التصق بها من جديد، وشعرت فانينا بالألم نفسه الذي أحست به قبل قليل ينساب في أعماق جسدها. وفجأة خطر في بالها: لا بد أن هذا الألم الذي تتعرض له الآن يشبه الألم الذي تتعرض له القرابين التي تقدم إلى الآلهة، عندما تنفر منها الدماء وهي تُنْحر. وها هي ذي راهبة فستا تشعر أن في داخلها سعادة لا توصف، لأنها قدمت نفسها الآن قرباناً لكايوس فيندكس مثل القرابين التي تقدم للآلهة!. جاءت هذه الفكرة فجأة بلسماً قضى على الآلام التي انتشرت في جسدها. أحست بفرح غامر وسعادة قصوى يملآنها وهمست:

- كايوس!

فأجابها وعيناه نصف مغمضتين.

- حبيبتي!

كان يتنفس بعمق، وقلبه يخفق بشدة، وشفتاه ترتجفان وكأنهما قد تعرضتا لحالة عصبية، وبخجل شديد مدَّت الراهبة الشابة يدها، ولمست خده. فأحس الرجل برعشة خفيفة تسري في أوصاله.

- كايوس!

- حبيبتي!

ثم مالت فوق وجه عشيقها، وبخفة البرق أبعدت خصلة شعر قصيرة التصقت بجبينه المتعرق، ثم بدأت تداعب بخجل شفتيه اللتين كانتا تفيضان قوة وحيوية قبل قليل. لكن كايوس فيندكس لم يتحرك، فتجرأت أكثر، وكأن هذا الشاب طفلٌ أودع أمانة عندها، وهي حرة في أن تفعل فيه ما تشاء. فضغطت بشفتيها على فمه فتنهد كايوس وطوقها من خصرها.

- كايوس!

- حبيبتي!

- هل أنت متعب؟

شعرت فانينا أنها تحت وطأة إحساس غريب بالانقباض، واعتراها إحساس أنها لم تصل إلى درجة الاطمئنان بعد. لذلك رغبت في أن يحتويها من جديد، وأن يعتصرها ويؤلمها، ويمزقها ويسحقها!.

ثم عضت على أسنانها وهي تصارع هذه الرغبة العارمة، فهي تعرف أن حبيبها، قد خاض من أجلها صراعاً يفوق طاقة البشر، وقد خارت قواه وهو بحاجة إلى قسط من الراحة. كما أن جسمه قد تضعضع وامتلأت كفاه بالدمامل. لكنها كانت تقف أمام قوى لا تستطيع مقاومتها، قوىً تدفعها نحو جسد كايوس. فقرَّبت شفتيها العطشتين من شفتيه وبدأت تلتصق به أكثر فأكثر. لقد التصقت الآن تماماً، وأصبحت جاهزة لكل شيء لكي يكرر هذا الرجل المفترس ما فعله قبل قليل. وأخيراً اعتصرها كايوس فيندكس بذراعيه حتى كاد يهشم عظامها، فأطلقت تأوهات وتنهيدات طويلة، ثم غابت عن الوعي.



شعرت فانينا أنها بدأت تتخلص من وحشة الوحدة القاتلة التي كانت تسيطر عليها وهي في هذا البئر الغامضة. واستأنست بهذا التعب اللذيذ الذي سيطر على جميع أنحاء جسدها، وصفا ذهنها.

ورغم أن يديها وساقيها كانت في حالة استرخاء، لم تستطع أن تصبر فمدت يدها نحو كايوس فيندكس وهي تبحث عنه. أين ذهب؟

وضحكت فجأة عندما شاهدته يقف أمامها ويتأملها.

كان خداها، حمراوين كالورد، وبحركة سريعة أمسكت طرفي قميصها الممزق وحاولت ستر جسمها، فخجل كايوس فيندكس وحاول ستر جسمه العاري أيضاً.

ظلا طويلاً واقفين أمام بعضهما صامتين بدون أن ينطقا بكلمة واحدة. فلقد كانا بحاجة لبعض الوقت لكي يستوعبا في ذاكرتهما الأحداث التي مرت معهما ولكي يتأكدا بأنهما لم يكونا يحلمان أو يعيشان في سراب!.

بعد ذلك هبت فانينا واقفة على رؤوس أصابعها، بعد أن رمت الغطاء الذي كان بينها وبين الرجل، ثم دنت من حبيبها، والتصق جسدها بجسده، وبدأت تتلمس بأصابعها جميع أطراف جسمه. نعم هذا هو كايوس فيندكس بشحمه ولحمه. كايوس فيندكس الذي كانت تحلم به. إنهما الآن معاً، وسيبقيان هكذا حتى آخر العمر. بعد أن ارتاحت نفسهما، وهدأ بالهما.

بيديه المهترئتين، أخذ كايوس يداعب بلطف عذب ذلك المعطف الذهبي الذي هو أغلى من الذهب، الشعر الذي كان يستر ظهر راهبة فستا ويصل حتى كعبيها. ظلا فترة صامتين دون أن ينطق أي منهما بكلمة واخدة. لم يعرفا من أين وكيف يجب أن يبدأا الحديث. وأخيرا قال الرجل بصوت حالم:

- فانينا!

ثم أشاح بنظره عن الراهبة الشابة وقال:

- سامحيني!

هاهو قلب الفتاة يفيض بالسعادة والحب، ونظراتها مفعمة بالحبور والسرور، فحضنت حبيبها بقوة، ودست رأسها عند عنقه وطبعت عليه قبلة خفيفة.

وبعد قليل قال لها الرجل وهو غير راغب:

- لقد حان الوقت يا فانينا!

وخلال لحظة انتهى السحر، وبدأ الاثنان يشعران ببرودة المكان تخترق عظامهما، وكأنهما قد أدركا فجأة أين هما.

فقالت فانينا:

- لنخرج من هنا بسرعة!.

- نعم يجب أن نذهب، فهاهو الليل قد أقبل.

نظرت فانينا إليه باستغراب وقالت:

- ليل؟ عن أي ليل تتحدث؟

- أنت محبوسة هنا منذ صباح أمس. وعند صباح الغد تكونين قد أمضيت يومين كاملين.

ثم ضرب الشاب جبهته بقبضة يده وهب واقفاً وقال:

- كم أنا مغفل!. لكي يصل أولئك الأشخاص يجب ان يستفيدوا من ظلام الليل!

سألت فانينا حبيبها:

- أولئك الأشخاص؟ أي أشخاص؟

وبدلاً من أن يجيبها كايوس فيندكس على سؤالها، قفز إلى الحفرة التي جاء منها وأمسك بحفنة من التراب وورماها كالمجنون داخل القبر.

لكن فانينا أعادت السؤال مرة أخرى:

- عن أي أشخاص تتحدث؟

- سأقول لك فيما بعد.

وبدون أن تصر على سؤالها قفزت إلى جانبه وبدأت تساعده. عملا معاً جنباً إلى جنب وراحا يرفعان الأتربة التي سبق أن انهارت فوق الممر. تملّك فانينا فرح عارم وهي تقاسم كايوس جهوده وتشاركه نضاله، من اجل مستقبلهما المشترك، من أجل رسم معالم الطريق الذي سوف يوصلهما إلى قدرهما.

بشكل مفاجئ أطلقت فانينا صيحة:

- لقد وجدت الحل!.

وأمسكت بيدها المعول الذي كان كايوس يحفر فيه الممر.

فصرخ الشاب قائلاً:

- اتركي هذا المعول، وسحبه من يدها، وتابع عمله بلا هوادة:

صاحت فانينا مرة أخرى:

- لقد وجدت خنجراً!.

- هذا خنجري. احتفظي به، فقد نحتاجه فيما بعد!

أمسكت فانينا السلاح بيدها، وتابعت عملها باليد الأخرى، ولم تعد تعرف بماذا يجب أن تفكر، وما الذي يقصده كايوس بقوله:

"قد نحتاجه فيما بعد؟"

وبعد قليل صاح الشاب قائلاً:

- ها قد أصبح كل شيء جاهزاً الآن وبإمكاننا أن نعبر!.

انحنت فانينا بجسمها ومدت يدها نحو سقف الممر الذي يمكن أن ينهار في أية لحظة!. كان ارتفاع الممر يصل إلى صدرها، وشعرت بالرياح الباردة التي تهب من المقبرة، تتغلغل في عظامها، وأحست كأنها تلمح منذ الآن وجه السماء الصافية التي سوف تسير تحتها وهي تمسك بيد كايوس!

سألها الشاب:

- هل تريدين أن تأخذي معك شيئاً؟

- ثيابي فقط.

- دعيهما، فسوف تجدين بعد قليل كل ما تحتاجين!.

ثم لف الرجل الشاب مئزره حول ردفيه جيداً، وعاد إلى القبر، وأخذ القنديلين، وأعطى واحداً منهما إلى فانينا وأخذ الخنجر منها، وبعد أن طبع قبلة على جبين حبيبته تسلل داخل الممر الضيق وهمس قائلاً:

- تعالي.

الفصل الخامس والعشرون

سارت فانينا خلف الشاب وهي تمسك بقنديل الزيت بعناية كي لا ينطفئ، وراحت تنظر بإعجاب إلى هذا النفق، وتحدث نفسها وتقول:

- كيف تمكن كايوس فيندكس من حفر هذا النفق الكبير؟ كم يحتاج مثل هذا العمل إلى جرأة كبيرة وجهد جبار! ثم كيف استطاع حفر هذه التربة غير المتماسكة التي يمكن أن تنهار بسرعة، لأقل حركة أو لمسة، وإلى أين قام بترحيل نواتج الحفر؟ وفي أي زاوية سحرية كومها؟

لفت كايوس انتباهها قائلاً:

- انتبهي جيداً. حاولي أن لا تلمسي السقف!.

وبعد أن سمعا صوت قرقعة تشبه تساقط حبات البرد. حدثت ضجة كبيرة فقطع كايوس فيندكس كلامه وصرخ:

- فانينا!

فرمت الفتاة بنفسها إلى الأمام، وانهمكت في تخليص قدميها العاريتين اللتين غاصتا في أكوام الأتربة والحصى، لأن هذا الرجل العديم الخبرة في أعمال الحفر كان قد وضع نواتج الحفر في طريقها. ورغم أنها شعرت بآلام شديدة في ساقها اليمنى، إلاّ أنها تحاملت على نفسها لكي لا تبدو ضعيفة أمامه وقالت له:

- امضِ في طريقك. ليس بي أي شيء!.

كان كايوس أطول وأعرض من فانينا، الأمر الذي جعله يواجه صعوبات بالغة في التقدم في هذا الممر الذي كان يضيق بسبب تساقط الأتربة أكثر من حبيبته. لم يكن ما قام به ليسمّى تقدماً. كان زحفاً ليس إلا.

وبفضول سألته الفتاة:

ـ كيف تصرفت وأنت تقوم بحفر هذا النفق لكي لا تختنق أو تموت؟

فأجابها كايوس فيندكس:

ـ لا أدري. لم أكن أبالي بأي شيء. كان همي الوحيد هو الوصول إلى جدار القبر.

واصلا تقدمهما قليلاً فوجدا بعد عشرة أو خمسة عشر قدماً أن النفق قد أصبح أكثر اتساعاً وسقفه أكثر انخفاضاً من القسم الذي اجتازاه، وقد اتضح أن كايوس فيندكس كان يلقي بالأتربة خلفه لكي يشق طريقه. وقد قام بتدعيمه ببعض الأخشاب وكأنه خبير، تماماً كما يفعل عمال المناجم!.

ثم قال فيندكس:

ـ لم يعد هناك خوف من أي انهيارات بعد هذه النقطة!.

نظرت فانينا حولها وسألته في حيرة:

ـ هل فعلت كل هذه الأشياء لوحدك؟

فأجاب كايوس باقتضاب:

ـ كلا لقد قام به الآخرون!

ـ من هؤلاء الآخرون؟

ـ لا وقت لدينا الآن! سأشرح لك كل شيء فيما بعد!

زحفوا قرابة عشرين متراً وكان النفق يتسع باستمرار، وقد مُهّد المكان هنا بعناية، ورُحّلت كل الأتربة التي انهارت.

بدأ كايوس فيندكس يسير واقفاً على رجليه وراح يتقدم بلا أي صعوبة. ازدادت فانينا حيرة وازدادت الأمور غموضاً عندها فلم تعد تفهم شيئاً. خطر في بالها أسئلة كثيرة. من هؤلاء الآخرون الذين قاموا بحفر هذا النفق وبمثل هذا الإتقان؟ ومن أتى بهذه الدعائم الخشبية وقام بتدعيم القسم المتبقي والذي يصل حتى جدران القبر؟ ثم من استعمل هذه السلال في نقل نواتج الحفر، والتي كان يصادفها هذان الهاربان أمامهما؟ ومن وضع هذه القناديل على الجدران؟

التفت كايوس فيندكس فجأة نحو اليمين وقال لفانينا:

- حذار. لا تنظري إلى هذا الطرف!

لكن فانينا لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر، وأطلقت صرخة مدوية بعد أن رأت جثة هامدة ممددة على الأرض. كانت جثة رجل مذبوح سُحب من قدميه وجيء به إلى هنا!

اعترض كايوس فيندكس على تصرف حبيبته بلطف وقال لها:

ـ ألم أُلفت نظرك إلى وجوب عدم الالتفات إلى هذا الطرف؟

خجلت فانينا لأنها لم تطعه وسألت وهي خائفة:

ـ من هذا الرجل؟

ـ إنه العامل الذي قام بحفر هذا القسم الذي نقف فيه الآن.

ـ هل أنت من قتله؟

ـ نعم أنا قتلته؟

وتذكرت فانينا أصوات المعاول المنتظمة وهي تحفر هذا القسم المتقن، وكيف أن كايوس فيندكس كان يحاول جهده لكي يصل إلى قبر فانينا بدون إضاعة أي وقت، وبدون أن يأخذ أي قسط من الراحة، لقد كان يثابر على الحفر من دون أن يتخذ أي

تدابير. وكادت عيناها تخرجان من محجريهما من الدهشة وهي تنظر إلى هذا الرجل المذبوح والملقى على قفاه، وشعرت وكأنها هي الجاني!

كان الميت رجلاً رفيعاً غليظ الملامح، عارضاه طويلان وخطهما الشيب وقد ابيض شعره وقد بدا على وجهه أنه قد شُوِيَ تحت أشعة الشمس وأن يديه القصيرتين والعريضتين قد امتلأتا بالدمامل.

ثم شرح كايوس فيندكس الأمر وقال لها:

ـــ لقد هجم علي بمعوله عندما رآني!.

ثم ألقى الرجل الشاب نظرة من فوق كتفي فانينا وأضاف قائلاً:

ـــ أراد أن يمنعني من الوصول إليك فقتلته أيضاً كما قتلت من قبله!. معنى ذلك أن الفتاة الشابة سوف تصادف قتيلاً آخر قبل أن تخرج إلى الهواء الطلق. لقد أصبح عدد القتلى اثنين!. فكم عدد القتلى الذين سوف يتناثرون أمامها يا ترى؟ وهل يجب أن تتخضب كل فترة من حياتها بالدماء.

انقبض قلبها وشعرت بعذاب الضمير، وبدون أن تسأل عن القتيل الآخر قالت بصوت حزين:

ـــ دعنا نمضي في طريقنا يا كايوس!

كان الرجل الشاب ينظر إلى حبيبته ووجهه مفعم بمعاني الحب، ثم همس قائلاً:

ـ لم أكن أريدك أن تشاهدي هذا المنظر يا وحيدتي. لم يكن هناك مفرٌّ من قتله! كان يجب أن أقتله من أجلك يا حبيبتي.

طأطأت الفتاة الشابة رأسها وكررت ما قالته بفتور.

ـــ دعنا نمضي في طريقنا يا كايوس.

جدًّا في سيرهما أكثر بعد أن تجاوزا جثة القروي العجوز. فوجدا في منتصف الممر حفرة عريضة وعميقة، وكان ذلك بسبب القفف التي امتلأت بالأتربة الهشة.

وعلى بعد عشرين خطوة من النفق دخلا إلى بيت مهجور من فجوة في إحدى جدرانه. كانت ثلاثة أرباع المكان قد امتلأت بالأتربة التي ألقيت به.

وأخيراً أراد كايوس فيندكس أن يخبرها الحقيقة فترك القنديل الذي كان في يده وحضنها بين ذراعيه، وقال لها وكأنه يتوسل:

ـ يجب، على الأقل أن لا تشاهدي الموجود هنا!

لكن فانينا هزت رأسها وكأنها تقول له لا يمكن. وما أن أزاحت الشاب من أمامها حتى سيطرت عليها الدهشة، إذ كان ضوء شعلة القنديل المرتجف كافياً لمشاهدة هذا المشهد المخيف. رأت جثة أراكسيا شقيقة رئيسة الراهبات بالرضاعة ممددة فوق كومة من التراب وذراعاها منبسطتان على جانبيها.

إذن، فانينا لم تخدع عندما شاهدت البداية. لقد كانت ترتجف وهي تتصور كيف ستشاهد هذه اللوحة الثانية المفجعة، منذ أن شاهدت وجه ذلك القروي الشريف السيئ الحظ الذي قتله كايوس فيندكس. نعم إن ذلك العجوز لم يكن يعمل لحساب أعدائها! وفهمت فانينا الآن سبب المقابلة الهادئة التي تمت بينها وبين فبيديا، وشعرت أنها كانت غبية لأنها شكت قليلاً برئيسة الراهبات مع أنها كانت تبذل كل ما في وسعها لكي تنقذها. لقد تصرفت فبيديا كعادتها دوماً وكانت تحسب لما هو أسوأ دائماً. ففي الوقت الذي أمر فيه كلافينوس بحفر قبر فانينا الذي ستسلم فيه روحها، قامت فبيديا بمحاولة فتح هذا الممر لكي تنقذ ابنتها المعنوية من براثن الموت.

أمسك كايوس فيندكس الفتاة الشابة من ذراعيها وهمس بخجل قائلاً:

ـــ كنت مستعداً لأن أضحي بأمور كثيرة في سبيل أن لا تعرفي أنني قتلت امرأة، لكنني أقسم لك باسم كيبالا يا حبيبتي، أنه لم يكن لدي الوقت الكافي لكي أعرف من هي. فما أن دخلت هذا البيت حتى حل الظلام ولم يكن بحوزتي سلاح!.

وكادت هذه المرأة أن تغرز خنجرها في صدري لولا أن لويت ذراعيها وحولت السلاح نحوها!.

نظرت راهبة فستا إلى السلاح الذي كان يلمع في يدَيْ الشاب، لقد كان هو الخنجر نفسه الذي أخرجته أراكسيا من صدرها عندما كانت تركب في العربة مع فبيديا وفانينا لكي تحميهما من الرعاع الذين تجمعوا حول العربة في زقاق نوفا.

كم هي مؤلمة هذه الحياة!؟ أراكسيا هذه المرأة التي كانت تطيع رئيسة الراهبات طاعة عمياء، تأتي إلى هذا البيت المهجور وتحاول أن تقتل كايوس فيندكس الذي يفترض أن يكون حليفها! ثم تذكرت فانينا فجأة مربيتها همونيا، وكم عانت ومازالت تعاني من أجلها.

لمَ كل هذه التضحيات التي تبذل من أجل فانينا؟ أمن أجل حياتها وسعادتها؟ وهل أن حياتها وسعادتها مهمتان لكي تسفك كل هذه الدماء من أجلها؟ جثت الفتاة الشابة على ركبتيها وطبعت قبلة على جبين أراكسيا البارد وكادت دموعها تبلل يدها التي تشبه الشمع الأصفر التي طعنت فيها صدرها بخنجرها!

نظر كايوس فيندكس إلى حبيبته مستغرباً وقال لها:

_ إنك لا تتكلمين أبداً!. هل كنت على معرفة بها؟

شعرت فانينا بقشعريرة تدب في أوصالها، فقالت بلا مبالاة بعد أن ضغطت على أعصابها:

_ إنها المرة الأولى التي أرى فيها هذه المرأة!.

عندها شعر كايوس فيندكس بالسرور، وتنفس الصعداء وقال:

_ لو كنت قد رأيت وجهك قبل قليل؟!. لقد اعتقدت أن هذه المرأة التي كانت تحاول أن تساعد في الجهود المبذولة لإنقاذك، هي صديقتك أو إحدى خدم والدك،

أو إحدى أتباع رئيسة الراهبات؟ ولو كان مثل هذا الاعتقاد صحيحاً، فما كنت لأسامح نفسي طول العمر!.

ثم أضاف الرجل قائلاً وكأنه أزاح حملاً عن كتفيه:

- لا تستطيعين أن تقدري مدى سعادتي الآن! لأن هذه الفكرة كانت تعذبني منذ أن قمت بإتمام العمل في الممر السفلي، الذي بدأ فيه الرجل العجوز.

كان الشاب الغالي واثقاً من نفسه، خاصة بعد أن قام فيما مضى بتلك الحركات الخطيرة على امتداد الواجهة الخارجية لبيت فستا، وأصبح بقفزة واحدة داخل غرفة فانينا! لذلك فقد كان يشعر أن ما يقوم به هنا هو عمل عادي!.

لم يشعر بأي ألم خاصة بعد أن زال القلق الذي كان يراوده من الفشل في إتمام العمل. وبعد أن طبع قبلة على شفتي فانينا اللتين كانتا كالجليد أضاف:

- قد يصل أصدقاء الشخصين اللذين قتلتهما إلى هنا عند حلول الظلام، لذا علينا أن نرحل قبل وصولهما.

شعرت فانينا فجأة بالبرد فسألت:

- ماذا عن الثياب التي حدثتني عنها؟

- إنها هنا. خلفك:

كان كل شيء قد وضع بعناية فوق هذا الصندوق الخشبي. هناك قميصان أحدهما من الكتان، والآخر من الصوف، وقد لفّا بعناية بمئزر سميك من النوع الذي يبعث الدفء والذي يستعمله العبيد عادة. وكان هناك قفطان بلا أكمام. وزوجان من الأحذية الجلدية.

ارتدت فانينا الثياب بلمح البصر. كانت فبيديا قد فكرت في كل شيء فقد وضعت بين الألبسة كيساً مملوءاً بالنقود الذهبية، ومرآة من النحاس اللامع ومنشفة، وكوباً مملوءاً بالماء، وزجاجة عطر صغيرة، ومشطاً مصنوعاً من عاج الفيل.

وبينما كانت فانينا لا تزال تنظر بطرف عينيها نحو أراكسيا، وهي تمسح وجهها ويديها وذراعيها، وتحاول أن تفك شعرها لكي تجمعه خلف رقبتها، كان كايوس فيندكس يرتدي ثيابه العسكرية ومعطفه القصير. هذه الألبسة التي كان قد تركها في مكان ما، قبل أن يباشر العمل في النفق. وفجأة حُلت عقدة لسانه وبدأ يروي لها بجمل مقتضبة ما مر معه من أحداث قبل وصوله إلى مقبرة الجناة:

- كالسيل العرم أصدر تيبر أوامره لقافلتنا بالسير فوراً باتجاه غالة . سرت أنا ووالدي ليلاً ووصلنا إلى معسكر حرس البروتوريان.

تحتّم علينا أن لا نغادر المعسكر إلا صباح أمس. لكنني هربت من المعسكر دون أي تفكير، خاصة بعد أن علمت أن كلافينوس قد قام بدفنك وأنت حية. وفي الطريق تعذبت كثيراً. ذُقت جميع أنواع العذاب!

وبعد أن تذكّر العذاب الذي مرّ فيه، توقف قليلاً، ثم أطبق قبضته واستمر في كلامه:

- كنت أتصور يا حبيبتي كيف كانوا يبعدونك تدريجياً عن دنيا الأحياء، في الوقت الذي كان يترتب عليهم أن يحافظوا عليك كمقل العيون. لقد كنت على استعداد لأن أقوم بدون تفكير بقتل جميع الفضوليين الذين كانوا يحومون فوق قبرك كالغربان. وعندما وضعوك في أعماق التراب، أردت أن أهجم على كلافينوس لكي أقتله، في الوقت الذي كان يجب علي أن أهب لنجدتك.

لقد كنت جريئة جداً وجميلة جداً. وعندما حل الظلام بدأت اسمع وأنا في هذا البيت بعض الضجيج، ولم أكن أعلم أن هناك بعض الرجال التابعين لكلافينوس وذي اللحية البرونزية قد جاؤوا لتهريبك. لكن الشيء الذي لم أستطع فهمه حتى الآن هو ماذا كانوا يقصدون عندما قاموا بحفر القسم الأعظم من النفق الذي أوصلني إليك؟ بعد ذلك طرقت الباب، فجاء أحدهم وفتح الباب. أما ما جرى بعد ذلك فأنت تعرفينه!.

ثم نظر الشاب إلى جسد أراكسيا بحقد وقال:

- لم أعد أشعر بالخجل لأنني قتلت هذه المرأة.

ثم أمسك فانينا من كتفيها وصرخ قائلاً:

- ليسامحني بلوتون يا حبيبتي. فأنا على استعداد لقتل مئة واحدة مثل هذه الكلبة، حتى لو تعرضتُ لعذاب آلهة جهنم إلى الأبد.

ارتعدت فانينا عندما سمعت كلامه وابتعدت بهدوء ثم قطبت حاجبيها وقالت:

- ثمة تعابير ينبغي على المرء ألا يتفوه بها، يا كايوس فيندكس، حتى ممن لديهم الرغبة في الانتقام مثلك!.

ثم دنت من أراكسيا وأطبقت عينيها، وقامت بتلاوة بعض الأدعية القصيرة لكي ترحمها الآلهة لأنها تعذَّبت كثيراً بسببها، ثم أخرجت من الكيس بضعة نقود من البرونز ودستها بين شفتي هذه المرأة المسكينة. إذ حسب الخرافات المتداولة فإن هذه النقود هي أجرة شارون الذي سوف يأخذها بقاربه لكي يعبر بها نهرين في جهنم قبل أن تذهب إلى عالم الظلال. وربما تمكنت أراكسيا بهذه النقود أن تصل إلى الهدوء الأبدي في العالم الآخر.

لم يتحرك كايوس فيندكس من مكانه، وعندما دنت منه فانينا مرة ثانية ابتسم الشاب في وجه الراهبة الشابة ثم أمسك يديها وقربهما من شفتيه وهمس قائلاً:

- ربما كنت أنت أيضاً على حق.

ثم صحح كلامه وقال:

- أنت عندي دائماً على حق!.

وبعد أن أطفأت القنديلين، دفعت الباب بيدها. كان الجو بارداً وجافاً، وشعرت بالمطر المصحوب بالرياح يهب على وجهها فتوقفت في مكانها.

وعندما مدت يدها لتضع طاقية القفطان على رأسها سمعت صوت معدن، فمدت أصابعها إلى داخل الطاقية فتعرفت فوراً على الجسمين المعدنيين اللذين لمستهما

بأصابعها. كان الأول هو العلبة الذهبية التي تحتوي على العلاج المضاد للسموم. التي أهدتها إياها لوكست، أما الجسم الثاني فكان المبضع البرونزي الذي أهدته لها فبيديا باسم الإمبراطور.

وباستغراب سألها كايوس فيندكس.

- ما بك؟

رفعت فانينا كتفيها قليلاً وقالت:

- فيما بعد.

ها هي روما أمامهما، وها هي النجوم المتلألئة هنا وهناك تضيء سواد سمائها الصافية. روما تمتد بلا نهاية، و بعض الأضواء المرتجفة تلمع بين جنباتها. حاولت فانينا أن تحدد الطريق الذي سوف يسلكانه. كان بيت والديها الذي أمضت فيه طفولتها السعيدة في هذا الاتجاه في سفح هضبة "بالاتين". هذا البيت السعيد، تحول الآن إلى مصدر للآلام والأحزان! امتلأت عيناها بالدموع، فهي لا تريد أن تتصور حال أبويها في هذه اللحظة، فهما بلا شك غارقان في أحزان كبيرة. على الفتاة الشابة ألاّ تفكر في أبويها، إذا كانت تريد أن تتغلب على المصاعب الجمة التي ستواجهها.

الآن، يجب أن تزيح من قلبها العواطف، وأن تتجرد من كل أنواع الأحاسيس وهي تحاكم الأمور!. لا بد أن يكون هناك خلف هذه الأبنية زاوية أمينة منعزلة قد جهزتها فبيديا لها. وربما كان هناك في أحد الأزقة عربة في انتظارها. لتأخذها بعيداً من هنا. إلى أماكن لا يتمكن أعداؤها من الوصول إليها. إذن من الأفضل ان تمكث هنا إلى جانب جسد أراكسيا وتنتظر قدوم أحد خدم رئيسة الراهبات المخلصين!.

لكن فانينا سرعان ما تخلت عن هذا القرار الذي اتخذته، عندما رفعت رأسها ونظرت إلى كايوس. لم يكن الشاب ضخماً كالبحارة القدماء، لكن ذراعيه القويتين تكادان تسحقان كتفيها، فمنذ أن التقت أهدافهما ونجحا في اجتياز ذلك الامتحان الصعب،

وبعد تلك اللحظات الرائعة التي أمضتها الفتاة وهي بين ذراعيه، بدأت تشعر أنها قد ولدت من جديد. لقد ماتت الطفلة فانينا التي صارت راهبة فستا والتي اعتنوا بها لكي تقوم بخدمة فستا إلهة المدينة، وحلت مكانها فانينا أخرى جديدة. وهي امرأة مستعدة لأن تضحي بروحها وجسمها فداءً للرجل الذي أحبته. إنها الآن زوجة كايوس فيندكس، لقد ارتبطت حياتهما بروابط لن تنفصم عراها مدى الحياة، وهما سيمضيان معاً، يداً بيد إلى حياتهما الجديدة. وهما سيحاولان أن ينسيا أن كايوس فيندكس يستحق الموت لأنه هرب من معسكر البروتوريان، وكأنه عصي أوامر الإمبراطور، وأن ينسيا أيضاً، أن اسم فانينا قد انمحى من الوجود بموجب قرار مجلس الرهبان.

ثمة مصير مشترك يواجهانه. لقد توحد هذا الرجل المحكوم بالإعدام الذي استحق غضب الشعب، مع هذه الإنسانة الحية الميتة التي وقفت أمام قوى الغدر والخيانة المتحكمة في البلاد. ثمة خطر يترصدهما في كل لحظة وفي زاوية كل شارع أو خلف كل بيت، لقد أصبحا عدوين لهذه البلدة التي أحباها. والكل قد استُنْفِر من أجل القضاء عليهما.

نظرت فانينا إلى كايوس فيندكس وهي تعبر بنظرتها هذه عن كل ما اختزنته من حب وقالت في نفسها:

- هذا هو الرجل الذي سوف يحميني. وهو من سأعتمد عليه ولن يخيفني أي شيء ما دمت إلى جانبه.

وبعد أن ارتاحت لهذه الفكرة سألته:

- إلى أين نحن ذاهبان؟

فهمس الرجل بيأس وكأنه ينوء بأعباء المسؤولية الجسيمة التي ألقيت على عاتقه منذ الآن:

- لا أدري.

سارا بضع خطوات وهما مترددان، وبعدها لفَّ كلٌ منهما خصر الآخر واتجها نحو المدينة وكأنهما قد عزما على أمر .

● î ● î ●

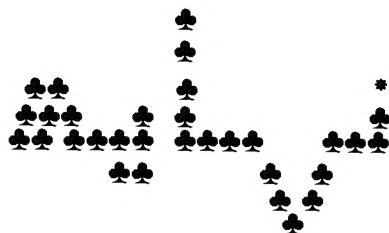
●

انتهت

من الروايات الصادرة عن الدار

[illegible]		[illegible]
زمن تنهيدة	(فرنسية)	آن فيليب
فتاة	(فرنسية)	جيرار دوفيل
رحلة حزينة	(كندية)	جاك بولان
الصديقات الثلاث	(كندية)	ميشيل ترامبليه
جارتنا البدينة حامل	(كندية)	ميشيل ترامبليه
أغاغوك	(كندية)	ايف تيريو
انتسوك	(كندية)	ايف تيريو
سعادة بالية	(كندية)	غابرييل روا
المنزل الخفي	(كندية)	ميشيل ترامبليه
النهر الهادر	(كندية)	غابرييل روا
الوداع الاخير	(روسية)	فالانتين راسبوتين
عندما تتداعى الجبال (العروس الخالدة)	(روسية)	جنكيز آيتماتوف
النفوس الميتة	(روسية)	نيكولاي غوغول
هذه هي حياتهم (٤ أجزاء) جائزة نوبل	(بولونية)	فلاديسلاف رايمونت
الموت الأرجواني والقدر العظيم	(بولونية)	ألكسندر كرافتشوكذ
سولاريس	(بولونية)	ستانسلاف ليم
حرائق في السهول	(يابانية)	شوهي أؤكا
الأعمال الكاملة (كافكا)	(ألمانية)	فرانز كافكا
نوران (أو قطار الى باكستان)	(هندية)	خوشوانت سينج
دعها انها راشدة	(تركية)	عزيز نيسين
[illegible]		
اليمامة	(العراق)	سلام عبود
زهرة الرازقي	(العراق)	سلام عبود
الخروج على الناموس	(سورية)	عزيز اسكندر
امرأة قرب التمثال	(سورية)	حسن الصقر

الفهرس



فانيـــنا

في إحدى محطات الحياة تعارف الرومانيون على اختيار أجمل فتاة لتكون راهبة روما الأولى التي تشفع لشعبها في الملمات . وليس لمن يقع عليها الخيار أن ترفض . وعليها أن تحافظ على عزريتها ، وإلا تعاقب بالموت فتدفن حية ومن يحاول إغراءها يلقى هو الآخر عقاباً صارماً.

فانينا الصغيرة المحبة للحياة، كانت ابنة أحد النبلاء الذي عرف باستقامته وجرأته في نقد ومقارعة المفسدين، كانت ابنته الوحيدة. لم تكن لاهي ولا أي من أبويها يرغبان ولاحتى يفكران في أن تصبح راهبة.

لكن وقع عليها الخيار وأخذت إلى المعبد ولما تبلغ الرشد.

في إحدى المراة كانت في عربتها متجهة نحو المعبد ومعها حراسها ، وقعت الواقعة ، فانقض عليها جبروت الحب إذ خرج من بين الجمهور الذي احتشد لرؤيتها ، فتى بهره جمالها ووقف أمام العربة قاطعاً الطريق وراح ينظر إليها. وهي الأخرى سُحرت به وسهت عن نفسها للحظات وغاصت في زرقة عينيه اللا زوردية فما الذي جرى بعد ذلك ؟!

عالم هذه الرواية مثير ومليء تتداخل فيه الأشياء: الأسطوري بالروحي الإحتماعي بالسياسي، الوداعة بالنفاق، السمو بالانحطاط ووحده الحب يسقط غيثه فوق جدب الصحراء .



دار الحصاد

سورية - دمشق - ص.ب: ٤٤٩٠

هـ : ٢١٣٤٦٩٢ / فا : ٢١٢٦٣٢٦

علي مولا